
@ketab_n
2.10.2014
الحمامة
التاريخ الطبيعي والثقافي
باربارة ألين
ترجمة: صخر الحاج حسين
@ketab_n
سلسلة الحيوانات

الحمامة

التاريخ الطبيعي والثقافي

تأليف: باربارة ألين



ترجمة: صخر الحاج حسين

مراجعة: د. أحمد خريس

سلسلة الحيوانات

الحمامة

التاريخ الطبيعي والثقافي

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PZ10.3.B3712 2011
Barbara Allen, Rev
الحمامة / تأليف باربارة ألين؛ ترجمة صخر الحاج حسين؛ مراجعة أحمد خريس.- أبوظبي:
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 238 : 19×13.5 سم.
ترجمة كتاب: Pigeon
تدمك: 978-9948-01-680-9
1 - الحيوانات - قصص الأطفال. 2 - الحيوانات والحضارة.
أ-حسين، صخر الحاج. ب- خريس، أحمد.

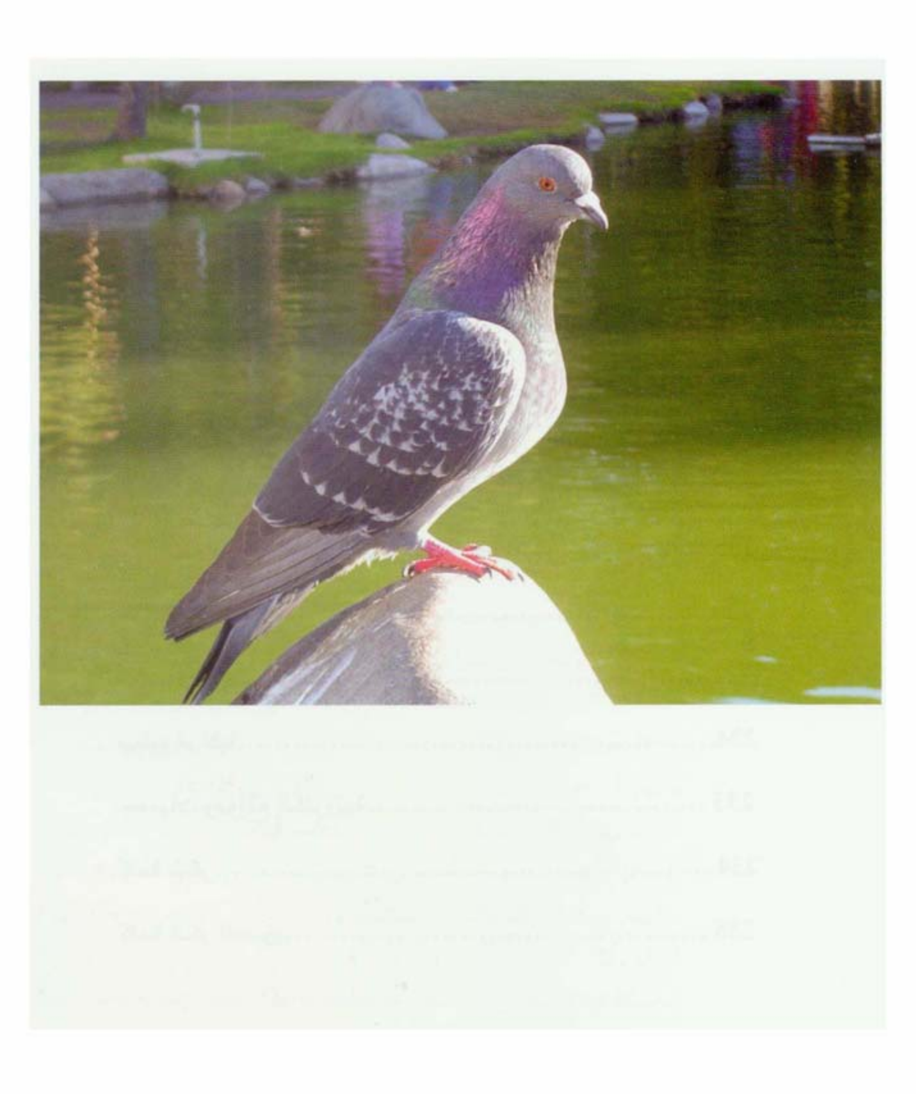
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Pigeon by Barbara Allen was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2009



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+
فاكس: 127 6433 2 971+



المحتويات



مقدمة

في تمهيده لـ «كتاب الحمام واليمامات البرية الغريبة» كتب كارل نايثر:

«قبل أنْ أبدأ العمل الفعلي على مخطوط الكتاب بوقت طويل حذرني أحد مربي الحمام[1] البارزين بقوله: «أوَ تعلم، ليس هناك من كتاب وُضِع عن الحمام تمكّن من تحقيق رواج في الأسواق؟». يتابع الرجل ويورد نصيحة أخرى سمعها من أحدهم: «سيذهب جلُّ جهدك ووقتك أدراج الرياح. فأنا لم أرَ كتاباً عن الحمام عوّض تكاليف طباعته أو حصل على مردود الجهود التي بذلت فيه . . . لقد رأيت الكثير ممن بدؤوا بتأليف كتبٍ عن الحمام لكن القليل جداً من أكملوها».

كنت أمرّ، وفي غالب الأيام، في طريقي إلى مركز التسوق بالقرب من حمامتين أراهما هناك تستريحان تحت إحدى الأشجار على جانب شارع صغير تخضع فيه أكواخ صغيرة لعمليات تجديد وترميم، في الوقت الذي تُحوّلت فيه المخازن إلى أماكن سكنى غالية.

حمامتان، عاديتان ربما، رغم ذلك فهما جزء من المشهد الذي يقدم درساً في الإخلاص والمرونة والمعنويات العالية. الزوجة، إنْ صح قولنا، كانت تشكو ألمًا في ساقها، لذا كانت تمضي جُلَّ وقتها وقوفاً في الوقت الذي كان فيه زوجها يمشي حولها بزهو وخيلاء، ويهدل إليها بلطف وحنان. غذاؤهما جيد، فقد اعتاد العمال المحليون هناك أنْ يتركوا لهما بقايا وجباتهم وفتاتها. ومرة، رأيت رجلاً متقدماً في العمر يخرج من أحد الأكواخ ويطعمهما كِسراً من الخبز في المساء. وبين فينة وأخرى يملأ لهما بالماء وعاءً بلاستيكيا عديم القيمة كان فيما مضى يستخدم لجلب الأطعمة الجاهزة. ورغم أنّ حياتهما تلك

---

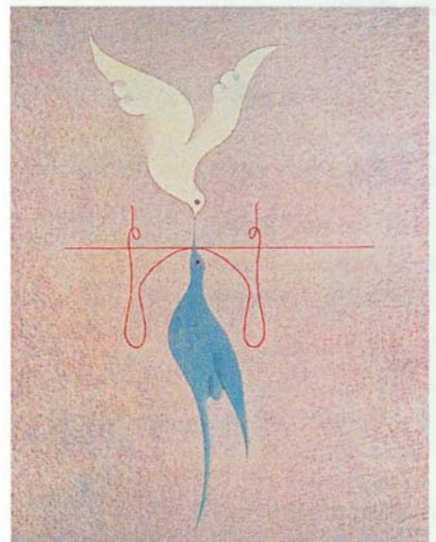
(1) Fancier وتعني عاشق الحمام، وهي مهنة قديمة تنتشر في بلاد الشام خصها الكاتب البريطاني ماريوس جوشيجوزسكي، بكتاب حمل عنوان Pigeon Wars of Damascus.

Ayuda a los refugiados,
contribuye a la paz.



United Nations General Assembly

Second Special Session On Disarmament May 1982





كانت تقارب حياة الرفاه، إلاّ أنهما أَلِفاها.

أكتب هذا في الوقت الذي أسمع فيه هديلَ الحمام في حديقتي. في الصباحات، أطعم حمامتيْن من فصيلة روك[1] بالإضافة إلى بعض الضيوف المتطفلين من اليمام صاحب الياقة[2].

يسحرني الحمام. كان الحمام شريكنا في العمل، ومرسالنا، وعوننا في الحروب ومصدر غذاء لنا. كما أنّ تربيته رياضة وهاجس للجميع. وأخيراً وليس آخراً هو أضحية دينية ملائمة.

عبر العصور كان الحمام رسولاً بجناحين، يأتي إلينا بنتائج الألعاب الأولمبية القديمة ومباريات كرة القدم والامتحانات. كما مدّ لنا يد العون في إماطة اللثام عن بعض أسرار علم الوراثة والملاحة. الحمام يشبه العديد من البشر من المجتمعات، ففيه من هو مُتَجاهل مُهمّش يقبع على أطراف المجتمع. رغم هذا كله كان على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الحضارات. لكن ثمة مفارقة، فبالرغم أنّ اليمام من عائلة الحمام، إلاّ أنه يثير ردود فعل مختلفة تماماً، فعبارتا «الحمام الطعم» Stool pigeon و«الحمام مقوس الساقين» تحملان معاني وتضمينات سيئة، أما إذا جمعنا أو ألّفنا[3] فيما بين المعاني وهذه الطيور، فسيعطي ذلك ردة فعل من قبلنا تحمل معاني أكثر إيجابية. لقد بات جرذان السماء[4] تلك، رمزاً للسلام. ولكن هل ستغير الأمم المتحدة شعارها من «يمامة» إلى «حمامة»؟ وهل ستزيد مصانع مستحضرات «دوف[5]» (يمامة) للتجميل من مبيعاتها إنْ

الصفحتان السابقتان، إلى اليسار، غوث اللاجئين.

إلى الأعلى وعلى اليمين: فاز هذا الملصق بمسابقة دولية أقيمت حول نزع الأسلحة. فاز بها غيرهارد فويت من ألمانيا. استخدم هذا الملصق للمساعدة في ترويج الجولة الخاصة الثانية للجمعية العامة للأمم المتحدة حول نزع الأسلحة. 7-9 حزيران 1982.

ابن سلام، وعدالة (النسخة الفرنسية) ملصق لليونيسكو 1979.

روكو كالاري، طوابع ويمام، ملصق من أمريكا اللاتينية يظهر طوابع بريدية للأمم المتحدة، أصدرتها إدارة البريد في الأمم المتحدة.

(1) Rock Pigeons السلف الأول للحمام اسمه اللاتيني Columba Livia.

(2) Collared Dove يمام ملون، من عائلة الحمام، له ياقة سوداء حول عنقه. موطنه الشرق الأدنى ووسط وشمال أوروبا.

(3) المفردة الإنجليزية في الأصل هي dovetail استخدمتها المؤلفة عامدة كونها تتألف من مقطعين الأول منهما dove ويعني اليمام والثاني tail أي ذيل ليصبح معنى الفعل جمع الأشياء أو تعشيقها.

(4) Rats with wings أو جرذان بأجنحة. تسمية أطلقها البريطانيون على الحمام.

(5) Dove ماركة عالمية مشهورة.

هي أسمت منتجاتها «بيجيونPigeon » بدلاً من «دوف»؟

وماذا عن شوكولاته «دوف»؟ وهل سننظر بعين الاحترام ذاته لبطاقات فيزا الائتمانية Visa credit cards، وبنك أوف أمريكا Bank of Americaاللذين ضمّنا جزءاً من شعاراتهما يماماً، لو قلنا بأنه كان حماماً؟ ماذا عن بطاقات عيد الميلاد الموشاة بحمامات رمادية من فصيلة روك[1]، بدلاً من اليمامات البيضاء أو الحمام البري الذي يُطَيّر في الأعراس عوضاً عن حمامات تغيب عنها الألوان؟ بعد قولنا هذا، ما نزال نجد بعض الشركات التي تستخدم كلمة حمام. فهناك خطٌّ جديد من منتجات «بيجيون» وهي مستحضرات للعناية بالأطفال جاءت هذه المرة من آسيا. وهناك أيضاً ودائماً من آسيا، ماركة أزياء مشهورة، «بيجيون كومباين Pigeon Combine»[2] (صممت ملابس هذه الماركة بطيفي الرمادي والأسود ومن هنا جاءت التسمية).

إنّ الفرق بين ردود الفعل العاطفية التي يحدثها هذان الطائران لافت جداً. ففي اليابان، تُطيّر ألف يمامة ضمن مراسم سنوية تشير إلى ذكرى قصف هيروشيماHiroshima Day. في الوقت الذي أجبرت فيه مدينة لندن على التخلص من الحمام من ساحة ترفارلغار[3]. فرغم أنّ الحمام واليمام من العائلة ذاتها، إلاّ أنّ النظرة إليهما مختلفة.

تعدُّ العلاقة التي أقامها البشر مع الحمام واحدة من أقدم الشراكات في التاريخ. فهذا الوثاق بين الإنسان والطير بين الريش والجلد بين الجناح والإصبع، لأمرٌ لافت في زخمه وبدائيته. ليس لهذه الطيور المتواضعة الوديعة قلادات تتلألأ ولا مفارش وأسرّة من

---

(1) سبق التنويه إليها.

(2) وتعني مزيج الحمام.

(3) باتت مشكلة كثرة الحمام في ساحات لندن ومبانيها أمراً مؤرقاً للسلطات المحلية مما جعلها تسعى بكل جدية للتخلص منه.

ذهب. لقد عجزت الشركات التي تصنع أطعمة من لحوم الحيوانات الداجنة عن الكسب من خلال الترويج «لمباهج الحمام» أو «أطايب لحمه». للمرء أنْ يجادل في أنَّ هذه الأشياء غير ضرورية وزائدة عن الحاجة، لكن مقومات رئيسة وجوهرية تدفع هذا النوع من الطيور إلى العيش، هذا بالإضافة إلى اعتماده على مقدراته الفريدة التي تتجلى في مهاراته التي دُرِّب[1] عليها من أجل هداية نفسه والعودة إلى دياره بأمان وسلام. لربما يأتي الحمام من دون ألقٍ أو قيمة تجارية (رغم أنّ بعضه يعود على مُلّاكه الذين يشركونه في السباقات بمبالغ كبيرة من النقود)، لكن هذا لا يعني أنه ليس له مشايعون أو معجبون. اسأل مربي الحمام عن السبب الذي يجعلهم يربونه أو يشركونه في السباقات، وانظر إلى البهجة التي تلتمع في عيونهم وهم يحاولون ذكر الأسباب بكلماتٍ قليلة. هم لا يفعلون ذلك لمجرد الشهرة أو كسب مبالغ من النقود، فثمة شيء خاص يتصل بالعلاقة بين الطير وصاحبه إنه السحر الذي يوحّد الحمام بالبشرَ القادمين من خلفيات حياتية واجتماعية شتى وتجارب متنوعة، بمن فيهم روي روجرز Roy Rogers[2] ومايك تايسون Mike Tyson[3] ويول برينر Yul Brynner[4]. وأما بطل سلسلة الحكايات الهزلية المصورة أندي كاب Andy capp[5] سليل الطبقة العاملة فقد كان يربي الحمام من بين أشياء أخرى عديدة كان يقوم بها.

يقول ربرت رايت كامبل ربما يعود أصل إعجاب البشر بالحمام إلى الاعتراف بالقواسم المشتركة (أو على الأقل إدراكها) بين البشر

(1) المقصود هنا الحمام الزاجل المدرب على العودة إلى موطنه الأصلي.

(2) ممثل أمريكي مشهور.

(3) بطل الملاكمة المعروف.

(4) ممثل أمريكي اشتهر برأسه الحليق وحضوره المميز على الخشبة.

(5) شخصية كرتونية وبطل حكايات هزلية مصورة أسميت على اسمه أبدعها ريغ سميث. تظهر هذه الحكايات على صفحات صحف بريطانية شأن « الديلي ميرور» والصندي ميرور» منذ الخامس من آب عام 1957.

حمام على نصب
بلسودسكي، لوبلين.



والحمام. فللحمام والبشر الكثير مما يشتركون به. والمزعج في الأمر أنّ الحمام يتمسك بصفات تخلينا عنها نحن البشر:

يتشابه البشر والحمام على نحو عجيب، ما يجعلنا نقول: إنّ لتلك الطيور اللطيفة صفات تتجلى بالإخلاص والعواطف والحب والشجاعة والتصميم والكبرياء، وهي صفات يتباهى بها العديد من البشر عندما يلفون أنفسهم في أفضل حالاتهم. بيد أنّ الحمام، وإنْ أظهر الغيرة وسوء المزاج ولحظات من المشاكسة والمناكدة والطمع والشره، إلا أننا يجب أنْ نغفر له، فأخطاؤه صغيرة مقارنة بآثامنا، رغم ذلك لا يخلو الأمر من إرباكات يسببها لنا في بعض الأشياء. عندما يتعاشر الحمام يدخل في زيجة أبدية ما لم يُجبر على الانفصال. وعندما يُكّلف بمهمة شأن سباق طويل فإنه مثابر ويحتمل إجراءات شديدة القسوة لا يستطيع أنْ يطيقها سوى أشد

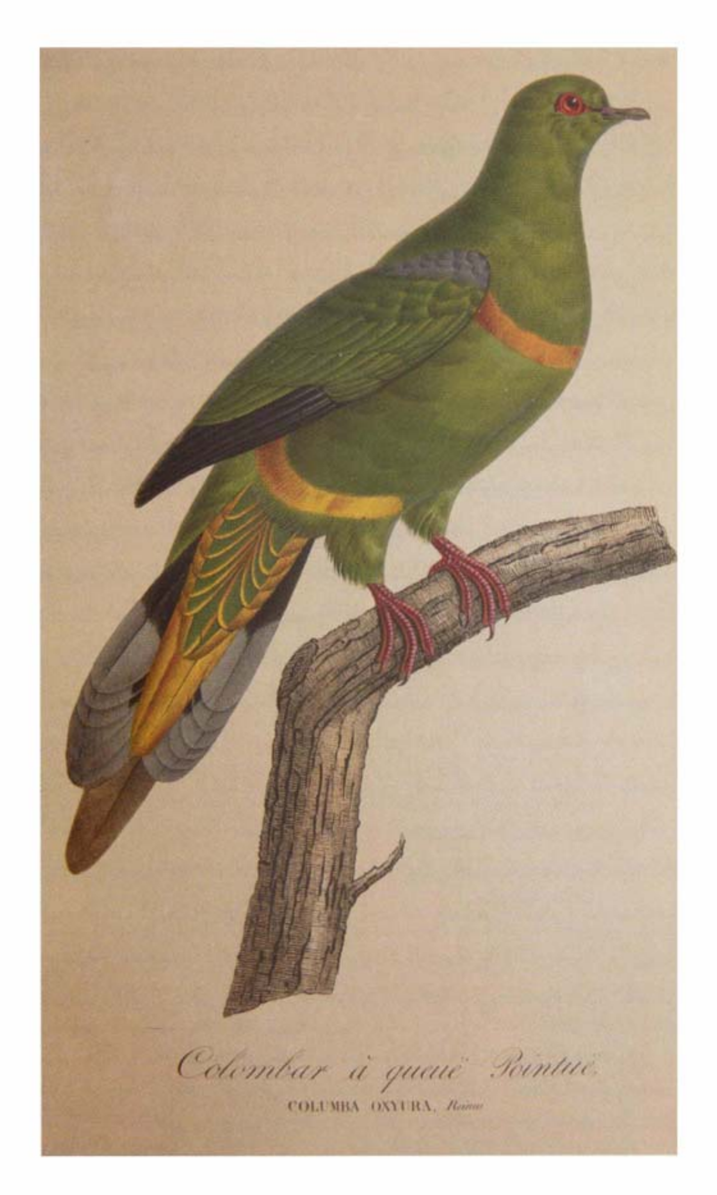
الرجال بأساً.

أفترض بأنّ هناك مظاهر أخرى أشد إلحاحاً تشير إلى هذا السحر والانجذاب الذي يمارسه الحمام علينا، تتجلى في رفضنا لذاتنا وأحلامنا بالآخر. فالحمام يرمز إلى من نكون نحن، بينما يمثل اليمام «الآخر» أي من نريد أن نكون. وكما أنّ الحمام واليمام ينتميان إلى العائلة نفسها، فإنهما يمثّلان جوانب من شخصية المرء أو الشخصية ذاتها. فالحمام يمثل «العادي» و«أي شخص» نكون عليه في حيواتنا اليومية. أما اليمام، فيناجي قلوبنا ويفتح أغشية أحلامنا. اليمام هو طموحنا، وما نتخيّله في أثناء صيرورة تحولنا إلى ما نصبو إليه؛ فهو رغباتنا الدفينة التي تتحقق. واليمام طير مذهل مُدوِّخ جميل فاتن، صعب المنال في الغالب، وعصيٌّ على الإدراك.

نجد هذا التعارض في الأدب ووسائل الإعلام، فالمسرحية الغنائية



يعيش الحمام في مواطن مختلفة تمتد على مساحات واسعة بما فيها المدن والجروف الساحلية والأراضي الوعرة.



Colombar à queue Pointue.

COLUMBA OXYURA, *Reinw.*

«سيدتي الجميلة» My fair Lady [1] هي حكاية كلاسيكية تتحدث عن تحول حمامة إلى يمامة. فإلزا دوليتل تتحول من فتاة عادية (أي حمامة، يُنظر إليها باستخفاف وازدراء، تُواجَه بالتقطيب والعبوس أنىّ حلّت فضلاً عن إهمال الآخرين لها) إلى فتاة مذهلة (أي يمامة، فتاة خارقة تثير الإعجاب ويطلب الآخرون ودها).

بالطبع هناك أمثلة أخرى تعكس الصورة السائدة، ففي فيلم «ماري بوبنز Mary Poppins» [2] تعزف السيدة الطير على آلة وترية وتستثير دموعنا عندما تغني «أطعموا الطيور، كيس الطعام ببنسين فقط Feed the birds tuppence a bag». تلك كانت دعوة للوصول إلى أعماق أرواحنا وناقوس يذكرنا ببراءتنا الأولى. إنّ هذه الأغنية تلحُّ، بما تثيره من شجون وحسرات، على ضرورة إيلاء الصغار- طيور شوارعنا وأحيائنا- التي نسيها العالم مزيداً من الاهتمام. كما نرى، في مسلسل «شارع السمسم Sesame Street» [3]، بيرت الدمية «الجادة» أو «صاحبة الشخصية المستقيمة» تنحو بحبِّ الحمام منحىً جديدًا، وبالتالي إلى جمهور سهل التقبل. فبرت يرقص مع إحدى الحمامات بحركات مُرتّبة ليقلد مشيتها في الوقت الذي يغني فيه Doin the pigeon. ويلعب بيرت «الداما» [4] مع الحمامة. (بالطبع يخسر ذلك لأنّ الحمامة أذكى منه). ربما أُقحمت الحمامة في هذا المسلسل لأنّ الحمام في الغالب هو الحيوان الأول أو «حيوان آخر» يميزه الطفل في الغالب. وأحياناً يتم تبني حمامات محلية بوصفها «حيوانات الأطفال المنزلية». تقع أحداث مسلسل «شارع سمسم» في مدينة ترتفع فيها المباني. وتكون أعداد الحمام في تلك الأنحاء كبيرة، بما أنّ المباني المرتفعة هي أقرب الأمكنة إلى الجروف والأماكن

«كولومبي بلو فيردا» «كولومبا سيانوفيرين» حفر لسيزار ماكري. على نمط أسلوب مدام نيب من كتابها Les Pigeons) باريس 1811).

(1) اقتباس لمسرحية «بغماليون» للكاتب المسرحي الأيرلندي الشهير جورج برنارد شو.
(2) فيلم غنائي مشهور حاز على الأوسكار قامت ببطولته الممثلة الأمريكية جولي أندروز.
(3) مسلسل تلفزيوني أمريكي للأطفال يعتمد الرسوم المتحركة وسيلة للتعليم.
(4) لعبة شبيهة بالشطرنج.

المرتفعة التي اعتاد الحمام على سكناها فيما مضى، فالحمام ساكن جروف بامتياز. وأيّ مكان أفضل من العيش في حاضرة شاهقة؟ إنّ الإقرار بأهمية «الآخر» في حيوات الأطفال هو أعظم قيمة من شأنها تعزيز الاحترام للآخرين (بما في ذلك كل المخلوقات). ربما كان استخدام الحمام حيلة مُتّعمدة لتمثيل «المُصمَت»[1] أو «المُتَجاهل» الذي يمثل في الغالب معضلة للطفل.

ولكن هل من امرئ تراوده الشكوك فيما يتعلق بجمال الحمام؟ يتحدث مارسيل بروست[2] عن «تشتت الحمام في السماء حيث لاذت أجساده الجميلة المتألقة كألوان قوس قزح. (لقد شُكّلت أجساد الحمام وكأنها قلوبٌ، وليالك مملكة مُجنّحة). «مستدقّ كسهمArrow pointed » «لغد المنقارBeak Wattle»[3]، «ذو الشكلين»Bishaped، «أثر منديل Handkerchief-Marking»، «مُستَهود Jewing»، «مُزيّن بشريط Laced»، «وجه بريش»Muffed، «عين المحار Oyster-eye»، «التاج الصدفة Shell Crown»، «ذو الخفين Slippered»، «جوربان Stockings»، تيبت[4] (شعر العنق أو قلنسوة اليعقوبي)[5] «تيسي Tysy»، الخمار[6] تلك هي بعض

---

(1) وردت في الأصل voiceless وتعني « من لا صوت له» ليس بمعنى الخرس بل بمعنى الصمت القسري الذي فرضه عليه المجتمع. والإحالة هنا واضحة؛ إذ يحيل الصمت، في المجتمعات الذكورية، على الحيوانات والأطفال والنساء.

(2) مارسيل بروست الروائي والناقد الفرنسي الشهير وصاحب « البحث عن الزمن المفقود» الرواية ذائعة الصيت.

(3) هي ترجمة مقاربة للمصطلح واللغد هو الجزء اللحمي المجعد من البشرة يتدلى من الرقبة، وهو سمة مميزة لبعض الطيور.

(4) Tippet وشاح طويل من الحرير أو الكتان يلبسه أعضاء الطائفة الأنغليكانية.

(5) Jacobin ولها أكثر من معنى، فتشير إلى اليعاقبة رجالات الثورة الفرنسية كما تشير إلى الرهبان الفرنسيين. وأما العبارة ذات الصلة هنا فهي Jacobin pigeon وهو نوع من الحمام يكسوه الريش حتى يكاد رأسه لا يظهر.

(6) Veil اضطررنا إلى إثبات ترجمة مقاربة رغم أنه من الصعوبة (وربما من الخطأ ترجمتها). ومعلوم أنّ مسميات الطبيعة وعناصرها محلية بامتياز.

المفردات الشعرية التي يستخدمها مربو الحمام. ولكن كيف تستقيم تلك الأوصاف مع عبارة «جرذان السماء»؟

ربما لا تكمن المشكلة في الحمام أو اليمام، بل تكمن في نفوسنا نحن. وربما كان الحمام هو قبعة الساحر التي تجعلنا نغمض العيون عن القبعة الحقيقية الموجودة فعلاً. فتتخيل قلوبنا ما نريد أنْ نراه، أي قبعة تملأها يمامات بيضاء كالثلج تطير إلى الأعالي تحلق بأحلامنا معها.

1 - أحمامة أم يمامة؟

هل ثمة اهتمام بالحمام العادي؟ لقد كان تشارلز داروين Charles Darwin يربي الحمام، وكتب عنه في كتابه «أصل الأنواع». بيد أنّ ناشره عندما أحال مخطوطة الكتاب إلى أحد المستشارين لإبداء وجهة نظره في الكتاب، كتب هذا الأخير مبدياً أسفه مشيراً إلى أنّ داروين لم يضع مجرد كتاب عن تربية الحيوان. واستطرد قائلا: «سيهتم جميع الناس بالحمام. أما بالنسبة للكتاب فستتناوله جميع المجلات والصحف في المملكة المتحدة نقداً وتحليلاً وقراءات، وسرعان ما سيصبح إنجيلاً جديداً للقراء».

ما الذي يجذب المرء إلى الحمام أو اليمام أو إلى أيّ طائر آخر؟ وإلى هذا الموضوع؟ هل هي تشكيلة الأنواع، من اليمام الصغير صاحب الياقة إلى ملكة الحمام فيكتوريا[1] المتوجة الغريبة. ومن الحمام الكابوتشيني الهولندي القديم[2] إلى حمام الترومبيتر الفرنكوفوني[3]؟ هل هو السحر الذي يقترن مع غريزة العودة إلى الديار، وغريزة السرعة التي تقترن بالنشاطات الرياضية؟ أم أنّ السبب هو روعةُ التحليق في السماوات وتوقنا إلى ذلك؟ أم أنّ الإجابة تكمن بالقرب منا، أيّ أنّ الطيور ترمز إلى «الآخر» بالنسبة لنا؟

ليست قدرة الطيور على التحليق هي ما يميزها عن الحيوانات الأخرى (فالحشرات والخفافيش تطير أيضاً. كما أنّ هناك العديد من أنواع الطيور التي لا تستطيع الطيران) بل هي الحقيقة المدهشة بأنّ الطيور فقط هي التي تملك ريشاً على أجسادها. فالمجموعتان الأكثر تطوراً من الفقاريات هما الطيور والثدييات، وقد تطورت

(1) Victoria Crowned Pigeon، نوع غريب من الحمام البري يتميز بحجمه الكبير.

(2) Old Dutch Capuchine يسمى في مصر بالنمساوي.

(3) Franconian Trumpeter حمام داجن يتميز بطوق مكشكش من الريش حول الرقبة وأقدام غزيزة الريش وصراخ عالٍ.



جورج إدواردز «حمامة من جزيرة باندا في الهند الشرقية» من كتابه «Gleanings of Natural History» الصفحة 3 (لندن 1764).

كلتاهما وعلى نحوٍ مستقل من الزواحف. إنّ أقدم مستحاثة تعود إلى 140 مليون عام وهي لطير الأركايبتريكس[1] (الجناح القديم). يعد الذيل الطويل المستدق ومخالب وأسنان هذا الطير، ميزات لواحدٍ من الزواحف. ولكن ما يميزه عن الزواحف هما الجناحان مع الريش الذي تطور ونما. قارب حجم الآركايبتريكس حجم الغراب، ومن الممكن أنه تطور من ديناصورٍ تقليدي راكض. ربما كان هذا المخلوق

(1) Archaeopteryx ديناصورات بريش على أجسادها.

طائراً سيئاً. لقد ظهر خلال المئة والأربعين مليون سنة الماضية العديد من مجموعات الطيور التي يعود نجاح ارتقائها إلى عوامل ثلاثة: انتماؤها إلى ذوات الدم الحار، والقدرة على الطيران، وتطور سلالتها الناجح.

يذكرنا الريش الذي يعمل على توفير القوة والمرونة بأصل هذا الطير. لربما كان الريش تطوراً لحراشف الزواحف، بما أنه تشكل من المادة القاسية نفسها أي الكيراتين Keratin. كما يعود جلد الحمام إلى أيام كان الحمام من الزواحف، ذلك أن الحراشف التي تشبه تلك التي للزواحف موجودة على سيقانه وأقدامه. وأما مخالبه ومنقاره الذي يشبه القرون فهي مثل حراشف معدلة.

منذ متى ظهر الحمام على الأرض؟ عندما يحاول المرء أن يحدد

إعادة بناء الأركايبتريكس.

عمر أحد الكائنات، فالمستحاثات عادة تكون دليلاً جيداً. رغم ذلك لا تبرز المستحاثات الكولومبيدز على نحوٍ جيد[1].

إذ لم يتم العثور على أشكالٍ بدائيّة حقيقية حتى الآن. لقد عُثر على الجنس جيرانديا[2] -من شبه المؤكد أنه ينتمي إلى كولومبيناي[3]- في رواسب في فرنسا من الحقبة الجيولوجية الأولى. كما عثر في نيوزيلندا على بقايا متفتتة لواحد من طيور الحمام من الحقبتين الجيولوجيتين الأولى والوسيطة. أما في أمريكا الشمالية فقد أُخرجت بعض المستحاثات الباقية من الحقبة البليوسينية، من الأرض، بالإضافة إلى بقايا مستحاثات من العصر الجليدي في مناطق متعددة من العالم.

عندما نمعن النظر في الحقائق البيولوجية ونبدأ بأقلها إثارة للجدل، ونحدد الفروق بين الحمام واليمام، سنلقى أمامنا أنباء غير طيبة، تفيد بأنّه ليس هناك من تمييز على الصعيد الحيواني فيما بينهما.

تُطلق مفردة «حمام» عادة على الأنواع الأضخم أما «يمام» فتطلق على الأنواع الأصغر. لكن جميعها من العائلة ذاتها أي عائلة كولومبيداي. لربما يشكل هذا مفاجأة لنا، فالعديد منا ينظر إلى الحمامة على أنها شيء بغيض، في الوقت الذي تُرى فيه اليمامة رمزاً لفضائل سامية شأن الحب والسلام. في متحف توليرانس في لوس أنجلوس، ثمة بابان يسدان المدخل إلى المعرض. مُيّز الأول منهما بكلمة «تحامل» والثاني «تسامح» عندما يجرب المرء أن يفتح الباب الثاني، يبزغ ضوء ويُسمع صوت مسجل يقول: «فكر.... الآن استخدم الباب الآخر». جميعنا نلوذ إلى التحامل. فالتحامل يمكن أن يوجه إلى آراء راسخة فيما يتصل بالحمام المتواضع. استبدل كلمة «اليمامة» وقل إن تغيرت الآراء.

(1) Columbids وهي ثمانية أنواع من الحمام واليمام.

(2) Gerandia من الكائنات العضوية.

(3) Columbinae وهي عائلة حمام ويمام تفرعت عن العائلة الرئيسة Columbidae.

صورة لحمامة نيلجيري،
رسم على الميكا.[1]



(1) Mica مجموعة معادن تتبلور على شكل طبقات (سيليكات)، الموسوعة الحرة.

يمكننا أن نلقي بعض اللوم على «الإيتمولوجيا»[1] وما تمارسه من إرباك، بالإضافة إلى تاريخ المعارك أيضاً. تترجم كولومبا ليفيا Columba Livia وهي الاسم العلمي للحمام على أنها «اليمام أو الطير الغواص[2] ذو اللون الرصاصي المائل إلى الزرقة». كانت مفردة «الطير الغواص» في جانب منها إحالة إلى الطريقة التي يحرك فيها الذكر رأسه أو يحنيه أثناء طقوس الغزل. يعود استخدام اسم «الطير الغواص» إلى زمن غابر. وهو أقدم معنى لكلمة كولومبيس Kolumbis في اللغة الإغريقية. وهو كولومبا Columba في اللاتينية ويمامة Dove في اللغة الأنجلوساكسونية. ومن كلمة كولومبا اشتق اسم آخر لخمٍّ الحمام (= بيت الحمام)، أي كولومباريوم Columbarium. استخدمت هذه الكلمة في وثائق قديمة ولها تنويعات في أماكن جغرافية مختلفة: فهي «كولومندي Colomendy» في ويلز و«كليمير Clummier» في كورنوال. ونعثر، لاحقاً، على التنويع الأنجلوساكسوني للكلمة كولفار Culvar وكولفي Culver أو كلفري Culfre. لقد عاشت هذه المفردة وبرزت في أسماء أمكنة في جنوب غربي إنجلترا وهي التي جاءت بكلمات شأن «كولفيرهيل Culverhill»، و«كولفيرفيلد Culverfield»، و«كولفيرويل Culverwell». ومن الممكن أنّ كلمة «حمامة Pigeon» جاءت من بيبيو Pipio وهي الكلمة اللاتينية لطير مزقزق صغير.

قال بعض الكتاب: إنّ قابلية مفردتي «حمام» و«يمام» للاستبدال واحدة بالأخرى نجمت عن الغزو النورماندي لإنجلترا الأنجلوساكسونية، بما أنّ الفرنسية كانت لغة البلاط والموائد. ففي الأصل كلمة «حمام» Pigeon فرنسية، وتحاكي الصرخات الحادة لزغاليل الحمام التي كانت تربى في الحظائر القريبة كمصدر

(1) Etymology العلم الذي يدرس أصول الكلمات.

(2) Diver bird ويسمى أحياناً الغواص أو الوغد، والمصطلح عادة يشير إلى عدد كبير من الطيور.

للغذاء. أما اليمامات الأكبر فهي التي كانت تستخدم في صنع شطائر «الحمام»، ومن هنا شاع استخدام الكلمة الفرنسية الجديدة «حمام» Pigeon أكثر مما استخدمت كلمة «يمام»(dove).

ومن جهة أخرى، لليمام جذورٌ ساكسونية وأصل اسكندينافي قديم أيضاً؛ فقد ظهر الاسم في البداية خلال حقبة تشوسر Chaucerبوصفه دوفا duva أو douve. وأما الصغار «الزغاليل»



«سلحفاة كارولينا Turtle of Carolina» من كاتسبي مارك كاتسبي «متحف كارولينا الطبيعي» فلوريدا وجزر الباهاماس... الجزء الأول 1. (لندن 1731).

فتسمّى «سكواب Squab» وجاءت من الكلمة الاسكنديناڤية القديمة سكفاب skvabb وتعني «ناعم وثخين»، وتحولت كلمة Dove إلى duffus في إيست إنغليا، وducket في شمالي إنجلترا وdoocot في اسكتلندا. وما تزال لكلمة يمام Dove ارتباطات مع المطبخ، ففي لغاتٍ أخرى ثمة كلمات شبيهة تعني «أصم Deaf» أو «كفيف Blind» وحتى «أبكم dumb» أو «مُربك confused» وتشير إلى الطريقة السهلة التي كانت تُمسك فيها هذه الطيور وتقدم على موائد الطعام.

وهناك حضارات أخرى استخدمت الصوت الذي يصدره اليمام لتسميته (وهو شبيه لاستخدام الكلمة اللاتينية pipio). وبالنسبة للرومان استخدمت كلمة تور- تور tur tur وأما بالنسبة للأنجلو ساكسون، بات الاسم تورلا turla أو تورتيل turtil. وفي العبرية كلمة «يمام Dove» هي يونا Yonaو جاءت من «أنا Ana» وهي الكلمة العبرية لكلمة «ينوح moan» أو «يندب mourn» (ربما تشير هي أيضاً إشارة إلى الصوت الذي تصدره الطيور). كما أشار العبرانيون أيضاً إلى صوت اليمام كـ«تورTor». بيد أنّ ذلك كله لم يشكل أية مشكلة إلى أنْ تُرجمت الكلمة. وعندما صادف أول مترجمين للكتاب المقدس الإنجليزي هذه الكلمة، ترجموها على أنها «سلحفاة turtle». وكان هذا سابقاً على تسمية الحيوانات البرمائية ذات القواقع الصلبة. ولحل المشكلة عُرف اليمام بالطيور الأليفة أو الداجنة (أخطأ مترجمو نسخة الملك جيمس في سفر نشيد الإنشاد 2:12 نقرأ: «وصوت السلحفاة سمع في أرضنا» (2:12)[1].

كل الحمام واليمام أسلاف مباشرون لحمام بلوروك Blue rock pigeon. لقد وقف تشارلز داروين الذي أشعل اهتمامه بالحمام نظريته في علم الوراثة، إلى جانب نظريته القائلة بتوريث الصفات

---

(1) نسخة الملك جيمس غير متوفرة.

المكتسبة. فقد كتب الرجل: «كبيرة هي الفروق بين سلالات الحمام. وإني على ثقة كاملة بأنّ جميع تلك السلالات جاءت من حمام الروك (يمام الروك) كولومبا ليفيا». أعاد متعقبو الطيور Ornithologist البريطانيون والأمريكيون رسمياً تسمية يمام الروك بحمام الروك.

يوجد هناك 316 نوعًا من الحمام واليمام تقسم إلى 42 جنسًا. وهناك أيضاً خمس عائلات فرعية هي: كولومبيداي Columbidae



شعاع «تورتور أوريتيس» من كتاب جون غولد بعنوان «طيور بريطانيا العظمى» الجزء الرابع (لندن 1873).

وأوتيديفابيناي Otidiphabinae (وهو حمام الدراج Pheasant أو الذيال. وهو نوع واحد فقط) وتريرونيناي Treroninae (اليمام الأخضرGreen Dove ويمام الفاكهة Fruit Dove وهو 124 نوعًا) وغورايناي Gourinae (الحمام المُتوّج 3 أنواع) وديدونكولينيو Didunculinue (حمام بمنقار شبيه بالأسنان tooth-billed وهو نوع واحد). أما قائمة أقرباء الحمام فتحتوي على (Sandgrouse Pteroclidate) و(Charadriiformes) waders.

ويوجد الحمام واليمام في كل قارة باستثناء القارة القطبية مع تفضيله للمناطق الاستوائية. وللحمام مقدرة استثنائية على التكيف مع عدد من البيئات المختلفة، فهو يوجد في الأراضي العشبية، والصحارى والغابات، وفي العديد من المدن والبلدات. لقد بقي الحمام رغم وجود عدد من مفترسيه ومن دون وسيلة للدفاع عن نفسه سوى الطيران.

لمعظم فصيلة حمام الـ«كولومبيداي» Columbidae أجساد قصيرة قوية مكتنزة برقاب وسيقان قصيرة. (رغم أنّ بعض السلالات التي تم انتخاب صفاتها تتحدى تلك الصفات). وتتفاوت أجنحة هذه السلالة في الشكل والطول. وثمة فرق ضئيل في اللون وأطيافه بين الجنسين. أما المنقار فرفيع وناعم باعتدال، وغطي المنخران بالأوبيركولوم[1]، والعيون في الغالب ملونة ساطعة. ولا تعيش فصيلة هذا الحمام على الأشجار بل يفضل أنْ يبنيَ أعشاشه على سطوح الصخور (ومن هنا جاءت عدم شعبيته في المدن الغربية). ربما هذا ما يذكر بقديم أصوله عندما كان يعيش على سطوح الجروف الصخرية.

للحمام إمكانيات طيران غير عادية، فالجناحان القويان يوفران

---

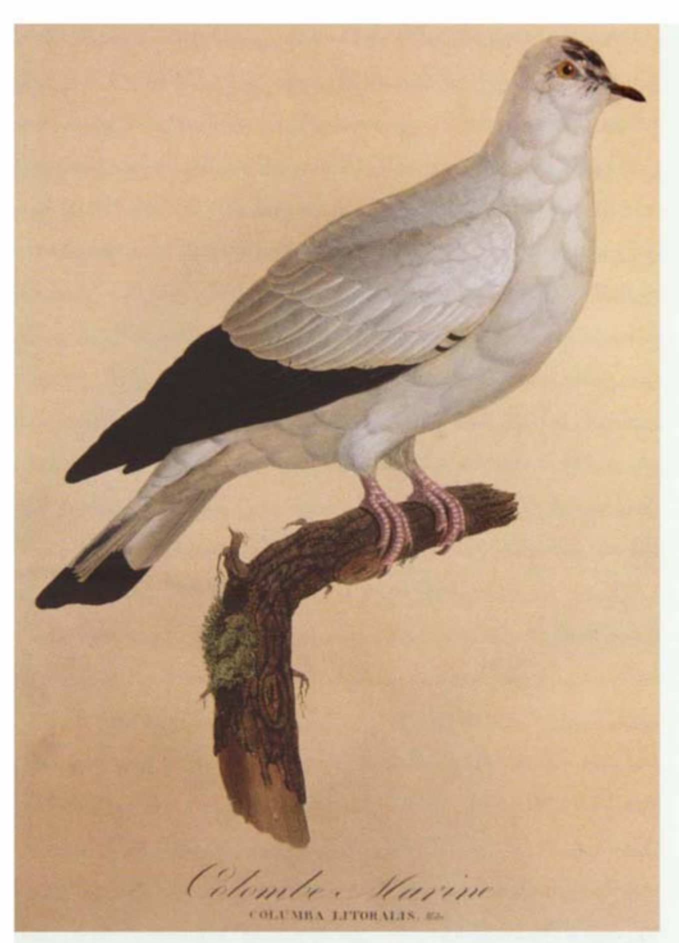
(1) Operculum غطاء يتدلى. يغطي فتحة أو ثقبا عند الحيوان مثل غطاء الخياشيم عند الأسماك.

له قدرة دفع وتحليق في آن. عندما يطير الحمام يرفع جناحيه إلى الأعلى قدر الإمكان، ومن ثم يرفرف ويندفع إلى الأسفل ويدفع معه حجماً كبيراً من الهواء لكي يحلق إلى الأعلى، وعندما يرتفع الجناحان تمتد الريشات الرئيسة إلى الجوانب وتلتوي كل منها على حدة لتولد مزيداً من الارتفاع.

وتسمح هذه القوة للحمام بأنْ ينطلق من السرعة صفر إلى الخمسين كيلومتراً في الساعة وفي ثوانٍ قليلة. كما يستطيع التحليق لمئات من الكيلومترات دون أنْ يتوقف. بعض الحمام يستطيع الطيران حتى ثمانين كيلومتراً في الساعة، ويعدُّ هذا النوع من التحمل خارج الإمكانيات البشرية. كما يوفر جهاز التنفس الخاص بالطيور الأوكسجين مباشرة إلى جيوب هوائية خاصة مغروزة عميقاً في أجسادها التي تقترن برئتين بمنفذ واحد تمنع الأوكسجين من الامتزاج مع أول أكسيد الكربون، مما يمكنها من امتصاص كمياتٍ من الأوكسجين أكبر من تلك التي يأخذها البشر.

للحمام عيون وآذان متناغمة على نحو لافت تعمل كأنظمة توجيهٍ وإنذار. كما أنّ له قدرة على تسجيل شكل الأشياء القريبة ومسافتها أكثر منّا نحن البشر؛ فتسمح كلّ عين من عيونه برؤية ما هو خلف رأسه مما يوفر له مجالاً بصريًّا من الرؤية يبلغ 340 درجة. وهذا ما يُمكّنه من البحث عن الطعام القريب منه في الوقت الذي يبقي فيه عيناً حذرة من المفترسين في البعيد. ويقلد البشر في بعض الأحيان الحركات التي تقوم بها الحمامة برأسها وهذا يشكل جانباً من طقوس الغزل والتودد فيما بين الإناث والذكور، كما أنه يساعد في الرؤية.

يقوم الحمام بهز رأسه من أجل تعميق إدراكاته. فإمكانية الرؤية عند هذه الطيور هي أفضل عندما تكون الأشياء ثابتة، وفي اللحظة التي يخطو فيها الحمام إلى الأمام يضطر إلى هزّ الرأس إلى الأمام أيضاً لتوجيه نفسه.



كولومب مارين Colombe Marine كولومبا Columba ليتوراليس litoralis. حفر لسيزر ماكريت على غرار مدام نيب من كتابها «الحمام». (باريس 1811).

تلتقط عيون الحمام الأشعة ما فوق البنفسجية التي تصدر عن الشمس حتى في الأيام الغائمة. وهذا أمر ضروري جداً لانتقاله من مكانٍ إلى آخر. فمن دون تلك المقدرة لا يتمكن الحمام من الطيران (الحمام لا يطير ليلاً)، رغم أنّ بعضه دُرِّب على القيام بذلك خلال

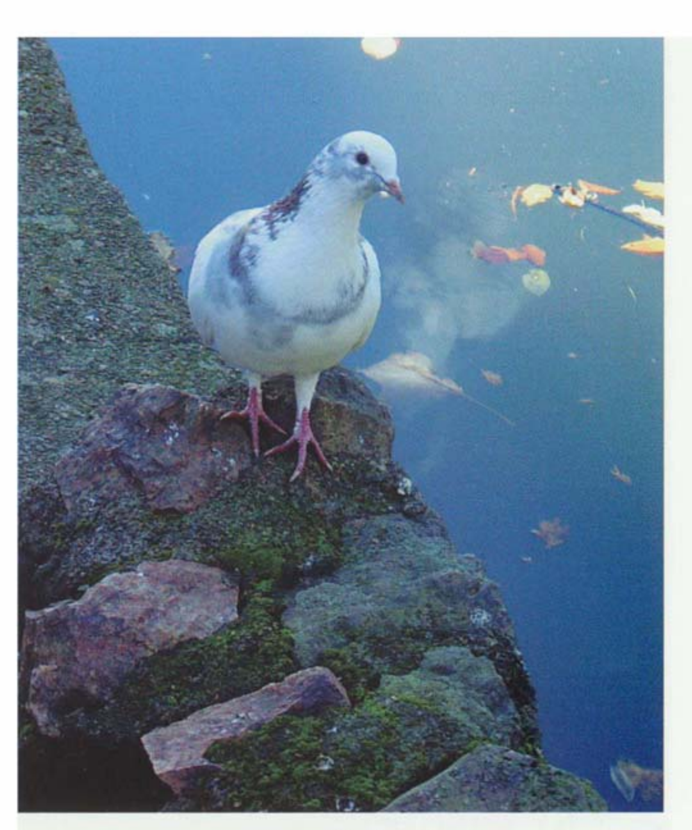
الحرب العالمية الثانية. وتتم الآن إمكانية دراسة استخدام الحمام المُدرّب من قبل خفر السواحل في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أنْ وجد فريق من الباحثين أنّ الحمام المدرب وبالإضافة إلى قدرته على رؤية الضوء ما فوق البنفسجي، فهو موثوق في رؤيته مرتين أكثر من البشر، وهو الأسرع في رؤية السترات ذات الألوان الصفراء أو الحمراء في الماء (بدقة تتراوح ما بين 92-93 % مقارنة مع المنقذين من البشر الذين تتراوح دقة الرؤية عندهم ما بين 30-40 %). لقد اقتُرحَ مشروع الصيد البحري Project Sea Hunt لوضعه موضع التطبيق في عددٍ من المحطات الجوية لخفر السواحل الأمريكي؛ عندما دُرِّبت أعدادٌ لا بأس بها من الحمام. لكنّ المشروع تأجل بسبب تخفيض في الميزانية الفيدرالية. وقد تجلت مؤخراً أولويات خفر السواحل الأمريكية في رصد حركة تجار المخدرات والإرهابيين أكثر من تركيزهم على استخدام مقدرات الحمام؛ للمساعدة في إنقاذ التائهين في البحار.

كما أنّ للحمام حساسية للضوء المنكسر، أي أنه يرى جانباً من الضوء لا نستطيع رؤيته. ولأذن الحمام حساسية عالية جداً، فهي تتمكن من سماع أصوات ترددات أصغر بمئتي مرة من الترددات التي يمكن أنْ تصل إليها أذن الإنسان، الأمر الذي يوفر للحمام أنْ يسمع الضجيج البعيد ويدرك العواصف التي تقترب بالإضافة إلى مخاطر أخرى.

للحمام مواصفات عديدة متفردة أخرى تتجلى إحداها في أنه لا يملك مرارة. علم شكسبير بهذه الميزة فها هو هاملت يصرخ: «ولكن أكبدي كبد حمامة ولا مرارة فيّ لأجل من الظلم أمضي؟»[1]

(1) الترجمة لمترجم الكتاب. كنت لاعتمد ترجمة جبرا إبراهيم جبرا (رغم أنه أبرز من ترجم شكسبير من دون جدال) لهذا المقطع من مسرحية هاملت، لولا أنني لاحظت بأن ثمة تغييراً في المعنى. فقد وضع شكسبير الجملة في صيغة سؤال وهذا ما لم يفعله جبرا واليكم المقطع بترجمة هذا الأخير:=

ربما يتفرد الحمام بين الطيور بالطريقة التي يتناول بها السوائل.



فطريقته في هضم السوائل خاصة به.

يشرب الحمام الماء بامتصاصه إلى منقاره الذي يشبه قشة (ماصة)، وهي طريقة تختلف عن طريقة طيور أخرى ترتشف الماء

= ولكن علي بالرضوخ. كبدي إنْ هي إلا كبد الحمامة، ولا مرارة فيَّ لأجعل ضغطي علقماً.

وليم شكسبير

هاملت: أمير الدانمرك

ترجمة جبرا إبراهيم جبرا

دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع

شارع بشارة الخوري. بناية مكرزل -بيروت- هاتف 291411.

وتميل برؤوسها إلى الخلف بغية إنزال قطرات الماء إلى حناجرها. وقد لاحظ العالم الطبيعي جلبرت وايت هذا فقال: «معظم الطيور تشرب الماء على نحوٍ متقطع، لكن الحمام يشرب برشفات طويلة مستمرة شأنه شأن الحيوانات التي تدب على أربع». وثمة شيء آخر يميز الحمام عن الطيور الأخرى، يتجسد في الأسلوب الذي يأوي فيه إلى عشه فعندما يهجع ليلاً، يستريح على ساقٍ واحدة. وعندما ينام أو يغفو لا يحول الرأس أو يخفيه تحت الجناح، كما تفعل الجواثم أو الطيور الطرائد[1]، بل يقرب رأسه من جسده.

يعدُّ الحمام في الأساس آكلاً للبذور. فعندما تبدأ صغاره بتناول الطعام، تلتقط أول بذرة لها، تسقطها ومن ثم تلتقطها من جديد. ويكرر الصغار هذه العملية العديد من المرات قبل أنْ تبتلع البذرة في النهاية. وتتصرف الحمامات البالغة أيضاً بطريقة شبيهة عندما تجد طعاماً جديداً، ويستمر هذا السلوك حتى بعد أن يحصل على ما يكفي من الطعام. وقد افترض بعض الباحثين أنّ هذا السلوك هو أيضاً طريقة يتبعها الحمام ليربط فيها نوع الطعام بشكله.

إنّ الحمام طير مسالم، لكنه يدافع عن أرضه إن استُثير. فعادة تقع معارك خطرة على منطقة بناء الأعشاش. وتتنوع هذه المعارك مع الأوضاع التي يعيشها الحمام؛ فإنْ كان الحمام آوياً إلى عشه، فهو يهاجم بمنقاره أو أنه يهدل متحدياً الحمام والطيور الأخرى، بالطبع باستثناء وليفه أو صغيره أو أفراد عائلته. وإنْ رأى الحمام أعداءه، يقوم بثلاثة أشياء، يصدر صرخة ضيق وألم، ومن ثم يتجمد في مكانه قبل أنْ ينطلق في السماء. وإنْ طورد يطير بسرعات كبيرة متجنباً الوقوع في الأسر من خلال مناورات ذكية ماهرة وحركاتٍ متمايلة. ويتفادى الحمام الأماكن التي خشيها ذات مرة، كما يكشف عن ردود فعل خوف إنْ رأى كومة من ريش حمام، أو

(1) الطيور التي تتم مطاردتها من أجل الصيد.

عندما يرى أشياء جديدة لم يألفها من قبل، ربما دلواً على الأرض، أو حتى الطريقة التي وضعت بها البذور في كومة. فالحمام لا يرحب بالتغييرات المفاجئة، سيما تلك التي تحدث ضمن محيطه.

والحمام طير اجتماعي ينشد حماماً آخر لصحبته، وليس لمجرد التكاثر. أما طقوس الغزل والتودد عنده فمنظمة ومعقدة؛ فهز الرأس ومدّ الذيل هي سلوكيات تظهر فيها أجناس الحمام واليمام التودد إلى الجنس الآخر، وهذا ما يقوم به الذكر تودداً للأنثى. وفي أثناء عملية هزّ الرأس تلك، يحدق الحمام بعضه ببعض. فإنْ أبدت الأنثى اهتماماً، تبدأ بهزّ رأسها باتجاه الذكر الذي يبدأ النقرَ خلف جناحيه معبراً عن اهتمامه بها. وإنْ بقيت على اهتمامها، تمدّ الرأس وتقترب منه اقترابًا مصحوبًا بنداء يدعو إلى العِشرة. وتلوح بذيلها في الوقت الذي يقدم فيه الذكر منقاره، ومن ثمّ ينخرطان فيما يسمى «قبلة الحمام»، وفيها يحكّان منقاريهما فتقوم الأنثى بإطعامه من فمها (منقارها) أو تقوم بحركات تعبر عن ذلك. إنّ الهمسَ والقبلاتِ هي أمور حاسمة في طقوس المعاشرة. تقول ميرلين: «ينوه جلبرت وايت بأنّ لغة الطيور قديمة جداً وشأن أشكال قديمة أخرى من الحديث لا يقال إلا القليل، ويعزم على فعل الكثير».

ويتعاشر الحمام ويقبع في قفص الزوجية مدى الحياة، ويشترك الطرفان في الواجبات الأبوية. وعندما يتزوجان ويصبحان جاهزين للاستقرار يذهبان إلى موقع العش الذي سيعيشان فيه. فيأخذ الذكر دور ربّ البيت؛ فهو أول من يعاين المكان والموقع. وعندما يوافقان على العش الجديد، يشتركان في عملية جمع أساسيات العيش، وتشتدُّ وتيرة عملية بناء العشّ حيث تبقى الأنثى فيه ما يسمح للذكر بأنْ يتابع تأسيس سكناهما. وفي الغالب تبنى الأعشاش على نحو مهلهل وكيفما اتفق، ومعظمها لا يستمر سوى لموسم تناسل واحد. تقول إحدى الأساطير كيف أنّ طائر العقعق وهو من يبني عشه

على نحو آمن، اعتقد أنّ اليمام يحتاج إلى بعض العون في فن بناء الأعشاش، رغم ذلك سئمت اليمامة منه وأخذت تصيح باحتجاج «That'll doo-doo, That'll doo-ee» (ومن هنا اقترن صوت الهديل باليمام). تخلى العقعق عن مد يد العون لها وأحبطه اقتراب ذكر اليمام الذي لم يكن متوقعًا.

بعد الزواج والمعاشرة، توضع البيضات الأولى ضمن عشرة أيام، الأولى منها توضع عادة مساءً بين الساعة الخامسة والسابعة. توجد الأعضاء التناسلية عند إناث الحمام في الجانب الأيسر من الجسد، أما المبيض الأيمن وبوق (قناة) فالوب فيتفسخان بعد التشكل. ولأن الأنثى لا تملك سوى مبيض واحد متطور فهي تضع بيضة واحدة فقط في كل مرة.

وبعد يومين في الحد الأقصى، تتطور البيضة الثانية في المبيض بعد وضع البيضة الأولى. وعندما تحدث المعاشرة الزوجية، تخزن الأنثى السائل المنوي للذكر لكي تخصب البيضة الثانية. وبعد وضع البيضة الأولى بثلاثٍ وأربعين ساعة إلى أربع وأربعين ساعة تضع البيضة الثانية. ويتم ذلك عادة في الظهيرة بين الساعة الثانية والثالثة. ويوفر وضع بيضتين فرصاً كبيرة لبقاء واحدة منهما على الأقل. وبما أنّه ليس للحمام سوى عدد قليل من الأفواه لكي يطعمها، تزداد فرص بقائه على قيد الحياة. وبعد وضع البيضة الثانية، تبدأ عملية الحضن الجدية من أجل التفقيس. ويتم الاشتراك بعملية الحضن بين الأنثى والذكر الذي يجلس على البيضة حوالي منتصف النهار. أما الأنثى فتعود عادة إلى العشّ في أواسط الظهيرة.

بدأ الكاتب إدوارد لير مهنته كرسام متحمس وموهوب، وعمل عند جون غولد. وفي واحدة من رسائله ألّتي كتبها في أواخر حياته، ذكر لير، وبأسلوب أشعاره، عادات الحمام في اشتراك الذكر والأنثى في برنامج حضن البيوض:

زغلول.



«إنّ الدقة التي يتناوب فيها الحمام على حضن البيض شيء لا أعرفه من قبل. فالذكور والإناث يلتزمان بمناوباتهما تلك التي تتبدل كل ساعتين. ويعتقد غيوسيب بأنّ الحمام يخبئ ساعات صغيرة تحت أجنحته، وبأنه يؤقتها على الساعة الثامنة مساءً أي وقت غروب الشمس. ويقف على قدم واحدة ويمسك بالساعة بالقدم الأخرى.

وبالاعتماد على حالة الطقس والسلالة تخرج الزغاليل من البيض في غضون 17 إلى 18 يوماً. وتستغرق عملية التفقيس بين 15-30 ساعة. وعندما يفقس الزغلولان ويجفان، يبدأ الوالدان بإطعامهما في الساعة الأولى من حياتهما. إنّ صغار الحمام وخلافاً لمعظم الطيور الأخرى، ضعيفة وتعتمد كليًّا على رعاية الأبوين لعددٍ من الأيام بعد التفقيس.

يأخذ أحد الوالدين منقار الزغلول في منقاره ويخرج حليبه من معدته (يتقيأ حليبه) ليغذي به صغيره في الأيام القليلة الأولى. فيما بعد وعندما يشتد عود الصغار، تتدفع إلى حناجر الوالدين وتمتص الإفرازات. يبقى الصغار في العش لشهرين، وهذا هو السبب في أننا لا نرى الزغاليل. وقد أشار شكسبير إلى سمعة الحمام بوصفه أباً

جيداً، فهو لا يهجر عشه أبداً:

«ثم يهدأ كالحمامة حين تفقس فرختاها بلون الذهب»[1].

بعد أسبوعين، يحل الذكر محل الأنثى بما أنّ تلك الأخيرة تنشغل بالتحضير لجولة جديدة من وضع البيض.

لقد أثار الحمام دهشة نيويورك، ولاغرو فقد اختار المدن سكناً له. وشأن مدير تنفيذي يستمتع بوجود جهازي هاتف على مكتبه، يحبُّ الحمامُ أنْ يحتفظ بعشّين في الوقت نفسه. وهو يضع نفسه تحت وطأة هذه الضغوط عامداً. ففي الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، لزوج الحمام الذي يقطن في 813 الجادة الخامسة عشّان، وكلاهما في العنوان ذاته. تُطعم الزغاليل في أحدهما، ويُحضن البيض في الآخر.

ورغم أنّ الحمام لا يضع سوى بيضتين في كل مرة، فإنّ ذكراً وأنثى ينجبان خمسين حمامة في غضون اثني عشر شهراً.

إنّ واحدة من الميزات الساحرة التي يتفرد بها الحمام هي امتلاكه لحويصلة مغذّية تفرز «حليب الحمام» المغذي، أو «حليب الحويصلة» الذي يطعمه لزغاليله. وفي أثناء حضن البيض يزيد الوالدان من كمية الحليب ويحسّناه. كما أنّ الذكر والأنثى يفرزان الحليب في آن. ربما كنتيجة للبرولاكتين وهو الهرمون الذي تفرزه الغدة النخامية. إذ يطعم الوالدان الصغار هذه المادة لفترة تتراوح بين 35 إلى 37 يومًا. وهذه المادة سميكة وتشبه العصيدة Porridge. وهي لا تنتج في الأثداء بل ضمن الأغشية؛ لأنها وفي واقع الأمر هي تفسّخ بنية الخلية الظهارية Epithelial. ويزداد غشاء الحويصلة سماكة بالماء والمواد المغذية ويتقشر كتلاً. كما ترتفع في حليب الحمام نسبة الدُسُم والدهون، لكنه لا يحتوي على السكريات. وحليبه يحتوي على كميات دُسم وبروتينات أكثر مما يحتويه حليب البقر أو

---

(1) اعتمدنا ترجمة جبرا إبراهيم جبرا لإصابته المعنى على نحو بديع. المصدر السابق.

الإنسان، كما أنه يحتوي على مواد تكسب مناعة ضد الأمراض. أثناء فترة إطعام الصغار يحاول الوالدان أنْ يمدّا زغاليلهما بأكبر كمية ممكنة من الغذاء.

وأمّا الحليب الذي يبقى في حنجرة الوالدين فيُبتلع ويُخرج من الأمعاء من جديد ويُقدّم في الوجبة الثانية. ويمدّ حليب الحمام ما يعدُّ واحداً من أكثر معدلات النمو لأي مخلوق تقريباً على وجه المعمورة. فهو يحتوي على قيمة غذائية مرتفعة جداً، مما يجعل من الزغاليل تضاعف حجومها في غضون ثمان وأربعين ساعة. وتتناول الزغاليل ما يقارب وزنها الكامل من الحليب في كل يوم. وفي أسبوعين تصبح في نصف حجم الوالدين. وفي خمسة وعشرين يوماً يكتمل نموها وتتمكن من إطعام نفسها بنفسها:

سيليا: هاهو مسيو لي بو

روزالين: بفم مليء بأنباء

سيليا: سيفجرها إلينا، كما يطعم الحمام صغاره.

روزالين: إذاً سنُتخم أنباءً[1].

ومن اليوم السادس يمتزج الحليب بالبذور كسبيل لفطم الصغار عن الحليب السائل وتعويدها على الطعام العادي.

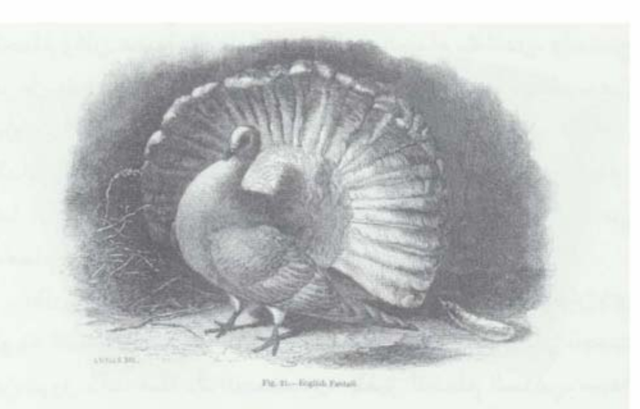
في الثقافة الشعبية[2]، يأتي نظام نايتيندو Nintendo لألعاب الفيديو الإلكترونية على ذكر حليب الحويصلة في لعبة Animal Crossing: Wild world. وفي هذه اللعبة نجد بريوستر وهو طير حمام يدير مقهى «العش The Roost» الذي يقع في الطابق السفليّ من المتحف. كان بريوستر يسأل الزبون إنْ كان يريد حليب الحمام

---

(1) الترجمة، لمترجم الكتاب.

(2) Pop culture قصدت المؤلفة بها مجمل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شكلت وعياً ثقافيا جديداً بدءا من نهاية الحرب العالمية الثانية، بدءاً من الأغنية وانتهاء بألعاب الأطفال. انظر مجلة «تحولات» اللبنانية «الثقافة الشعبية». صخر الحاج حسين العدد 21 – 2006.

حمامة فانتيل[1] إنجليزية. حفر لـ إل. ويلز من كتاب The Variation of Animals and Plants under Domestication. by Charles Darwin (لندن 1868).



في قهوته. وفي المسلسل التلفزيوني «فليفر أوف لوف Flavor of Love»، وفي حلقة «ماما يورك Mama York» بالتحديد يطلب والد ديليشز حليب الحمام في المطعم.

للحمام أجنحةٌ من مختلف الألوان والمجموعات. تكشف ألوانُ الحمام الهادئة عن موروث لوني عنده. جاءت دراسات داروين عن علم الوراثة ونظريته عن المورثات الغالبة والمتنحّية، في جانب منها من خلال رصده للحمام. فقد نشر الرجل في عام 1868 أثراً عظيمًا يتألف من جزءين طوّر فيه نظرية الوراثة والتي أسماها شمولية التخلّق (التكون)[1]، وقد أوجز فيها كيف يمكن أنْ تحدث الوراثة المستخدمة وغير المستخدمة. فقد تأسست بحوثه على تجاربه مع الأنواع الداجنة.

ورغم أنه تخلى عن فكرة «التخلق» فيما بعد، إلا أنه كان ما يزال يقبل فكرة وراثة الصفات المكتسبة. واحتفظ داروين بكل سلالة من سلالات الحمام التي استطاع الحصول عليها، وأرسلت إليه جلود لسلالاتٍ أخرى من جميع أنحاء العالم. كما صادق داروين مربي

(1) Fantail سلالة من الحمام الداجن يربى في المنازل له ذيل كالمروحة.

(1) Pangenesis انظر «أصل الأنواع» تشارلز داروين ترجمة مجدي محمود المليجي – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة 2004.

الحمام وكان عضواً في ناديين من نوادي الحمام في لندن. واستمتع الرجل على وجه الخصوص بزيارة أحد البارات الكبيرة بالقرب من بورو ماركت Borough Market، حيث يجتمع أعضاء نادي الحمام. وقد تأثر داروين بأعضاء النادي غريبي الطباع وبمعرفتهم بالحمام. كما أتاح له رصده المتأني والمتمعن لمواصفات سلالات محددة من الحمام أنْ يشير إلى التنوع بين السلالات المختلفة:

«قارن حمام ساعي البريد الإنجليزي[1] مع الحمام البهلوان ذي الوجه القصير، ولاحظ الفروق المدهشة بين المنقارين التي نجمت عن فروق ذات صلة في الجمجمتين. يتميز الحمام الساعي، سيما الذكور منه، بالتطور المدهش للجلد الذي نما حول الرأس وترافق مع جفنين استطالا، وفتحات خارجية كبيرة تمتد حتى المنخرين وفرجة فم عريضة».

إنّ اختيار ألوان معينة ومواصفات أخرى يشتمل على الوحدة الوراثية، أي الكروموسوم وسلوكه خلال الانقسام المنصف عندما يتم تبادل الجينات وتشكيل سلاسل الحمض النووي. إنّ وراثة اللون هي لوحة الرسام، نظرة فاتنة إلى عالم الوراثة، غطسة في حوض جينات الحمض النووي. كما أنها نقطة تدخلنا إلى عالم مربي الحمام وعقله.

ولعلّ كلمة «مورف»[2] هي الكلمة التي يستخدمها العلماء لوصف ميزة جسدية موروثة. فبالنسبة للطيور المورف الأهم هو لون جناحها. علمنا مصادفة من رصدنا أنّ الحمام متعدد المورفات. فقد كان حمامُ الروك في البراري والأراضي القفر بهيئة من لون واحد فقط، الأزرق أوالأسود أوالرمادي، وكان الناس يمسكون به ويربونه.

---

(1) The English carrier نوع من الحمام يتميز بجلد سميك فوق منقاره وهذه ميزة لسلالة الحمام الإنجليزي القديم. كما يعتبر من أطول أنواع الحمام إن لم يكن أطولها على الإطلاق.

(2) Morph وهي تأثير يغير في هيئة الأشكال.



بوتر، حمامة فانتيل، تنين، بلوندينيت: بطاقات سجائر[1] أصدرتها شركة أوغدين للسجائر 1904.

(1) بطاقات صغيرة بصور مع بعض المعلومات توضع في علب السجائر.

ومع الوقت، أنتجت هذه التربية عدداً مختلفاً من هيئات الألوان (بوليمورفز) التي تمتدّ إلى أكثر من 28 هيئة لونية مختلفة.

أما المفردات الجميلة التي وُصف بها الحمام فتطلق على ألوان الجناحين. فكلمات شأن «سبريد»[1] (تدل على أنّ لوناً أسودَ واحداً يغطي جسد هذا النوع من الحمام)، و«بارز Bars» (تطلق على الحمام الذي يتميز بخطوط على جناحيه السفليين)، وهناك «تشيكر Chequer» (على الجناحين مربعات من الضوء والعتمة تشبه مربعات الشطرنج أو الداما) و«بايد Pied» (تطلق على الحمام الذي يتميز بلونين أو أكثر) وجميعها تذكر بأنواع الرقصات، والألعاب التي تُلعب على الألواح كالشطرنج أو الداما أو الدومينو، أكثر مما تدل على ألوان الريش وأصباغه.

وبالإضافة إلى اللون، تؤدي الأشكال أيضاً دوراً في ميدان علم الوراثة. فهناك الرمادي أو الأشيب Grizzle (وهو مزيج من الأبيض

(1) Spread آثرنا أن نثبت الأوصاف التي تطلق على الحمام بمفرداتها الأصلية كي لا نقحم معنى بعينه ونثبت الطير من خلال تعريبنا للمفردة. فمعلوم أن مسميات الطبيعة تختلف من بلد إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى بحسب الموروث الثقافي. كما أن معظم الأوصاف تلك لا علاقة لها على نحو مباشر بشكل الطير.

بطاقات سجائر ألمانية.





مع الأزرق مع تسيّد للون الأحمر وتدرجاته)، والأوبال Opal (يوجد في أشكال مُقلّمة ومربعة، حيث زرقة الجناح تبدو وقد ابيضت وباتت بدرجة لونية خفيفة). وهناك الموزاييك Mosaic (بقع من ألوان مختلفة، تشيع بين الذكور وتشير إلى الفروق بين الجنسين). وهناك السبانغلينغ[1] أو الليسينغ Lacing (ويعرف أيضاً بالستينسلينغ Stenciling حيث تهيمن البقع البيضاء الفضية أو البرونزية على النموذج ذي المربعات).

أصباغ اللون الرئيسة الثلاثة هي الأسود والبني والأحمر. وجميعها من أطياف البني الغامق وتنتشر في حبيبات على الجلد بالتساوي.

ومع اللون الأزرق تتخذ الحبيبات البنية الغامقة في المناطق ذات الألوان الفاتحة شكلا عنقوديًا، لكن في المناطق ذات الألوان الغامقة، شأن حزم ألوان الأجنحة و/أو حزم الذيل، فإنّ الحبيبات

---

(1) Spangling (المرشرش).

البنية الغامقة تقترب من بعضها ولا تكون على شكل عنقود. ولهذه الألوان الأربعة القوية الأسود والبني والأحمر والأزرق تدرجاتها. ويتوزع الصباغ في التدرجات على نحو مبعثر، ما يؤدي إلى ظهور لون مختلف. ويتصل اللون الأسود بالداكن، والأزرق بالفضيّ والبنيّ بالكاكي والأحمر بالأصفر. بينما تغيب حبيبات الأصباغ في ألوان الأبيض.

يوسّع الصباغ الأزرق من فهم المرء لتعقيدات علم الوراثة، فالأزرق هو لون حمام الروك الأزرق Blue Rock Pigeon البري «كولومبا ليفيا». يُعدُّ اللون الأزرق لوناً مهمًا لأن جميع الألوان، كما يقال، إما أنها غالبة أو متنحية بحسب السلوك الوراثي بالنسبة للون الأزرق. وهناك أيضاً أربعة تنويعات فرعية للحمام الأزرق وهي: ذات المربعات السود Black Chequered (نموذج ت)، وذات المربعات الزرقاء Blue Chequered، وذات الخطوط الزرقاء (التقليمات الزرقاءBlue-Barred)، والزرقاء من دون خطوط (تقليمات Barless). يمكننا اعتبار تسمية النوع الأخير تسمية خاطئة إلى حد ما، فرغم أنّ جناحيه لا يبرزان خطوطاً وتقليمات، إلا أنّ ريشات الذيل تظهرها.

ويعدُّ اللون الفضيُّ تدرجاً للّون الأزرق، ويتشكل من صباغ أسود. أما الحبيبات اللونية فمبعثرة على نحوٍ مرتب. فإنْ تزوجت أنثى فضية من ذكر أزرق، فالجيل الأول يكاد يكون على الدوام أزرق اللون.

وكما هو معروف فالحسابات الوراثية أمر معقد. فالأحمر وهو لون قوي يمكن أنْ يكون نموذجاً من اثنين، غالب ومتنح. فإن كان اللون أحمرَ قوياً، وهو ما نراه عند «الكارني الأحمر Red Carneau» وعند «الحمام البهلوان الأحمر Red Self Tumbler»، فهذا يشير إلى أنموذج متنح. أما الأنموذج الغالب فهو الزاجل المخطط (المقلّم)

أو ذو المربعات الحمراء. ورغم ذلك لا يمكن تصنيف كل الحمام الأحمر بهذه الطريقة، فالطريقة الوحيدة والأكيدة لمعرفة إنْ كان الحمام من الأنموذج الغالب أو المتنحي تكمن في الإنجاب منه.

كما يؤدي علم الوراثة أيضاً دوراً في لون العينين، فمثلاً تعدُّ العين اللؤلؤة هي أخفض درجات اصطباغ القزحية. أما الحبيبات فلا لون لها، وهي ترتدُّ إلى اللون البرتقالي والأصفر. وإنْ كان للحمام ما يدعى بالعين القرنفلية (العين الملتهبة)، فهذا يشير إلى غياب الأصباغ عن غشاء العين وعن السطح الداخلي من القزحية، ومن ثَمَّ يتضح بأنَّ هذه الطيور ضعيفة.

وبعض مربي الحمام لا يأتون بدماء جديدة إلى سلالات الحمام التي يربونها؛ خشية أنْ تظهر في الذرية صفات لا يرغبونها، مما يتطلب سنين طويلة كي تُمحى من السلالة. بينما يوسع آخرون القاعدة الوراثية، ذلك أنه وفي بعض الأحيان تنتج الجينات الجديدة طيوراً متفوقة لم يكن بمقدور السلالة النقية أنْ تنتجها. فالتناسل والتربية يقتضيان معرفة بعلم الوراثة، وقليل من الحظ. كما أنّ معظم مربي الحمام لا يعتمدون على نسب الدم فحسب، فهم يعرفون أنّ كل حمامة تُقيّم لمعرفة قوتها، كما يعرفون أنه ربما يجيء وقت تُستَقدم فيه دماء جديدة إلى هذا المزيج من السلالات.

ليس هناك من منظومات أنساب عند الحمام، وربما هذا هو الأمر. وكما يمكن أنْ يكون البطل[1] من سلالة هجينة، يمكن أيضاً لطير ضعيف أنْ يكون سليل عائلة من الأبطال.

إنّ اتساع نطاق الولع بالحمام غير عادي؛ فمن حمام الفانتيل[2] الشرقي، إلى الحمام البربري Barbary غريب المنظر، ومن

---

(1) المقصود هنا الحيوانات التي تشترك في السباقات أو في العروض البهلوانية وتحقق تفوقًا.

(2) سبق التنويه إليها.



إي – إف- ليدن تربية سلالات الحمام من مجموعة Boy›s Own paper.

الالتواءات الهوائية للحمام البهلوان، إلى حركات طائر الشقراق[1]، فإنّ كلّ هذه الطيور يتعذّر إخضاعها للتصنيفات.

توجه إيتون في كتابه Treatise on the Almond Tumbler 1851 إلى الإغراء الذي يدفع البشر كي يصبحوا مربي حمام فقال



كولومبيا ليفيا Columbia Livia من كتاب «طيور بريطانيا العظمى» لجون غولد الجزء الرابع (لندن 1873).

(1) Roller اختلفت المعاجم والموسوعات في تسمية هذا الطائر؛ فمنهم من أسماه الكناري، ومنهم من وصّفه من دون أن يسميه بقولهم: «طائر من طيور العالم القديم بأجنحة زرقاء براقة وأجسام قصيرة ممتلئة».

إنّ لم تفكر بتربية الحمام من قبل، وإنْ دفعتك كمائلُ صفات حمام البهلون اللوزي الرائعة ونقائصهاAlmond Tumbler لأن تبدأ بالتفكير بذلك، فاعلم أنّ تربيته مباركة، ذلك أنك لا تستطيع أنْ تفكر بعمق في هذا النوع من الحمام من دون أنْ تفكر بالقضايا الكبرى في الحياة تلك التي من الممكن أنْ تمنحك الخلاص الروحي...... لكن إنْ منعتك هذه الهواية من أنْ ترتاد دور العبادة، فاتركها على الفور.

ويتحدر كلُّ الحمام المنزليّ من سلف مشترك وهو حمام الروك (Columba Livia). وبسبب مرونته الوراثية تكشف التحولات الوراثية عن اختلافات مذهلة في الأشكال والحجوم. فقد خلقت هذه التحولات أقداماً مكسوة بالريش، ومناقير غريبة، وعرفاً كبيراً، واستعراضات طيران غريبة لا بل شاذة.

وتعدُّ السلالة اليعقوبية[1]، المعروفة باسم الملكة فيكتوريا[2]، نتيجة خمسمئة عام من عملية انتقاء للتحولات. ولهذا النوع من الحمام قلنسوة من الريش تقترب من رأسه، ما يحد من رؤيته، ويجعل من الضروري في بعض الأحيان تشذيب تلك القلنسوة. وهناك سلالات منزلية أخرى شأن «الكشكش الشرقي[3]» ذي المناقير الصغيرة، والأخيرة تجعل من إطعام صغارها ضرباً من المستحيل. أما الفريل باكس[4] فلها ريش ملتف، وبسبب شكل الريش فإنه لا يصدّ الماء، كما أنه لا يوفر عزلاً جيداً، ومن هنا يتميز بخسارته للحرارة. ويُربَّى حمام الشقرق والبهلوان من أجل الحركات البهلوانية التي يقوم بها

(1) Jacobin سلالة من الحيوان المنزلي تطورت على مر السنوات من سلالات منتقاة. تتميز بقلنسوة من الشعر على رأسه.

(2) The Victoria Crowned Pigeons ويعرف باسمه اللاتيني Goura Victoria. نوع ضخم من الحمام يبلغ طوله 74 سم ويزن 2،5 كغ.

(3) Oriental Frill في الأصل حمام تركي كان يربى خصيصاً للسلاطين العثمانيين.

(4) Frillbacks يتميز هذا النوع من الحمام المنزلي بالتجعدات أو ما يسمى بالكشكش على ريش الجناحين.

في الجوّ. وأما مشاهدتها فهي مذهلة، لكنهما شأن الكشكش الشرقيّ والفريل باكس (بالإضافة إلى سلالات أخرى) لا يصلحان للبراري. يجب أنْ يتمكن الحمام من إطعام صغاره، وتدفئتها، والإبقاء على ريشها بعيداً عن الماء، وحمايتها من المفترسين. حتى وإنْ دهشنا من تنوع الحمام وإنْ شدهنا من تشابه القليل من سلالات هذا الحمام المنزليِ مع الحمام العادي، نقول وبكل تواضع: عندما يعاشر الحمام حماماً من سلالة مختلفة، يعود الحمام وفي غضون أجيال قليلة إلى النوع الأصلي كولومبا ليفيا Columba Livia أي إلى حمام الروك. فهذه التحولات بمعنى من المعاني لا تتعدى الجلد.

ذكاء الحمام

إلى أي درجة الحمام ذكيّ؟ يشير الناس إلى الحمام بكلماتٍ توحي بالغباء والحماقة معتمدين ربما على التزام الحمام بالسكنى في المدن المزدحمة حيث البشر، ولكن، هل الأمر كذلك؟

ليس حجمُ الدماغ هو القضية، فالاكتشافات الحديثةُ التي تتعلق بالطريقة التي يعالج بها دماغ الحمام المعلومات، تستبعد الآن حجم الدماغ وهذا ما يساوي تناولنا مسألة الذكاء.

إنّ دماغ الحمام، وخلافاً لدماغ الثدييات، لا يحتوي على القشرة الجديدة [1] (وهو المقطع الخارجي المتطور جداً من الدماغ عند الثدييات). ويوجد ذكاء الحمام في الكميات الكبيرة من الأنسجة من منطقة الدماغ، أي القشرة الداخلية[2].

وفي عام 2005 نُشِرَ الإقرار بنظرية ذكاء الحمام في المجالات الأكاديمية والعلمية في كونسورتيوم[3] دوليّ لخبراء الدماغ عند الطيور. وتمّ الإعلان عن أنّ تغييراً سيطرأ على تسمية مركبات دماغ

(1) Neocortex وهي جزء من القشرة المخية، الطبقة الخارجية من نصف كرة المخ لدى الثدييات.

(2) Paleocortex القشرة المجاورة للقشرة الخارجية.

(3) Consortium تجمع من منظمات ومؤسسات.

الحمام اليعقوبي من كتاب A supplement to the Natural History of Birds لإليزار ألبين الجزء الثاني (لندن 1740).



الطيور وعناصرها في ضوء الأدلة الجديدة التي تقول: إنّ الطيور تعالج المعلومات بالطريقة ذاتها تقريباً التي تقوم بها الثدييات، لكن من منطقة أخرى من الدماغ.

يعاد النظر، حالياً، في تقييم المعرفة والإدراك الاجتماعيين والذكاء عند الحيوانات. ففي الماضي صرف العديد من العلماء وعلماء البيولوجيا وعلماء الحيوان والإثنولوجيون[1] النظر عن سلوك الحيوان بوصفه مؤشرًا على «الذكاء»، بل صنفوا مثل هذا السلوك بوصفه «غريزياً» وجزءاً من تطورها الارتقائي.

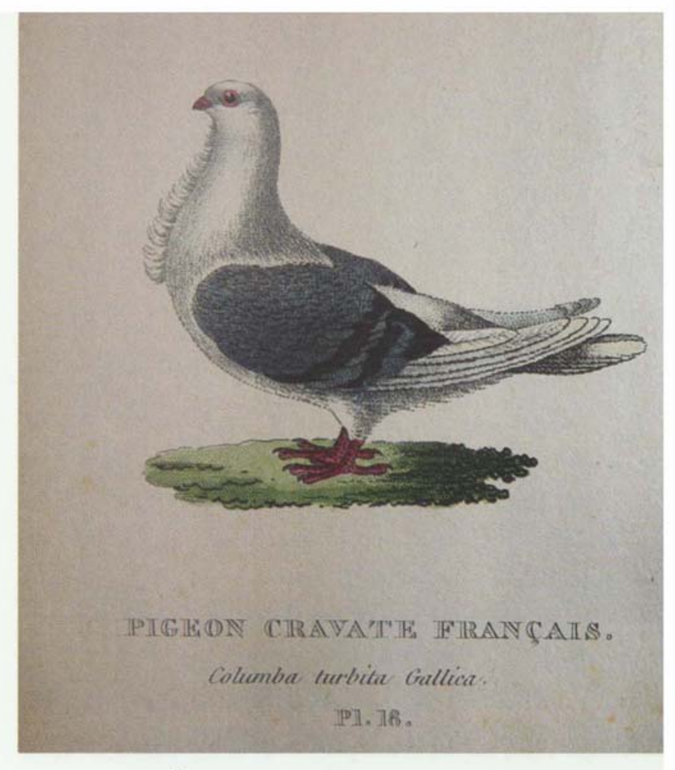
(1) Ethnology العلم الذي يدرس المجتمعات الإثنية من البشر.

«كان شتاءً...... ولم يكن أحد يرغب بتناول الآيس كريم في هذا الفصل، لذا وضع الشاب صاحب الدكان كلّ البذور والفشار (بوب كورن) في أعلى الثلاجة. عندما كنت أمشي بالقرب من الدكان، رأيت حمامة تدفع أكياس بذور عباد الشمس بمنقارها. كانت تحاول أنْ توصلها إلى حافة الثلاجة وتوقعها. عندما نظرت إلى الأسفل، ألفيت حمامة أخرى تفتح أكياس البذور وتأكل... ثمة جريمة منظمة تحدث الآن أمام ناظري!»

الحمام من أذكى الطيور، وهو واحد من ستة أنواع ذكية. كما أنه الحيوان الثديي الوحيد الذي نجح في اختبار المرآة وتمكن من أنْ يرى انعكاسه فيها. وقد كشفت الدراسات التي قام بها هرنشتين ولوفلاند أنّ الحمام قادر على التمييز بين الصور كما باستطاعته أنْ يحدد المفاهيم شأن «شجرة» و«سمكة».

كما أماط بحث قام به دونالد بلو اللثام عن قدرة الحمام على إدراك حروف الأبجدية الإنجليزية جميعها، إذ استنبط بلو مهمة تعتمد على التمييز والإدراك بثلاثة خيارات تعلمت فيها ثلاث حمامات من نوع كارنيو Carneaux تمييز كل حرف من حروف الأبجدية عن باقي الحروف، فقد عرضت على الشاشة ثلاثة مفاتيح لردود الأفعال. تكافأ الحمامة التي تنقر الحرف «الهدف» الموجود خلف مفتاح يسجل ردة الفعل ولأربع مرات متلاحقة كل يوم. وعندما تكون ردة الفعل صحيحة وتبرز الحروف الثلاثة ومن ثم تختفي من الشاشة، تكافأ الحمامة بإمكانية وصول ثانية من أصل ثلاث إلى البذور الموضوعة في الملقّم. وإنْ نُقر أحد المفاتيح من غير الأهداف تختفي الحروف، ومن ثم يظهر الهدف المفتاح على المفتاح نفسه من جديد مع عوائق باللون الأسود لتحلّ محل الحروف من غير الأهداف. وبعد أنْ يستخدم كل حرف لأربع مرات، يُستبدل بهدف جديد. وأما البيانات، في هذه الحالة، فهي الأخطاء فترتب في عناقيد تراتبية

بيير بويتارد وام.
كوربي «حمام الكرافات الفرنسي[1]».«كولومبا توربيتا غاليكا» من كتاب Les Pigeons de voliere et de Colombier (باريس 1824).



وكتمثيلٍ ببعدين. فالحروف التي تبدو متشابهة شأن الـ«u» والـ «v» تسجل النموذج (أو في هذه الحالة، الحرف)، «تتشابه النتائج مع تلك التي جاءت بها أحكام بشرية وتوحي بعمومية مهمة متبادلة وأنواع متقاطعة في سيرورات تمييز الحروف».

في دراسات قام بها فريق في جامعة كيو في اليابان نُسِبَت إلى الحمام مستويات من الذكاء تماثل المستويات الموجودة عند طِفل بعمر ثلاث سنوات. أُرِيت كلُّ حمامة مقطعاً مباشراً لنفسها، وأُخّر ثلاث ثوان. وما يثير الدهشة أنّ الطيور استطاعت أنْ تميز بين

(1) Pigeon cravate Francais سمي كذلك بسبب خط من الريش تحت ذقنه يشبه ربطة العنق.



ياسمين، حمامة بيضاء الرأس.

لقطات الفيديو المباشرة وتلك التي سُجلت. قال البروفسور شيغرو وتانابي: «استطاعت الحمامات أنّ تميز صورتها الحاضرة عن تلك التي سُجلت سابقاً مع تأخير لثوانٍ، وهذا يعني أنّ الحمام لديه مقدرات على إدراك الذات».

كما أظهرت بحوث سابقة قام بها أيضاً فريق من الدارسين من جامعة كيوتو أنّ الحمام تمكن من التمييز بين لوحات بيكاسو ولوحات مونيه. وقد طُبِّقت التجربة الأولى التي هدفت إلى اختبار قدرة الحمام على التمييز بين الصور أو بين مقاطع الفيديو لرسومات لمونيه أو لبيكاسو، على ثماني حمامات قسمت إلى مجموعتين.

عندما أُرِيَ الحمامُ لوحات بيكاسو، تمكّن من الحصول على الطعام بالنقر، لكن عندما شاهد أعمالَ مونيه لم يثمر النقرُ عن طعام. وفي النهاية كان الحمام ينقر فقط عندما كان يرى لوحات بيكاسو[1]. في التجربة الأولى استخدم الاختبار الأول صوراً أحادية اللون وبهذا فإنّ الفرق في اللون لا يمكن أنْ يكون دليلاً على الفرق. وفي الاختبار الثاني، عرضت الرسومات خارج البؤرة قليلاً لتفحص دور الخط المحيط (وهو أكثر حدة في رسومات بيكاسو). واتهمت النتائج أنّ حدة الأطراف لم تتحكم بعملية التمييز على نحو قوي. وفي الاختبار الثالث عُكِست ثلاث صور، وأُرِيت ثلاث أخرى رأساً على عقب. وقد أنقصت هذه التجربة من إدراك أعمال مونيه، لكن الأمر لا ينطبق على لوحات بيكاسو:

توحي الاختبارات الحالية لرسومات متحركة أنّ هذه الحركة تشتت التحكم عندما يمثل المحفز موضوعاً حقيقياً (كما في رسومات مونيه)، لكن تشتتاً أقل ظهر عندما كان للمحفز علاقة أوهى مع العالم الواقعي (كما في لوحات بيكاسو).

وتضمّن الاختبار الرابع عملية تمييز بين أعمال أخرى لمونيه وبيكاسو، بالإضافة إلى رسومات لفنانين انطباعيين وما قبل انطباعيين (رينوار، سيزان وديلاكروا)، وآخرين تجريديين (براك وماتيس). وهذا لا يعني بالطبع أنّ الحمام يشير إلى ما يفضله إلى الدرجة التي يستطيع فيها الباحثون أنْ يقولوا ذلك، فهذا لا يؤدي أي دور، فالأمر له علاقة أكثر بالملاحظة وهذا يتضمن اللون، وهو العائق في جميع الاختبارات، بالإضافة إلى السماكة التي تحدثها ضربة

---

(1) الجدير ذكره أنّ شعار منظمة الأمم المتحدة «حمامة بيضاء وغصن زيتون» هي من أعمال بيكاسو. والغريب في الأمر أنه وحتى اللوحة الجدارية التي تبرز كخلفية للقاءات تتم في الأمم المتحدة هي أيضاً لبيكاسو وهي لوحة «غويرنيكا». والطريف أيضاً أنّ لوحة الفجرية «جيتان» التي تظهر على هذا النوع من السجائر هي أيضا لهذا الفنان غير العادي.



كولومبار يمامة بذيل
مدبب، من فصيلة
كولومبا أوكسيورا. حفر
لسيزار ماكري على
غرار مدام نيب من
كتابها «الحمام» Les
Pigeons باريس
.1818

فرشاة الرسم، وتمييز الموضوعات في اللوحات. ورغم أنّ المدرسة الانطباعية تهدف إلى تسجيل الانطباعات العابرة، سيما انطباعات اللون الطبيعي، فهي لم تشرع في تمثيل الواقع أو تسجيله، وهي مهمة تناسب فن التصوير الفوتوغرافي في أكثر. وبعد كل هذا يبدو أنّ الحمام تمكن من التمييز بين الرسومات والأشياء المدركة ضمنها، وتلك التي من دون عناصر (أو بعناصر أقل قابلية للتحديد).

وفي دراسة ظهرت في وقت سابق تمكن كل من هيرنشتين ولوفلاند من الكشف عن قدرة الحمام على التمييز بين الصورة الفوتوغرافية والشيء الفعلي. «لقد اقتربنا الآن من فهم الطريقة التي يرى الحمام العالم من خلالها. إنْ كانت اللوحات تمثل عالماً بثلاثة أبعاد، فبإمكاننا أنْ نفترض أنّ الحمام يستطيع أنْ يرى اللوحة على أنها تمثيل لعالم بثلاثة أبعاد».

لقد درس كلٌّ من بورتر ونيورنغر مقدرة الحمام على أنْ يتعلم التمييز بين اللازمة الموسيقية المعقدة بالإضافة إلى ربط مؤلفين موسيقيين مع آخرين من الحقبة ذاتها، وهي دراسة شبيهة بدراسة جامعة كيوتو التي تناولت فن الرسم. في التجربة الأولى أُسمعت حمامتان بيضاوان من نوع «كارني» قطعة صغيرة من مقدمة باخ استمرت دقيقة واحدة، وكُرِّرت على نحوٍ متواصل، ومقطوعة استمرت أيضاً لدقيقة واحدة من سوناتا الكمان لبول هندميث الأوبرا 25 رقم 1، والتي كُرِّرت بالطريقة ذاتها. وقد تراوحت الفواصل الزمنية من خمس ثوانٍ إلى ثلاث دقائق. عندما عُزِفت مقطوعة باخ، تلقت الحمامة التي تنقر المفتاح الأيسر بعض البذور، أما عندما عزفت مقطوعة هندميث، فمنع عنها الطعام (أي أنّ الفعل لم يُدعّم). لقد تعلمت الحمامتان كلتاهما التمييز بين باخ وهندمث (كانت أكثر من ثمانين بالمئة من ردود الأفعال صحيحة).

وفي التجربة الثانية التي هدفت إلى تأكيد لقى التجربة الأولى

وتوسيعها، استخدمت المقطوعات الموسيقية الأطول. تفاوت الإطار الزمني من دقيقة واحدة إلى أكثر من عشرين دقيقة. أما الحمام الذي استخدم فكان من ثلاث سلالات مختلفة: (حمامتان من نوع الكارني الأبيض White Carneaux، وحمامة شيتي مودينا Schietti Modena، وحمامتان من الملوك الفضية Silver Kings)؛ كطريقةٍ لتوسيع عمومية اللقى والنتائج. وكانت الموسيقى المعزوفة هي بعض مقاطع من باخ ومن كونشيرتو سترافينسكي «طقوس الربيع». وقد اسُتخدم قرصان لتسجيل ردود الأفعال، كان يجب نقر الأيسر منهما، عندما كان الحمام يسمع باخ، أما الأيمن فهو لسترافينسكي. ودُعِّم القرصان بالبذور عندما تكون الاستجابات صحيحة (في هذه التجربة ظهر بأنّ أكثر من 70 % من الاستجابات صحيحة). وقد أكدت اللقى والنتائج، ووسعت تلك التي وردت في التجربة الأولى. وكانت هناك تجربة ثالثة أيضاً، هدفت إلى اختبار استجابة الحمام لتصنيفاتٍ موسيقية، استخدمت أربع حمامات وأُسمِعت موسيقى لم تسمعها من قبل. فقد عزفت مقطوعات من بوكستيهود وفيفالدي وسكارلاتي (جميعها أُلّفت قبل عام 1750 كما أنها تشبه موسيقى باخ)، هذا بالإضافة إلى موسيقى تم تأليفها بعد عام 1900، لموسيقيين شأن إليوت كارتر ووالتر بيستون، ومقطوعة أخرى لسترافينسكي (من مجموعة طائر النار)، مستخدمين تنوعاً من الآلات الموسيقية). استجابت الحمامات إلى نوع الموسيقى (أي موسيقى باخ أو الأسلوب الباروكي[1]، المفتاح الأيسر. والأسلوب المعاصر أو أسلوب سترافينسكي، المفتاح الأيمن) أكثر مما استجابت لعزف أداة موسيقية محددة. ولإجراء مقارنة الحمام مع الناس، وضعت مجموعة من سبعة طلاب في اختباراتٍ شبيهة.

(1) Baroque مدرسة فنية تمتد من نهاية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، وتتميز بإظهار الحركة الزائدة، والتركيز على التفاصيل وبجو مشحون بالتوتر.

كانت النتائج لافتة، فقد استجابت الحمامات والبشر على نحوٍ شبيه باستثناء أمر واحد، استجاباتهم لفيفالدي. كما اختلفت الحمامات الأربع بالطريقة ذاتها، فقد بدأت بنقر مفتاح سترافينكسي على نحوٍ متواصل (أي الموسيقى المعاصرة) أكثر مما نقرت مفتاح باخ. وباستثناء مقطوعة فيفالدي استجابت الحمامات والطلاب على نحوٍ متشابه لتصنيف الحافز الموسيقي، لذا يمكن القول: «إنّ استجابةً الحمام لأحداث سمعية معقدة يقترب من استجابة البشر للأحداث نفسها أكثر مما هو معروف حتى الآن».

وتركز بحث بورتر ونيورينغر على التمييز والتصنيف، لكنه لم يتوجه إلى مسألة التفضيل فيما يتعلق بالمقطوعات الموسيقية. لكن ثمة سؤالاً، هل يبدي الحمام ما يحب وما يكره من قطع موسيقية بعينها. يروي بوريا هذه الحكاية بالاعتماد على دليل قصصي يعود إلى فترة أقدم:

«يحكي بيغلي عن حمامة تعيش في منطقة تقطنها امرأة شابة كانت تعزف على البيانو القيثاري ببراعةٍ منقطعة النظير. لم تبدِ الحمامة اهتماماً كبيراً بعزف المرأة، إلا عندما عزفت أغنية «سبيرا سي Spera si» من أوبرا هاندل «أدميتوس Admetus»، حيث كانت تأتي وتجلس قرب النافذة مبدية سعادتها. وعندما كانت تفرغ المرأة من عزف الأغنية، كانت الحمامة تعود إلى عشها، ذلك أنها لم تتعلم فن التصفيق بالجناحين كي تستعيد الأغنية».

مقدرات ملاحية

لم يتحدث داروين عن قدرات الحمام على العودة إلى دياره سوى القليل. فالرجل كان على عتبة حقبة جديدة، أي عندما ظهرت سباقات الحمام. ففي عام 1858 طُيِّرت مئة وعشر حمامات من أنتويرب من جسر لندن لكي تعود إلى «الديار»، ما جعل هذه المقدرة تصبح حديث الناس وتثير الدهشة والعجب. وكما نوه وين في العام

ذاته إلى أنّ داروين كان في جزيرة ويت يجمع مواد لما أصبح «أصل الأنواع»،وإما أنّ أنباء رحلة الحمام الجوية تلك وصلته على نحوٍ متأخر، ما جعل من غير الممكن أنْ يضمنها في الكتاب، أو أنْ الحدث مضى من دون أنْ يعيره داروين المنشغل أي اهتمام.

يمكن القول: إنّ للحمام قدرات ملاحية استثنائية. هناك عدد من الفرضيات تشرح غريزة العودة إلى الديار عند الحمام، لم يقم الدليل عليها. إحداها، وهي فرضية الملاحة الشمسية التي قال بها ماثيو، وتفترض أنّ الحمام يقدّر على جزءٍ قصير من قرص الشمس المقاسِ في موقع الإزاحة، ارتفاعَ شمس الظهيرة، ويقارنه مع آخر ارتفاع لها شاهده في دياره من أجل الانزياح الفراغيّ ذي الأبعاد الثلاثة. فإنْ كان ارتفاع الشمس الذي شاهده في الظهيرة أخفض من ذلك الذي يتذكره من دياره، فسيكون الحمام في شمالي دياره. وأما إنْ كان ارتفاع الشمس في الظهيرة أعلى من الارتفاع الذي يذكره الحمام فسيكون في جنوبي الديار.

ورغم ذلك، فتطبيق تنوع من التجارب، بما في ذلك تجارب حركة الساعة وتجارب عائق الشمس، كشف عن أنّ الحمام لا يستخدم الشمس لأغراضٍ ملاحية.

مُهِّد لعددٍ من السجالات التي هدفت إلى معارضة فرضية ماثيو، تناول الأول منها فرضية قوس الشمس، وقد حاجج هذا السجال بأن هذا يقتضي من الحمام أنْ يقيس التغيرات في السمت. وفي الوقت الحالي، ليس هناك من دليل يجعلنا نقول إنّ الطير الذي يحلق يستطيع أنْ يفعل ذلك. والسبب الثاني هو عدم وجود دليل بأنّ للحمام أداة دقيقة لقياس الزمن تحفظ له مواعيد العودة إلى دياره.

ثمة عامل آخر وهو الرؤية، رغم أنّ للحمام رؤية لافتة جداً، فالعلماء يرتابون في امتلاكه الرؤية الضرورية للملاحة الشمسية. لذا، فإنْ لم تكن الملاحة الشمسية هي الجواب الشافي، فما هو



حمام يتسابق.

الجواب إذاً؟

ربما يكمن جانب من الإجابة في أدلة غير مرئية. وثمة نظرية أثارها بابي Papi وعدد من زملائه عنيت باستخدام الحمام للملاحة التي تعتمد على حاسة الشم. فهم يقترحون أنّ الحمام يخلق خريطة شمية يصنف فيها الروائح منذ ولادته. وهناك روائحُ مختلفةٌ تنبهه إلى اتجاهاتٍ مختلفة، البحر، الغابات، المدن. في المراحل الأولى من حياته يقرن الحمام الروائحَ مع الاتجاهات التي تأتي منها تلك الروائح. فعندما تنطلق الروائحُ من إحدى المناطق (مثلاً عندما ينقل الحمام إلى موقع سباق ما) يخزن الروائح ويعكسها في طريق

عودته باتجاه الديار. لم تكن تلك التجارب قاطعة، لذا ما تزال فرضيةُ الملاحة التي تعتمد على حاسة الشمّ جزءاً من النقاش المتعلق بمهارات عودة الحمام إلى دياره. لقد أثار بعض العلماء شكوكاً كبيرة فيما يتعلق بأهمية الأدلة الشميّة.

ثمة فرضيةٌ أخرى تتعلق بالحوافز المغناطيسية تقول: إنّ الحمام يطير باستخدام مصبّعة grid تتشكل من أقطاب مغناطيسية وجغرافية يمكن استخدامها لأغراضٍ ملاحية. ويمكن استخدام المجال (الحقل) المغناطيسي لأغراضٍ تتعلق بالتوجيه، وربما من أجل الملاحة. وفي بداية عقد السبعينيات من القرن المنصرم أقيم عدد من التجارب الناجحة على الحمام، تتعلق بتوجيه البوصلة المغناطيسي. وقد أظهرت تلك التجارب التي استخدمت أجساداً ممغنطة أو لفافات ومدخرات، أنّ المجال (الحقل) المغناطيسي يمكن أنْ يُنتَج حول الحمام. وعندما ارتبكت الحمامات، بدت النتائج بأنها تشير إلى أنّ الحمامَ لم يتحول بين بوصلته المغناطيسية وبوصلته الشمسية، بدلاً من ذلك بدت الأجهزة بأنها تتفاعل، مما يؤكد فعالية حساسية الحمام المغناطيسية ودقتها. إنها تقوم بكشف مجالات الأرض المغناطيسية لكي تحصل على بعض التأثير على مهاراتها الملاحية. بالتأكيد هناك دعم قويّ ودليلٌ يؤيد الزعم القائل إنّ تحليق الحمام يتأثر بالمجال (الحقل) المغناطيسي للأرض. لكن كيف للحمام أنْ يدرك هذه المحفزات المغناطيسية؟

لقد وجدت بحوث أجريت مؤخراً تفيد أنَّ للحمام، بالإضافة إلى مخلوقاتٍ أخرى، إمكانيات وقدرات على العودة إلى الديار، نظرًا لكون هذه المخلوقات تمتلك عناقيد من بلورات أيونية بالغة الصغر ومغانط [1] تتموضع في النهايات العصبية من المنقار العلوي. تُعدّ

(1) Magnetite Fe3O4 أحد فلزات الحديد وله خواص مغناطيسية. اسمه الكامل: أكسيد الحديد المغناطيسي.

هذه الشوارد التي تقبع في عناقيد على محاور مختلفة، والتي تزود الحمام بمعلومات ثلاثية الأبعاد عن المجال الأرضي المغناطيسي، بالغة الحساسية بالنسبة للحقول المغناطيسية. وهذا يعني أنّ للحمام إحساسًا بالمغناطيس يعود إلى جهاز فطريّ للتعقب، يرسم خط مسيره إلى الديار ويدرك التغيرات في المجال المغناطيسي.

وتُظهر هذه المزايا الكيفية التي يأتي فيها طريق «الديار» إلى الحمام الذي لديه بوصلتان؛ بوصلة شمسية وبوصلة مغناطيسية تعملان على نحو مختلف تماماً. وأجريت العديد من التجارب للإيحاء والتأكيد بأنّ الحمام يستخدم هذه البوصلات عند العودة إلى الديار. وفي الوقت الذي كان يترسخ فيه أنّ هذه البوصلات على جانبٍ من الأهمية في عودة الحمام إلى دياره، ما تزال هناك أسئلة من دون أجوبة. ولكن هل يستخدم الحمام عوامل أخرى لتحديد عودته أثناء طيرانه؟ إنّ الحمام يرى الضوء ما فوق البنفسجي، وهو يكتشف التغيرات في الضغط الجوي، كما يمتلك القدرة على سماع ما تحت الصوتي[1]، كما أنه على جانب كبير من المهارة في الذكاء الفضائي.

ويبدو أنّ للحمام إمكانات، أفضل من التي يملكها البشر، لتمييز الأشياء وإدراكها عندما تكون في حال من الدوران. لقد أظهرت الاختبارات أنّ الحمام قادر على تمييز الأشكال. وحتى وإنْ كان الشكل محجوباً على نحوٍ جزئي، فللحمام قدرته على تمييز تخوم هذا الشكل.

ويبدو بأنّ تمييز الأشكال أو حدودها له كلمة الحسم في مقدرات الحمام الملاحية. فحدود المباني والطرق السريعة ترشده إلى دياره، وعندما يتيه عن مساره تتدخل الأجهزة الأخرى. يقول جوناثان

(1) Infrasound وهي الترددات الصوتية التي لا يمكن للبشر أنْ يسمعوها والتي لا تتجاوز ذبذباتها 20 هرتز. أما ما فوق صوتي ultrasound فهي التي تتجاوز معدل 20 كيلو هرتز.

بالكومب بأنّ السبب في هذا يعود إلى قدرة الحمام على النظر إلى العالم من مسافاتٍ مرتفعة جداً. فهو قادر على تمييز المعالم المألوفة من زوايا مختلفة بسبب رصده لها في أثناء طيرانه. وهناك بحوث أخرى تدعم هذه الفرضية وتضيف أنّ الحمام يستخدم معرفته بطرق المواصلات البشرية لتعينه في ملاحته حتى عندما يستدير عند تقاطعات الطرق السريعة. وهذا له ميزات ونفع كبير، ذلك أنه يطلق حرية الحمام لرصد ما تبقى من مسافة الطيران والانتباه إلى اقتراب المفترسين ولو في مرحلة مبكرة. يقول الباحثون: إنّ هذا يؤكد على ذكاء الحمام ومرونته. ليس هناك من أحد يسائل تطور مقدراته في العودة إلى الديار. لكن عندما يدرك المرء أنّ الحمام يستخدم هذه المهارة في منطقة غير مألوفة، فلربما يتحول إلى إتباع طرق مألوفة عندما يعرف المنطقة، وهذا مثال مؤكد على قابليته للتكيف والمرونة. كما تؤدي الذاكرة دورها أيضاً، مع الخرائط الجوية للطريق، أو الخرائط الذهنية بما أنها تجهيزاته الملاحية، ربما جنباً إلى جنب مع المحفزات التي تتعلق بحاسة الشم لديه.

وعندما نأخذ جميع هذه النظريات عن مقدرات الحمام في التوجه إلى دياره بعين الاعتبار، ربما نضطر إلى أنْ نطرحَ السؤال الآتي: لمَ يعنينا هذا كثيراً؟ رغم أنّ البوصلة تشير إلى الاتجاه لكنها لا تفضي إلى المقصد. هل هناك توق أكثر عمقاً في قلوبنا يدفعنا إلى العجب من مقدرة الحمام المتواضع على التوجه إلى دياره؟ كتب جون كارول عن هذا التوق عندما سجل تجربة تتعلق بعودة الحمام إلى دياره، حيث ترعرع الحمام في خمٍّ متحرك، أي في مقطورة على شاحنة. انحصر تركيز التجربة على ملاحظة ما سيحدث لمسار الطيران عندما كان منزله ينتقل: «كانت الديار ما تزال نفسها، لكن موقعه كان قد تغير أو أنه انتقل. وجد الحمام دياره، فكرة الوطن...... هي أقوى من فكرة المكان».

بيير بيوتارد وإم كوربي
«حمام ليموزين باتو».
كولومبا ليموفيسينزيز
من كتاب Les
Pigeons de
voliere et de
Colombier
(باريس 1824).



«الحمام» يعرف أنّ الديار ليست بالضرورة نقطة متفردة على كوكبنا. فالوطن حيث يكون القلب وحيث الطعام. وهو المكان الواسع في الطريق حيث يجثم. الوطن حيثما تذهب هو العودة إلى المنزل.

وهذا ما يحدث للكثير منا، أوَ ليس كذلك؟ إنهم يأتون بالوطن إلينا. نعتقد بأننا نعرف أين هو، ومن ثم ينتقل الناس الذين جعلوه وطناً، أو يموتون أو يجنّون.... وعلينا أنْ نعرف أين هو الوطن بأي

حال. وهذا هو تحدينا. علينا أنْ نفهم بأنّ هذا ليس مكاناً (بقعة) محدداً على هذا الكوكب. لقد علّمنا العلم بأنّه ليس منا من هو مشرد.... ليس قرب النجوم أو قرب الشمس أو التقلبات في المجال المغناطيسي، لكنْ بجانب شيء آخر، نعلم هذا كله.

أوَ يمكن أنْ يكون هذا السبب في تسمية الحمام «الحمام الداجن» (الذي يعود إلى الديار)؟ إنّ للمتسابقات من الحمام فكرة باهتة لما يشكل «وطنا». لسنوات عديدة، فصلَ من ينظمون سباقات الحمام، الحمام المتسابق عن شركائها لعدة أيام قبل السباق بغية جعلها تندفع إلى المنزل لتلم الشمل. مؤكدٌ أنها سيجد «الوطن» في أيّ مكان كان، في مكان ثابت أو في مكان جديد تدفعها إلى ذلك جاذبية الوليف. وهنا ربما يصدق القول القديم، الوطن حيث يكون القلب.

2 - رسل السماء: الدين والميثولوجيا

لليمام بعض الميزات الرائعة
علينا أنْ نبقيها في أذهاننا،
صفاته السبع
جديرة بأنْ نوليها اهتمامنا،
لا يعرف المرارة ولا النكد،
علينا أنْ نتمثل تواضعه وحبه للسلام،
لا يعيش الحمام لصاً،
مثله يجب أنْ نكون،
مترفع عن ديدان الأرض
قُوتُه البذور،
وكما ليسوع نحن أبناء
فاليمام أمهات للطيور الأخرى.
كما يجب أنْ نكون للبشر الآخرين،
صرخته صرخة أسى وأسف
كما يجدر بنا عندما نأثم،
في الماء هو بعيد عن متناول الصقور
كما أمرنا الكتاب المقدس أنْ نبتعد عن مخالب الشر
يحفر عشه في صخرة صلبة
وفي رحمة يسوع أملنا الأصلب.

تمضي المفارقة في النظرة إلى الحمام إلى مملكة الدين والميثولوجيا. فللحمام مكانته الفضلى الكريمة في الدين، والشعائر الدينية عبر القرون. ففي بعض المراحل اختير بوصفه الأضحية الأفضل من بين الطيور (هو الوحيد الذي يبهج الله). كما امتد دوره في الممارسات والشعائر الدينية عبر ثقافات وأديان مختلفة.

ومنذ البدايات الأولى ذكر الحمام في العديد من أساطير الخلق. فقد تحدثت الحضارة الأنديمية[1] عن أهميته. فالسيدة اليمامة Lady Dove كانت زوجة «تومو» البشريّ الأول، واتخذت «إورينوم» الإلهة الأسطورية في الفترة ما قبل الهيللينية شكل يمامة ووضعت البيضة الكونية.

وفي الميثولوجيا الإفريقية، جسدت اليمامة الحب والعون المشترك. وأما لشعب يوروبا[2] فجسدت الرفاه والشرف. نرى اليمامة في واحدة من أساطير يوروبا طيراً برياً تندب حظها لعدم إنجابها أطفالاً. سمع «إيجي أوغبي» ملك آلهة «أودو» اليمامة تندب حظها العاثر. ذلك أن الحياة لم تمنّ عليها بأطفال. وعدها إيجي بتحقيق أمنيتها إن هي اتبعت نُصحه. كان عليها أن تبني عشها بالقرب من بيته (أي أن تصبح من الطيور الداجنة). انتقلت اليمامة إلى سكناها الجديدة، وبالفعل أنجبت صغاراً. قرر إيجي أوغبي بأنها ستضع بيضتين في كل مرة (وهذا ما كان) وهنا أصبحت أماً لتوأم. في إفريقيا يُعرف الحمام واليمام بالطيور الرسل.

أما في أستراليا الأبورجينية[3]، فلحمام الدريم تايم أدوار رئيسة في عدد من الأساطير، تتصل إحداها بمارنبي الحمامة ذات الجناحين البرونزيين التي جاءت من باراتا. تكشف الأسطورة عن أصول الرواسب المعدنية الغنية في المنطقة التي تحيط ببلدة بروكن هيل. تطير الحمامة الجريحة إلى أديم صخور بروكن هيل الكوارتزية. لقد شكل ريشها المتساقط الذهب والفضة والصخور اللامعة. وأقام دمها الصخور البيضاء المتآكلة في بروكن هيل. ومن هنا باتت مناجم الذهب والفضة تميز مسار الحمام.

---

(1) Andanamese مفردة تدل على الجمع وتطلق على أقوام أديفاسي وهم السكان الأصليون لجزر أندامان التي تقع في القسم الجنوبي من جزر البنغال.

(2) Yoruba جماعة إثنية تقطن غربي أفريقية.

(3) Aboriginal سكان أستراليا الأصليون.

شاع استخدام الحمام في منطقة الهلال الخصيب[1] في الأضحيات الدينية في الطقوس الرافدية والحثية. بدا وكأن تلك الأضحيات وُجِّهت إلى الأعالي إلى الآلهة المعبودة. وحتى أنّ عبارة «فلتحلّق آلام رأسي إلى الغرب مثل يمامة» اقترنت بصورة التضحية تلك.

احتُفظ باليمام في مصر ودُجِّن هناك في عام 3000 قبل الميلاد على أقل تقدير. فهناك وخلال حقبة الفرعون رمسيس الثالث ضُحيَّ بـ 57000 حمامة للإله أمون في طيبة في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. كما عُثر على صور اليمام على مجسمات نافرة وفي القبور. صُوِّر على أحد هذه المجسمات المصرية موكب تتويج حرّرَ فيه رهبانٌ طيوراً وأطلقوها من أقفاصها. وتمت الإشارة في حوليات تحوتمس الثالث (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) إلى 258 زوجًا من الحمام، وإلى 5237 حمامة من نوعٍ آخر. وبقي الحمام يشكل جزءاً من شعائر وطقوس رئيسة للحثيين وسكان بلاد الرافدين. وقد نظرت الإلهة «عِنّات» إلى اليمام كواحد من حيواناتها الأثيرة. وعندما بدأت



أقراط تعود إلى الإغريق 200-100 قبل الميلاد ذهب بمينا وعقيق أحمر.

(1) المنطقة التي ازدهرت فيها الحضارات السومرية والبابلية والآشورية والفينيقية من الشرق الأوسط.

رعاية الحمام في مصر، صُنعت الأجهزة والأدوات بغية منعه من مغادرة أبراجه. وقد تجلت إحدى الطرق في منع الحمام من المغادرة باستخدام تعويذة مصرية قديمة اتخذت شكل رأس خفاش.

وحسب «زينوفون وستيسياس ولوسيان»، وهما من الكتاب الإغريق، فإنّ الفرس الأخمينيين[1] عبدوا الحمام واليمام، أو أنهم اعتنوا بها وصانوها ناظرين إليها ككائناتٍ ذات طبيعة مقدسة. فقد أشار كسينوفون (428-355 قبل الميلاد) إلى مكانة الحمام واليمام عند الفرس (أناباسيس[2] 1-6). كما عرف الكتاب اللاتينيون أيضاً مقدار المكانة التي كانت للحمام واليمام عند السوريين، فقد كتب تيبولوس: «ليس من داعٍ لأنْ أحكي لكم كيف كان الحمام المقدس يرفرف من دون أنْ يضايقه أحد في مدن فلسطين وسوريا؟». ففي سوريا حُرِّم قتل اليمام وتناول لحمه، بسبب اعتقاد شائع مفاده أنّ اليمام يرمز إلى الروح وإلى أنه يحمل أرواح الموتى. واقترن اليمام أيضاً بعشتار إلهة الخصب السورية التي كانت تضع يمامة في أعلى صولجانها.

كما اقترن اليمام بالجنسانية والحب والإخلاص الذي أدى إلى الارتباط بالطريقة التي نظرت فيها بعض جوانب الدين والميثولوجيا إلى اليمام. ففي الميثولوجيا الإغريقية، وُلدت أفروديت إلهة الحب من بيضة حضنتها يمامة. واليمامة أيضاً رمز لفينوس، إلهة الحب عند الرومان. فقد نُظر إلى اليمام بوصفه رسلها أو مبعوثيها، أي كان اليمام هو الوسائل التي كانت تنقل فيها حبها وهواها. كما صُوِّرت فينوس في بعض الأحيان تعتلي عربة تجرها يمامتان. وفي الشرق الأوسط أيضاً نُظر إلى الحب والهوى كصفتين لليمام الذي جسد الجنسانية من خلال الإلهتين عشتار وإيزيس. ورغم ذلك ثمة

(1) الأخمنيين نسبة إلى الأخمينية وهي الإمبراطورية الفارسية من 550- 330 قبل الميلاد.

(2) Anabasis هو العمل الأشهر للكاتب والجندي المحترف كسينوفون.

مفارقة، فمن جهة يمثل اليمام الجنسانية والشغف، ومن جهة أخرى يمثل الأمومة وغريزة الأمومة. بالطبع، ليس الشغف والأمومة كلاً واحداً، فثمة أوقات يُنظر إلى هاتين الصفتين كضدين. اليمامة أيضاً استعارة للإخلاص الذي لم يقترن بفينوس بالقوة نفسها التي اقترنت بها صفتا الشغف والجنسانية. تمثل اليمامة بين الشابات اليافعات، الطهارة والنقاء، فنُصُب ذلك الطير وُجدت تزين أضرحة فتيات شابات إغريقيات تعود إلى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد.

يقول بعض دارسي التوراة: إنّ سربًا من يمام أطعم الإله زيوس، عنبرية الآلهة شكراً له وامتناناً على إطلاقه لهم في السماء فأصبح ثريا لامعة. ويقول آخرون: إنّ اليمام كان يطعم زيوس عندما كان صغيراً في كهف في جزيرة كريت. وبالإضافة إلى مجموعة الثريا المضيئة ثمة كوكبة أخرى من النجوم وهي كولومبا التي قبعت في السماوات ذكرىً لمأثرة بطولية قامت بها يمامة. زود فينيوس Phineus الأرغوناتوس[1] بنصيحة جيدة عندما انطلقوا في رحلتهم في البحر. وعندما شارف سفينهم على الوصول إلى صخرتي سيبمليغيدز[2] بدت الصخرتان قريبتين، فقام الأرغوناتوس بإطلاق يمامة بيضاء قرب مدخل الصخرتين. فقد قيل لهم: إنّ الصخرتين لن تتلاطما من جديد إنْ مرّ أيُّ شيء حيّ في ذلك المكان. وأما اليمامة البيضاء وبعون من أثينا، فطارت بسرعة عظيمة عبر المدخل مما أدى إلى انهيار الصخرتين لكنّ اليمامةَ نجت وفقدت بعض الريشات. وعندما انسحبت الجروف الصخرية جَزْراً، بدأت الآرغو[3] تبحر بين الصخرتين وأكملت رحلتها. وعندما أدركت الصخرتان بأنهما

(1) مجموعة من الأبطال في الميثولوجيا الإغريقية.

(2) Symplegades أو الصخور المتلاطمة؛ صخرتان تتلاطمان في مضيق البوسفور.

(3) السفينة التي بناها بنّاء السفن أرغو. قيل إنّ الإلهة هيرا كانت تشملها برعايتها وعنايتها.

خُدعتا، تحطمتا وانهارتا على بعضهما للمرة الأخيرة. ومنذ ذلك الحين عرفتا بصخرتي الدردنيل اللتين تحميان البوسفور وهو الممر (المضيق) بين بحر إيجة والبحر الأسود. وعادت اليمامة إلى السفين ووضعتها أثينا بين النجوم بوصفها الكوكبة «كولومبا». كما تعرف الكوكبة أيضاً بـ«كولومبا نوح»[1]، أي يمامة نوح التي تصور يمامة تحمل غصن زيتون.

في دودونا في إبيريس، وهو مكان أُنزلت فيه نبوءة قديمة على زيوس. كان حفيف أوراق في شجرة بلوط مقدسة ينقل النبوءات ليفسرها الكهنة بعد ذلك. أما الكاهنات في ذلك المزار[2] فعُرِفن «باليمامات». وقد نُظر إلى هديل الحمام في هاتيك الحقبة، بوصفه آياتٍ[3] إضافية، أي رسائل من الآلهة. وتبعاً لأسطورة أخرى كانت هناك حمامتان سوداوان تعيشان في طيبة، طارت إحداهما إلى ليبيا، والأخرى إلى دودونا. وهنا تحققت نبوءات جوبيتر، ومن ثَمَّ مُنح الحمام في تلك المنطقة منزلة مقدسة. وبات موقع دودونا المقدس يقترن بالنبوءة. لقد سعى العديد من البشر إلى الاهتداء بنبوءة دودونا بمن فيهم الإسكندر المقدوني. ونُظر إلى طيور المعبد على أنها مقدسة، وحُرِّم قتلها إلاّ لأغراض دينية.

وخُصِّت الطيور بالكثير من القدرات الغامضة في الأزمنة التوراتية وما قبل، ذلك أنها استطاعت أنْ تحلّق باتجاه سكنى الله (أو الآلهة). ونُظِر إليها كرموز للحرية. فحتى اسمها اللاتيني يثبت هذا. إذ ربما كانت كلمة أفيس Aves (وهي اللاتينية لكلمة «طير») تركيباً من المقطعين a وvia (أي من دون طريق أو ممر). تعكس

(1) Columba Noae أو «اليمامة» وهي التي أرسلها الأرغوناتوس لتساعدهم في المرور في رحلتهم كما أسلفنا.

(2) الضريح أو المقام الديني.

(3) Signs هي إشارات وليست آيات بالمعنى الديني للكلمة، لكننا آثرنا ترجمتها على هذا النحو لاقترانها بالآلهة.

توماس بيويك
Ground Dove لوحة مائية
مع قلم رصاص
وحبر أسود.



الآية التالية من سفر نشيد الإنشاد (5:11) طبيعة الطير الغامضة: «رأسه ذهب إبريز قصقصه حالكة كالغراب».

يأتي الكتاب المقدس على ذكر الحمام واليمام أكثر من أي طائرٍ آخر. يعتقد أحد الكتاب أن «اليمام أهمّ طير ذكر في الكتاب المقدس». ويعدُّ سفر الجامعة مرجعاً قديماً للحمام الأيّاب الذي ينقل الرسائل وللفكرة الخيالية التي تقول: إنّ الطيور تخبرك بالأحاديث التي تسمعها: «لاتسبّ الملك ولا في فكرك، ولا تسب الغني في مضجعك، لأنّ طير السماء ينقل الصوت، وذو الجناح يخبر بالأمر». سفر الجامعة (10:20). كما يحمل أحد أسفار الكتاب المقدس اليمام اسماً له: «سفر يوحنا» ويعني «اليمام». وربما يشير الاسم إلى شيء عن شخصية يوحنا والذي يمكن أنْ نؤوله من الإحالة إلى أفرايم «وصار أفرايم كحمامة رعناء بلا قلب». (سفر هوشع11:7).

وذكر أنّ يوحنا كان عديم الإحساس خلال اللحظات المهمة من حياته.

من بين الحيوانات التي كانت في حكاية فلك نوح المعروفة، يمامةً

أُرسلت لكي تتحقق من إمكانية رسوٍّ الفلك. ربما كانت تلك اليمامة حمامة أيّابة[1]، بما أنها عادت إلى الفلك مرتين. ثمة أساطير وخرافات عديدة ترافق هذه الحكاية، بما فيها تفسير لغياب المرارة في التشريح السريري عند الحمامة. من الواضح أنه وعندما غادرت الحمامة أو اليمامة الفلك، غلبها حزن عظيم لما حدث للأرض ما جعل مرارتها تنفجر. ومنذ ذلك اليوم، بات الحمام واليمام من دون مرارة. ليس هناك من حيوان أو طير بعينه عُرف بأنه اختير ليكون أضحية للرب أُحرقت في نهاية الحكاية، لكن من المرجح أنّ ذلك الحيوان كان يمامة أو حمامة.

أحد الصالحين يُطيّر اليمامة، موزاييك. كنيسة سان ماركو، فينيسيا -القرن الثالث عشر.



(1) Homing Pigeon وتعني الحمامة التي تدرب على العودة إلى الديار.

لقد ألهمت أسطورة طُوّفان نوح الشاعر الإنجليزي جون درايدن John Dryden قصيدته To her Grace of Ormond والتي يصف فيها عودة اليمامة إلى الفلك:

«وعندما عادت اليمامة تحمل علامة
الأرض عادت إلى الفلك المجهد طويلاً
بقايا البشر الضامنين للراحة،
أشرعوا النوافذ للاحتفاء بالضيف
مبارك هو حامل الرسالة الصالح»[1].

أنجبت حكاية الطوفان قصصاً حديثة وقديمة، فهناك «أسطورة اليمامة الثالثة» التي كتبها ستيفان زفيغ وهي مدراش معاصر[2]. فهي تسبر أغوار حكاية اليمامة الثالثة التي طيَّرها نوح. ويظهر النص التوراتي أنّ اليمامة ذاتها أُرسلت مراتٍ ثلاث، بينما أرسلت في حكاية زفيغ، ثلاث يمامات مختلفات، نسيت الأخيرة منهن مهمتها واستقرت في الغابة، وتمكنت من البقاء على قيد الحياة كونها واحدة من سكان الفلك الأصليين. بعد عدة سنوات تتزعزع سكينة تلك اليمامة بطوفان مدمر آخر، في هذه المرة كان الطوفان حرباً التهمت فيها النارُ الأرضَ. طارت اليمامة عاجزة عن أنْ تجد راحة لها ومستقراً، وقانطة من غياب من يحميها. بالنسبة لزفيغ، ما خوف اليمامة سوى مجاز لحالة العالم التي كانت سائدة في زمنه لتصبح اليمامة رمزاً للسلام.

كما ظهر عدد من كتب الأطفال تسرد حكاية الطوفان من منظورات مختلفة، من وجهة نظر زوجة نوح، أو من منظور نسوي[3]، تاركة نوح خارج الصورة في كتاب «فلك نورا». تتحدث حكاية نيكولاس

---

(1) الترجمة لمترجم الكتاب.

(2) Midrash مجموع التعليقات التي كتبت عن التوراة العبرية كما أنه يعتبر تاويل الرابينيين للعهد القديم.

(3) Feminist من feminism النظرية النسوية.

الآن «اليمامة» عن العيش المشترك. ففيها نجد ناسكاً يحب جزيرته وأسلوب حياته الهادئ الوادع. ذات يوم يجيئه ضيفٌ ثقيلُ الظل يعكّر هدوءه وصفوه. وما الضيف سوى يمامة الفلك. أخيراً وبعد عديد من الأحداث، يتمكن الناسك من العيش بسعادة مع وافده الجديد.

إنّ دور اليمامة في حكاية نوح منحها (أي اليمامة) خصائص تجسدت في الولاء والصدق. وتبعاً لأسطورة أيرلندية كان لليمامة مظهر الغراب، ولأنها مطيعة خلافاً للغراب، كوفئت لطاعتها. أما في النسخة العربية من حكاية الطوفان، فيكتب ويلكنسون:

«عندما عادت اليمامة إلى الفلك في المرة الثانية، أثبت المظهر الأحمر لقدميها أنّ الطين الأحمر الذي مشت عليه جف ماؤه[1]، ولتخليد هذه المأثرة، دعا نوح ربه أنْ تبقى أقدام هذه الطيور إلى الأبد بهذا اللون الذي يميزها حتى وقتنا الحاضر».

أما في ملحمة جلجامش، فإنّ حكاية الطوفان مختلفة، ففي اليوم السابع من الطوفان تُطيّر يمامة، لكنها تعود لأنها عجزت عن أنْ تحطّ على الأرض بسبب مستوى الماء المرتفع.كما يُرمى طائر سنونو من الفلك ويتبعه غراب. ونرى في هذه النسخة من الحكاية أنّ اليمامة خُصَّت بدورٍ ثانوي. في مقطع آخر يحكي إنكيدو لجلجامش عن حلم جاءه قبل ليلة، وفي الحلم، كما يقول إنكيدو، تحول إلى يمامة، «قَيَّد ضلوعي مثل ضلوع طير».

كما أنّ للأزتيك[2] نصيبهم أيضاً في حكاية الطوفان، ففي نسختهم من الحكاية مُسح معظم البشر من على وجه الأرض باستثناء رجل وامرأة كوكس كوستلي وكسوشيكوتزال، أفلحا في النجاة بقارب حيث وجدا يابسة على قمة جبل وهناك استوطنا وأسسا عائلة كبيرة. أما نعمة اللغة فجاءتهم بها يمامة، لكنها كانت

(1) الإشارة إلى ظهور اليابسة ونجاة الفلك.

(2) سكان المكسيك الأصليون.

نعمة ونقمة في آن، فبات اللسان ألسنة واللغة لغات، ولم يعد بإمكان الأطفال أنْ يفهم أحدهم الآخر.

في الكتاب المقدس، ذُكرت ثلاثة طيور تؤكل لحومها (وبالتالي سمح بتناولها إثر ذلك): السماني واليمامة والقمرية[1]. وكانت الطيور، في إسرائيل القديمة، عنصراً مكملاً لمنظومة الأضحيات اللاوية، خصوصاً في الأضحيات التي كانت تهدف إلى التطهر. واستخدم الحمام قبل هذا أيضاً من قبل إبراهيم في سفر التكوين حيث «ضُحيّ بقمريات وفرخ حمامة[2]. ربما كان هذا واحدًا من الأسباب التي جعلت من الأضحيات تنحصر بالقمريات والحمائم في النصوص اللاحقة (سفر اللاويين 5:11[3]، 12:8[4]). وهناك سبب شبه مؤكد أيضاً، لأنهم لم يذكروا في قائمة الطيور «النجسة» (اللاويين 5:2)[5]. يتناول اليمام والحمام على السواء البذور والفاكهة والخضار، مما يعني أنّ العبريين كانوا يعدّونها نظيفة الأجسام، لذلك كانت لحومها صالحة كطعام وأضحيات. كما تضمنت العطايا المحروقة التي كانت تقدم لله والأخرى التي هدفت إلى تطهير النفوس فرخ الحمام، لأن القمرية (اليمام) طير مهاجر ويغيب في كل موسم، لذا كان الحمام بديلاً ضرورياً. ويشير لاوي[6]

(1) وردت في كتابنا بهذه التسمية رغم أن نصوص العهدين القديم والجديد ذكرتها كيمامة.

(2) ليس هناك من إجماع على ترجمة الكتاب المقدس فهو يختلف من لغة لأخرى. ففي النسخة العربية ذُكر في سفر التكوين الإصحاح 15- 9 (فقال له: «خذ لي عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة») بينما في النص الإنجليزي ذكرت «قمريات وفرخ حمام» كما أسلفنا.

(3) اللاويون الإصحاح 5 11: وإن لم تنل يده يمامتين أو فرخي حمام......».

(4) اللاويون الإصحاح 12 8: وإن لم تنل يدها كفاية لشاة لتأخذ يمامتين أو فرخي حمامة........».

(5) اللاويون الإصحاح 5 2 «أو إذا مس أحد شيئاً نجساً جثة وحش نجس أو جثة بهيمة.......................».

(6) Levi الابن الثالث ليعقوب في العهد القديم.

أيضاً بأن مواقع الأضحيات كانت عادة في قمم الجبال. فالحمام كان يحب أنْ يأوي إلى الجروف العالية والمباني وأمكنة مرتفعة أخرى، لذا كان من السهولة بمكان الحصول عليه في هذه المناطق. لقد شكل الحمام أعطيات لتطهير الناصريين[1]، والمجذومين، والأمهات بعد الوضع.

ويقترح برنارد لازاري سبباً آخراً لاختيار اليمام فيقول:

انظروا إلى الأدب، ليس هناك من طير اضُطهد كاليمام، رغم ذلك كان هو من اختاره الرب للتضحية به على مذبحه. قال الرب: «ضحِّ لي في المحرقة ليس من هو مُضّطهد بل من هو مُضَّطهد».

لقد وفرت القمريات أو الحمام وسيلة للأضحيات للمساكين وأبناء السبيل. وخلافاً لقوانين الحيوانات التي كان يضحى بها، لم يكن هناك من شروط تقضي بأنْ تكون الطيور من دون عيب أو شائبة، أو أنْ تكون من الذكور فقط. بالطبع يجعل الريش من الصعوبة العثور على الشوائب والعيوب أو معرفة الجنس. وبسبب أعدادها الوفيرة، افتُرض، إنْ كان الطير معيباً، أنّ المُضَحي يستطيع وبسهولة أنْ يستبدله بآخر. وفي إنجيل لوقا يقدم كل من يوسف ومريم «زوج يمام أو فرخي حمام» (إنجيل لوقا 2:24) ضروريين للتطهير بعد ولادة يسوع. إنّ إضافة الطيور إلى قائمة الحيوانات الملائمة للأضحيات، تتيح للفقراء والأغنياء على السواء أنْ يشاركوا في هذا الطقس الديني.

لقد بات بإمكاننا الآن أنْ نطرح السؤال التالي، هل دُجِّنت تلك الطيور؟ استخدامها المتكرر يتضمن بأنها كانت: «من هؤلاء الطائرون كسحاب وكاليمام إلى بيوتها؟ (سفر إشعيا 60:8) قيل إنّ اليمام رُبّي في شكلٍ قديم من الأقفاص. في إنجيل يوحنا، دخل يسوع إلى المعبد واختار بائعي الطيور. كانت الشروك والفخاخ تنصب لليمام

(1) جماعة دينية يهودية.

تحضيراً للتضحية به في المعابد وللاستهلاك البشري أيضاً. «عندما يمضون أبسط عليهم شبكتي. القيهم كطيور السماء» (سفر هوشع 7:12) تشير هذه الآية إلى اليمامة الطعم[1] أو الحمام المخادع Stool pigeons. اعتاد الناس على أنْ يفقؤوا عيون الحمام واليمام الذي يستخدم للإيقاع بأنواع أخرى من بني جنسه في الشراك، بغية الحصول على لحومه، بإبرة حُمّيت على النار قبل أنْ يُربط إلى وتد ويوضع في منطقة مكشوفة، حيث تطير فوقها طيور من بني جنسها. كانت الطيور الطُّعوم[2] تربض في خوفها، وتصرخ بعد أنْ تسمع صرخات بني جنسها، آملة الانضمام إليها. أما السرب الذي يحلق عالياً فيقترب من الأرض مما يجعل من السهولة على الصياد بأنْ يرمي بشباكه ويأسره.

تمّ اكتشاف فصيلة حمام كبيرة من نوع كولومباريا في ماريشا، وفي أمكنة أخرى، ما يشي بأنّ تربية الحمام منزلياً أو في بيئة يتحكم فيها الإنسانُ استمرت منذ وقت طويل. ربما ارتبط ذلك بفترة رُبيت فيها طيورٌ داجنة أخرى شأن الدجاج. ومن الممكن أيضاً أنّ الأقفاص استخدمت في تلك الفترة. فثمة دليل يوحي بأنّ حمام الروك[3] كان أول الطيور المنزلية التي حبست في الأقفاص وأكثرها شيوعاً.

يندر وجود بقايا تدلّ على طيور في كهوف فلسطين، وهي محصورة في كهوف زويتية[4] وأم قطافة[5]. لكنّ الحفريات التي تمت في أضرحة عشتار كشفت عن وجود أشكال من اليمام على السقوف.

اكتُشف في فلسطين دليل على عظام طير في «تل جمعة» يدعم

(1) يمامة تستخدم للإيقاع بيمامات أخرى.
(2) جمع كلمة «طعم».
(3) سبق التنويه عنها.
(4) اسم منطقة في شمالي فلسطين.
(5) وادي أم قطافة في جنوب سيناء.

النظرية التي تقول بأنّ الحمام واليمام دُجنت هنا. وقُسّمت العظام التي وجدت في التل إلى تصنيفات ستة من بينها مجموعة طيور الأرض التي ضمّت الحمام واليمام.

خلال العصر البرونزي الوسيط والأخير ظهرت عظام طيور الماء سبع مرات أكثر من عظام طيور الأرض. فقد حدثت التغيرات بعد بداية العصر الحديدي عندما كانت طيور الأرض مرة ونصف المرة أكثر من طيور الماء.

تشي الأدلة التي وجدت في مدينة القدس والتي تعود إلى العصر الحديدي، بأنّ السكان هناك كانوا يستهلكون لحوم الطيور البرية والداجنة على السواء. فتناول لحوم الطيور البرية يعني أنّ الناس في ذلك الزمان والمكان كانوا يعتمدون على بشر عملوا في هذه المهنة.

ففي العهد القديم ثمة إشاراتٌ عديدةٌ إلى اليمام والحمام من سفر المزامير الذي امتدح حسن ريش اليمام عندما كان يلمع في الشمس «إذا اضطجعتم بين الحظائر فأجنحة حمامة مغشاة بفضة وريشها بصفرة الذهب» (سفر المزامير 68:13). وورد عن العاشق الذي يُشبّه باليمام ويقارن به: «عيناه كالحمام على مجاري مياه، مغسولتان باللبن، جالستان في وقبيهما» (سفر نشيد الإنشاد 5:12). يعلن طائر القمرية عن حلول فصل الربيع «والزهور ظهرت في الأرض. بلغ أوان القصب، وصوت اليمامة سمع في أرضنا». (سفر نشيد الإنشاد 2:12) ربما كان هذا إشارة إلى هجرة طيور القمرية في شهر نيسان عبر الممر الشمالي. إنّ وضع مندلسون للمزمور 55:6 معروف جيداً: فقلت: «ليت لي جناحا كالحمامة، فأطير وأستريح!».

في سفر الملوك الثاني 6:25 يُذكر ثمن زبل (زرق) اليمام[1] للتأكيد على الأثمان الباهظة التي كان يعود بها هذا الزبل (زرق)

(1) الآية كالتالي: «وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة». سفر الملوك الثاني الإصحاح السادس الآية 25.

اليمام خلال الحصار أثناء الحروب. وربما كانت تلك إشارة إلى بصيلات بعض الأزهار البيضاء التي تنبت في المروج، والتي تعرف بزرق اليمام أو حليب اليمام، أكثر منها إشارة إلى الزبل الحقيقي. لا يوافق دارسو التوراة على هذا، لكنّ ما يجدر ذكره هو أنّ زهور المروج تلك قد حافظت على اسمها اللاتيني «أورنيثوغالوم Ornithogallum»، أو (حليب الطير).

رغم أنّ النظرة إلى الحمام واليمام كانت على قدرٍ كبير من الاحترام في الدوائر الدينية، فثمة ممارسات بعينها اقترنت بها لم تكن كذلك. ففي التلمود كُتب أنّ «مطيري الحمام كاذبون». ثمة العديد من التفسيرات تتعلق بهذا القول.

أولاً: من يدرب الحمام على السباقات هو مقامر، ومن ثمَّ لا تقبل شهادته، (شاع تدريب الحمام على السباقات في فلسطين حوالي 200-220 قبل الميلاد. والرهان عليه كان يقابل بالاستياء). ثانياً: يعترف هذا المقطع بوجود الممارسة الكريهة التي تتجسد في إيقاع الحمام في الشرك أو سرقة حمام الآخرين.

يُعدُّ اليمامُ في الديانة المسيحية الرمز الأكثر شيوعاً للروح القدس، وهو أحد ثلاثة أشخاص في الثالوث. في عيد البشارة Annunciation يخبر جبريل الملاك العذراءَ أنّ الروح القدس سيأتيها بالبشارة خلال حملها بيسوع. وفي الأعمال الفنية الدينية لعيد البشارة يُصوَّر الروح القدس عادة على أنه يمامة. في العصور الوسطى، قيل إنّ مريم حملت عبر أذنها Conceptio per aurem. ربما ظن رجال الدين بأنّ حملها كان عبر همسات اليمام. وتقول الأسطورة إنّ اليمامَ كان حاضراً أيضاً أثناء صلب المسيح حسب المعتقدات المسيحية:

قيل إنّ يمامة حطت بجوار الصليب المقدس عندما كان المخلّص (يسوع) يلفظ أنفاسه الأخيرة، وعبّرت عن نبرات حزنها وأساها

قطعة صغيرة من لوحة «البشارة مع القديس إيميديوس» 1486 لكارلو كريفيلي غواش بالبيض ورسم زيتي على كنفا، نقلت عن أحد الألواح.

وشرعت تكرر: «كيري، كيري» (وتعني رحماك يا رب)، للتخفيف من معاناة لحظات احتضاره.

وفي أثناء تعميد يسوع صُوِّر الروح القدس يمامةً:

«وشهد يوحنا قائلاً: «إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه) (يوحنا 1:32). وثمة خرافة تقول، إن حُشِيت وسادتك بريش اليمام، فلن تموت، وقد ورد أنّ اليمام يرمز إلى الروح القدس الذي يصون الإنسان من الموت بحضوره. وهناك حكاية فولكلورية تزعم أنّ الشيطان يمكن أنْ يتحول إلى أي شكل باستثناء يمامة أو حَمَل، بما أنّ اليمامة هي رمز الثالوث والطهارة، والحَمَل رمز البراءة والتضحية.

يمامات بيضاوات محلقات.



وفي سراديب الموتى عند الرومان يمثل اليمام الروح الإنسانية. وكانت حظائر الحمام تبنى في أعلى ضروح ضخمة. أما في القرون الوسطى فقد انتصبت أبراج الحمام على طول المقابر لمد يد العون إلى الأرواح بما أنها تترك الجسد على شكل يمامة.

في السنوات الأولى من فترة اضطهاد المسيحيين شكلت الطيور أحد الرموز السرية التي دلت على المسيحي. كما نُظر إلى الطيور التي كانت تحلق على أنها دليل على الصلب، ذلك أنها أثناء تحليقها، كانت ترسم إشارة الصليب وجناحاها مفتوحين. كان اليمام وهو

رمز الصلب والروح القدس، يرسم بالطباشير على الجدران وتُوشى المناديل وشالات النساء به، ويحفر على الأختام».

واستمر الإقرار باليمام رمزاً للمقدس. فخلال العصور الوسطى اقترن اليمامُ بأسطورة الملك آرثر، ففي كتاب السير توماس مالوري[1] «Morte d›Arthur» هناك يمامة تحمل مبخرة ذهبية في منقارها وتطير إلى القلعة. وسرعان ما يُؤخذ فرسان الطاولة المستديرة[2] برمز الطهارة ذاك.

كما صوّر الفن والعمارة الكنسيان اليمام، ففي الكنائس المسيحية القديمة كان يصنع وعاء القرابين (وعاء يعلق فوق المذبح) في بعض الأحيان على شكل يمامة. كما تُبرزُ النوافذ الملونة اليمام في الحكايا التوراتية بما فيها حكايا الخلق، طوفان نوح وتعميد يسوع. وأحيانا تكون اليمامة لوحدها مع سبعة اشعاعات تخرج منها إلى سبع نجوم (رمز العطايا السبع للروح القدس). في فنون أخرى، وهي عادة سير القديسين، صُوّر العديد من القديسين والشهداء مع اليمامة التي تمثل الروح وهي بالقرب منهم. من بينهم القديس أغنيس (الذي صُور مع يمامة تحمل خاتماً)، والقديس غريغوري الأعظم (الذي يُصوّر عادة كشخص منهمك في الكتابة وعلى كتفه يمامة.) أما القديس كولومبا (وهي الكلمة اللاتينية لليمام) فقد اقترن باليمام، والحال كذلك أيضاً مع القديس كينليم، ابن سينوولف ملك ميرسيا. أقنعت سوندريدا شقيقة كينليم حبيبها الذي كان معلماً لكينليم وحارساً له، أنْ يقتله في غابة كلينت ورسيسترشاير. وقد نُقلت أنباء موته إلى روما عبر يمامة تحمل في منقارها رسالة، وحطت على مذبح كنيسة سانت بيتر المرتفع. وثمة نسخة أخرى من الحكاية تصعد فيها يمامة بيضاء بجناحين ذهبيين إلى السماء بعد أنْ يُقتل كينليم. وتؤكد

(1) الكتاب جمع لبعض الرومانسيات الآرثرية الفرنسية والإنجليزية.

(2) الرجال الذين منحهم بلاط الملك آرثر أعلى درجة في الفروسية.



تزيين في كنيسة بيوتر -إنجلترا- القرن الثامن عشر.

تنويعات الأسطورة تلك على أهمية الحكاية وعلى رمزية اليمامتين. إذ تمثل إحداهن روح كينليم، أما الأخرى فهي رسول من السماء. كما اقترن قديسون آخرون أيضاً باليمام. فعندما توفيت القديسة شولاستيكا صعدت روحها، بحسب شهود عيان، إلى السماء، على شكل يمامة. وكذلك أيضاً فعلت روح القديس سبس ورئيس الدير. عندما كان القديس ديفيد يعظ حشداً كبيراً عند تجمع سينود لانديوي بريفي، اشتكى الناس من أنهم لم يتمكنوا من سماعه. وهنا أصبحت الأرض التي كان يقف عليها تلة صغيرة، وشوهدت يمامة بيضاء تحط على كتفه دلالة على مباركة الله له وحظوته عنده.

تذكر إحدى القصص التي اقترنت بالقديس فرنسيس في أسيسي عطفه وحنوه على طائر القمرية، فقد رأى فرنسيس قفصاً من القمريات أسرهنّ أحد الشبان، فأخذ فرنسيس يتوسل للشاب متأسياً على حال تلك الطيور، ليعطيهن له: «أتوسل إليك أنْ تعطيني إياهن، فهذه الطيور التي تقارنها نصوص الكتاب المقدس بالأرواح العفيفة الطاهرة المتواضعة المخلصة، غاية في اللطف».

فقام فرنسيس بإعادتها إلى الدير، وأخذ يعتني بها.

كما وُظِّف اليمام أيضاً كاستعارة للكنيسة. كتب هوغ من كنيسة القديس فكتور:

«لليمامة جناحان، مثل المسيحي بسبيلين في الحياة، الحياة العملية والحياة التأملية. تمثل ريشات الجناحين الزرقاء أفكار السماء. أما ظلال الجسد المتغيرة، أي الألوان المتبدلة التي تستدعي إلى الأذهان بحراً هادراً، فتمثل محيط العاطفة الإنسانية الذي تبحر فيه الكنيسة. لكن لماذا يملك اليمام عينين ذهبيتين بديعتين؟ الجواب بسيط، لأنّ اللون الأصفر، لون الثمار الناضجة، هو لون التجربة والنضج، وعيون اليمام الصفراء هي النظرات المتخمة بالحكمة، والتي ترمي بها الكنيسة إلى المستقبل. وأما أقدام اليمام

حمراء، فلأن الكنيسة تخوض بقدميها إلى العالم بدماء الشهداء».

في مسرحية شكسبير هنري الرابع الجزء الثاني، يشير إيرل ويستمورلاند عندما يخاطب أسقف يورك، إلى: «ترمز ملابسك الناصعة إلى البراءة مثل حمامة بيضاء، وروح مقدس يبشر بالتفاهم والوئام[1] ....» ومن جديد تقام صلة اليمام بالبراءة والطهارة، وهنا على رجال الدين أنْ يتبعوا الإجراءات الرسمية. ربما كان هناك إلماح من سخرية في خطاب إيرل ويستمورلاند. إنّ العديد من الحمام الذي يقدم في العروض، أو ذاك الذي هو سليل أنساب منتقاة، له أسماء تقترن بالدين المسيحي: الراهب، الراهبة، كابوشين (راهب في الأخوية الفرنسيسكانية) قسيس، قديس، ملاك.

تُصوَّر الملائكة أحياناً بأجنحة يمام بيضاء كالثلج. وفي الوقت الذي تُخَصُّ فيه بمهمة حمل الأرواح إلى السماء، يعتقد البعض أنّ اليمام يقوم بالشيء ذاته، ففي كلمات أغنية المغني كات ستيفنز[2] «يافع جداً» ثمة إلماح إلى المقطع الذي يقول: «عندما تعتلي الطائر الأبيض العظيم إلى السماء». إن الجمع بين الأجنحة والريش والبياض والبراءة لأمر مذهل. في فينيسيا، وفي اليوم الأول من الأسبوع المقدس The Holy Week، وخلال موكب أحد النخيل[3] للتجمعات المهنية في ساحة دي سان ماركو، يحمل تجمع صُنّاع الأضرحة والمصابيح قفصاً من الطيور.

كان اليمام يُطيّر بحضور الدوغ[4]. تقول الأسطورة: إنّ الحمام كان يطير حول الساحة مرات ثلاث في اليوم تبجيلاً للثالوث. وثمة



شعار الكنيسة الموحدة.

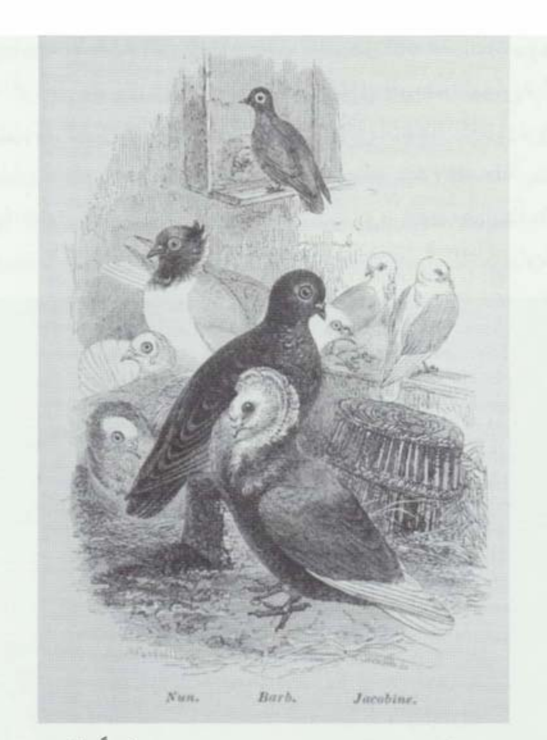
(1) هنري الرابع تعريب: أ ر مشاطي. دار نظير عبود، الصفحة 260.

(2) موسيقي ومؤلف أغنيات إنجليزي اعتنق الإسلام وبات يعرف باسمه الجديد «يوسف إسلام».

(3) Palm Sunday Procession يوم مقدس عند المسيحيين يشير إلى دخول يسوع المنتصر إلى القدس عبر حشد من البشر يلوح بأغصان النخيل. يأتي هذا اليوم قبل عيد الفصح.

(4) كبير القضاة في إيطاليا في عصر النهضة.

بعض الحمام يحمل أسماء بتضمينات دينية أو ملكية «الراهبة، الشوكة، يعقوبي[1]، حفر لجاكسون على غرار إي. فوسيل من كتاب. إي. إس ديكسون «The Dovecote and the Aviary (لندن 1851)



اعتقاد يقول: إنّ البحر لن ينتهك حرمة المدينة أبداً إنْ كان الحمام حاضراً في قبة سان ماركو.

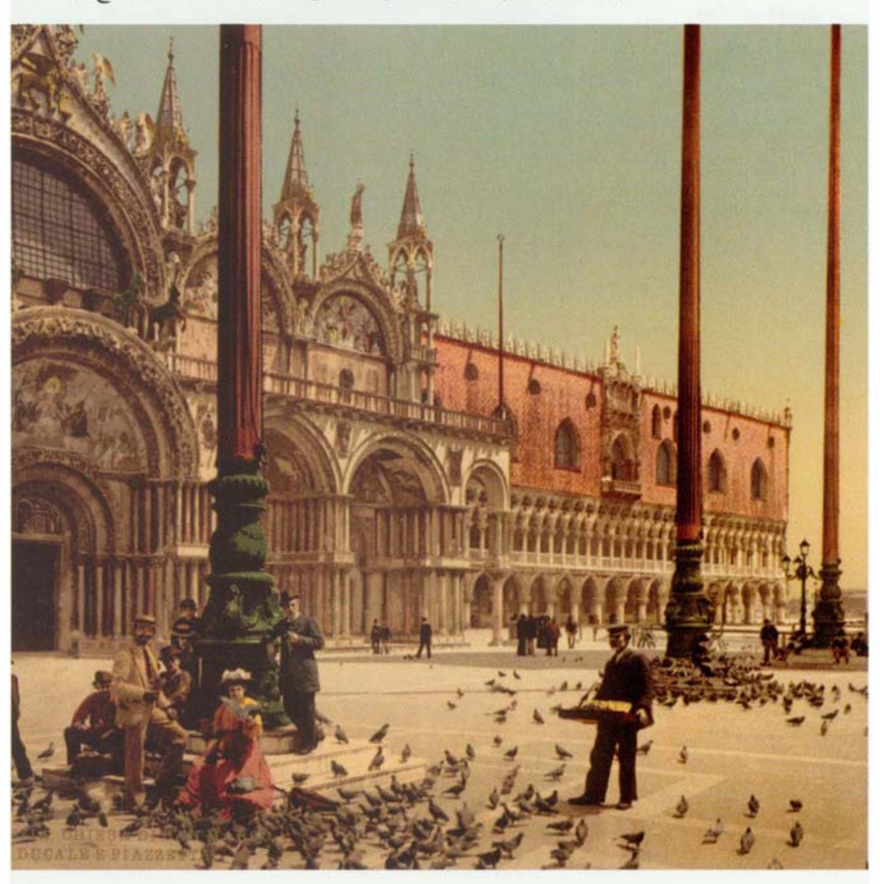
ربما كانت هناك صلاتٌ رمزية بين بداية الأسبوع المقدس والحاجة إلى التوبة. ويرمز تطيير اليمام إلى التوق إلى البراءة والطهارة والتسامح، والسعي إلى حضور الروح القدس عن طريق الشعائر والطقوس.

في إيطاليا يدعى الخبز الذي على شكل يمام، كولومبا ويؤكل في عيد الفصح. وقد بدأ إنتاج هذا الخبز في القرن الثاني عشر احتفاءً بانتصار جيش ميلانو على جيش الإمبراطور فردريك برباروسا.

(1) سبق التنويه إليها.

وبقيت النظرة إلى اليمام على أنه رمز للمقدس وبشير بأنباء طيبة أو أمل مفرح، ففي عام 1504 وخلال الرحلة البحرية الأولى لهرنان كورتيس إلى البحر الكاريبي، فترت همة البحارة وبدؤوا بعصيانٍ خطر. بعد ذلك وبحسب سجل كورتيس للرحلة: «جاءت يمامة تطير إلى السفين، وبما أنه كان يوم الجمعة الطيبة عند الغروب، أجلسوها في أعلى السفين، حيث هدأ الجميع وسكنت

حمام في ساحة دي سان ماركو، فينيسيا-إيطاليا.



نفوسهم. واعتبروا ذلك معجزة وأمارة خير..... وشكروا الله من كلّ قلوبهم، ووجهوا طريقهم إلى حيث طارت اليمامة».

كان اليمام من الحيوانات البارزة في البيسيتياريز في العصور الوسطى[1]. وفي الفيزيولوغوس[2] -مجهول المؤلف- وهو أحد أشهر الكتب وأكثرها انتشاراً في العصور الوسطى، أشبعت الحكايا الوثنية بالأخلاقيات المسيحية والتعاليم الصوفية. واحتلت هذه الحكايا دوراً كبيراً في العالم المسيحي؛ نظرًا للرمزية التي اتخذت لبوساً مسيحياً وأصبحت راسخة في فن الأيقونات[3] والمواعظ والشعر. لقد كتب مؤلف كتاب الفيزيولوغوس عن العفة والطهارة والإخلاص التي يتميز بها طائر القمرية معتبراً إياه مثالاً على حياة المسيحي:

«انتبهي يا كلّ أرواح المخلصين، كم من العفة في طير صغير. يا من تحملون شخص القمرية في مظهر الروح، اقتدوا بخيرها وإحسانها. هي القديسة الورعة التي لم تتخذ وليفاً آخر بعد أنْ رأته يُصلب[4] ويُبعث في اليوم الثالث ويصعد إلى السماء، بل اشتاقت إليه وانتظرته صابرة حباً وإخلاصاً حتى الممات».

في المقطع L والمعنون بـ «عن اليمام» يحل الكاتب شيفرة معنى اليمام صاحب الألوان المختلفة. فاليمام الأحمر يرمز إلى المسيح (الحمامة الحمراء)، وهو الذي يتسيّد الآخرين ويجمعهم في برجه. كما يكفر عن آثامه بدمه نتيجة لآلامه. ويدل اليمامُ الأسودُ على القانون الغامض الذي يحتاج إلى تفسير. وأما المُبَّقع فيدلُّ على تنوع الأنبياء الاثني عشر. وهناك اليمام الأزرق بلون السماء الذي يشير

---

(1) Bestiaries كتاب الحيوان يحتوي على صور وقصص عن حيوانات حقيقية وأخرى متخيلة.

(2) أو أقوال القديس غريغوريوس عن الطبائع المخلوقة، إعداد كميليو مقدسي، صدر عن دار قدمس للنشر والتوزيع 2002.

(3) الترميز في فن الرسم.

(4) الإشارة إلى يسوع المسيح.



إيوجين فون بلاس.

إطعام الحمام. 1877.

إلى إيليا الذي صعد بعربة إلى السماء. واليمام الشاحب الذي يذكر بيوحنا بثياب الخيش التي كان يرتديها والذي اكتسى رماداً تكفيراً وتوبة. ويرمز اليمام الذهبي إلى الشبان الثلاثة الذين تجرؤوا على تحدي الملك نبوخذ نصر (سفر دانيال 3:18). أما إيلياهو فله لون العسل. ويرمز اللون الأبيض إلى يوحنا المعمدان وتعميده، ويشير الفضي إلى ستيفن، الشهيد الأول.

وعد اليمام طيراً مقدساً في الإسلام. وهذا شيء غير عادي ذلك أنّ القرآن الكريم لا يأتي على ذكر الحمام أو اليمام. رغم ذلك، قابل

مئذنة أحد المساجد يقطنها الحمام في العراق.



المسلمون هذا الطير بالاحترام والتقدير. في حوالي عام 1915، كان هناك مزار للحمام يدعى «قبطر مزار Kaptar-Mazzar» قرب هوتان في شي جانغ[1] حيث يترجل المسلمون ويقتربون من المنطقة بكل احترام وتبجيل. وفي إستانبول هناك مسجد اليمام حيث تقبع أعشاش اليمام بسلام. وهناك كوى خاصة تُركت في الجدران لإتاحة مأوى لها. وورد في سيرة النبي محمد (ص) أنّ حمامة بنت عشًا ووضعت فيه بيضها أمام الغار (الكهف) الذي اختبأ فيه بصحبة

(1) تقع في تركستان الصينية.

رفيقه أبي بكر في أثناء هجرتهما، فرارًا من كفّار مكة، إلى المدينة، ولولا الحمامة التي بينت لملاحقي النبي محمد استحالة دخول أحد إلى الكهف، لتعرض النبي وصاحبه إلى الخطر.

كما أدّى اليمام دوراً مهماً عندما أسس عمرو بن العاص العاصمة المصرية، فعندما فتح ابن العاص مِصرَ بقي مع جيشه هناك عدة سنوات، لكن عدم اكتمال فتحه لها أُحبطه. أمر ابن العاص جيشه أن يتقدم باتجاه الشمال إلى الإسكندرية. ولما أراد التوجه (عمرو) لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه، أعني خيمته، فإذا به حمامة قد فرخت، فقال عمرو: «لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فأقرَّ كما هو، وأوصى به صاحب القصر»[1]. ومن ثم عيّن أحد الرجال ليضمن أن أحداً لن يؤذي الحمامة. ومع مرور الوقت تأسست مستوطنة في المكان نفسه، وباتت تعرف بالفسطاط (مدينة الخيمة)، تلك كانت بدايات القاهرة الحديثة.



جان –ليون جيروم «نساء من الحريم يطعمن الحمام في إحدى الساحات 1894. زيت على كنفا.

(1) وردت في كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي، الباب: بناء جامع عمرو بن العاص في مصر. الجزء الأول ص 26.

تعد الديانة الهندوسية الحمام رسولاً لياما إله الموت والحق. غضب شيفا وهو سيد ياما من بعض أتباعه من البشر، وحولهم إلى حمام ما يزال يتردد إلى معابد شيفا ومزاراته آملاً في العودة إلى آدميته.

يرى بعضهم أنّ الحمام في الثقافات الهندوسية طير مشؤوم. ربما يعود ذلك إلى اقترانه بالموت. وهناك تعويذات تُتلى لإبعاد المرض: «أيتها الآلهة، إذا كان الحمام قد بُعث رسولاً لنيريتي (ورد على أنه الإله المدمر) وجاء ليجدنا فها نحن نهبّ ننشد المدائح تبجيلاً ونقدم له فدية». اقترن الحمام بالموت لأنه رمز إلى التقمص. فهناك آلاف من الحمامات يُطعمن يومياً في المعابد الهندوسية. تتأكد أهمية الحمام في الديانة الهندوسية في بداية كتاب Gay-Neck: The Story of a Pigeon:

«كان لكل ولد هندوسي يأتي ثالثاً في ترتيب أبناء الأسرة، اثنا عشر طيراً أهلياً من حملة الرسائل، من الحمام البهلوان إلى ذيل المروحة Fantail انتهاءً بالبوتر[1]. ويعود فن تدجين الحمام إلى آلاف السنين في الهند التي ساهم فيها مربو الحمام بنوعين خاصين، ذيل المروحة والبوتر.

لقرون عديدة أغدق البشر على الحمام الكثير من الحب والرعاية. الأباطرة والأمراء والملكات في قصورهم الرخامية، والفقراء في بيوتهم المتواضعة. وأما أثرياء الهند فقد أحاطوه رعاية وحنوًّا في حدائقهم ومغاورهم وينابيع مياههم، وكذلك الأمر بالنسبة للناس العاديين في حدائقهم وبساتين أشجارهم المثمرة. ولكلٍّ منهم زينته وموسيقاه، وكان للعديد من الحمام الملون واليمام الأبيض الهدّال، عيون ياقوتية».

تطعم طائفة السيخ الهندية الحمام تكريماً لـ«غورو غوفيند سنغ»

---

(1) Pouter نوع من الحمام الأهلي ذو حويصلة كبيرة.

فتاة ووصيفاتها يراقبن الحمام (على الشرفة. تبعاً لأحد السجلات)، الهند، لون معتم على ورق 1840.

الكاهن الأعلى والمحارب الذي اشتهر صديقاً للحمائم. كما يعتقدون بأنهم لن يذوقوا مرارة الجوع في الحياة المقبلة إنْ هم أطعموا الحمام في حياتهم السابقة.

في غواجارات في الهند، كانت أبراج الحمام الجميلة تبنى وتعرف باسم تشابوتراس (من كلمة غواجاراتي للحمام). وهي أرصفة مرتفعة مغطاة بقبة أو سقف، أما الورود والنباتات فتزين المبنى. يُعتقد أنّ هذه الطيور تجسد أرواح الراحلين الذين يقبعون في

منزلة محترمة كبيرة. وفي عام 1921 وفي مدينة مومباي الهندية، تسبب قتل صبيين أوروبيين لزوج من اليمام في الشارع بإغلاق سوق الأوراق المالية وكاد يتحول الأمر إلى شغب.

وبين الأمريكيين من سكان البلاد الأصليين، مثّل اليمام أيضاً دورة التقمص، فقد عد هنود البيوبلو اليمام طائراً كريما مبجلاً. فقد كان ريشه يرتدى كما كان يستخدم لتزيين عكازات الصلاة (رغم أنّ هذا الاستخدام اعتمد على القبيلة). كما نُظر إلى اليمام على أنه يحمي الحياة، ذلك أنّ اعتقاداً ساد بأنّ أغنيته تشير إلى حيث يوجد الماء. كما كان ريشه يُرتدى على الأقنعة خلال الشعائر والطقوس التي كان يُتوسّل فيها المطر. وقيل إنّ صرخات اليمام هي دعوة للأمطار. ومن هنا فإنّ بعض أناشيد المطر التي للبيوبلو كانت تحاكي صرخات الحمام وتقلدها. هاكم إحدى تلك الأغنيات التي كانت تغنى عندما كان القمح يطحن:

«أيها اليمام، أيها الكاذب
ما تنفك تردد لعذارى القمح
بأنّ مياهًا هنا وهناك».

وهناك أيضاً أسطورة تشيروكي التي تتحدث عن مجاعة عظيمة عندما أُرسلت يمامة للعثور على ما يؤكل. (تردد هذه الحكاية صدى حكاية الطوفان). فحدث أنّ عادت اليمامة بأنباء عن بلاد غنية بالمحاصيل مما جعل الحيوانات تنتقل إلى الأرض الجديدة.

اعتقد بعضُ الأمريكيين من السكان المحليين أنَّ روح عاشق تسكن اليمام. أما من يؤذيه فملعون إلى أبد الآبدين وهالك لا محالة.

في منظمة «بلاك فوت إنديانز أوف مونتانا Blackfoot Indians of Montana» الاجتماعية، كان للطيور الصغيرة المرتبتان الأولى والثانية في جمعية «أول كومريدز All Comrades Society». وقد ضمت الجمعية أولاداً تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعاشرة

زينة للعينين فوق قبة معبد بوندوناناث (البوذي) العظيم. كاتاماندو-(نيبال).

والعشرين، بالإضافة إلى حمام يملكه رجال ذهبوا إلى الحرب عدة مرات.

وفي آسيا يلعب اليمام دوراً مهمًّا؛ ففي الصين يمثل اليمام الحياة المديدة والإخلاص والربيع. وفي اليابان كان اليمام مقدساً عند هاشمان إله الحرب. وهنا نلقى مفارقة أخرى، فاليمام مقدس عند إله الحرب، رغم ذلك فهو يرمز إلى السلام حتى إنْ صُوِّر بسيف، لأنّ ذلك يمثل نهاية الحرب. إنَّ تمعنّا في حكاية البطل الأسطوري يوريموتو، سوف نفهم هذه المفارقة على نحوٍ أفضل. فعندما كان يوريموتو مطارداً من قبل أعدائه، لجأ إلى شجرة مجوفة. وعندما مرَّ جنودُ العدو طارت يمامتان مما جعلهم يعتقدون بأنّه ليس هناك من أحد في الشجرة. وأصبح يوريموتو قائداً عسكرياً كبيراً. وأعلن أنّ الطيور أنقذته، ومذاك باتت تجلب الحظ السعيد.

وحتى في فن الخيمياء، كان اليمام والحمام على جانب كبير من الأهمية، فمن المعروف أنه كان يمثل التصعيد والتسامي. وأحيانا كان يُنظر إلى ريش اليمام على أنه إحدى أدوات الإلهة ديانا. وزرق اليمام مهم أيضاً، ذلك أنّ بارسيلوس زعم أنه إن دفن المرء الذهب



رسم بالألوان على قطعة من خشب من سلسلة سانجوروكو كورابي (مقارنة الحسناوات السادسة والثلاثين) من اليابان القرن التاسع عشر.

في زرق الحمام، يتزايد. وفي الاكتشافات الخيميائية تميل الطيور إلى أنْ تبرز أكثر من الوحوش بما أنّ ظهور الأرواح أو ارتفاع الأبخرة تحت الحرارة يُرمز إليها بتحليق الطيور في الغالب».

كما يؤدي الحمام دوراً في الفولكلور، فهناك خرافة تقول إنْ طار اليمام في غرفة مريض أو اصطدم بنافذة، أو دار حول المنزل، فإنّ الموت قادم إلى قاطنيه. وثمة خرافة أخرى تعنى باستخدام ريش اليمام كفراشٍ للنوم.

ومن الواضح أنّ هذا كان يعتبر من سوء حظ الشخص الذي

يستخدم هذا الفراش، والذي يعتقد بأنه سيموت ميتة مؤلمة.

في كتابه 2-The History of Myddle 1701 يسجل ريتشارد غوغ نبوءةً ترافقُ ملاّك مزرعة كايهول في شرفوشير. تقول النبوءة: «إنّ حمامتين ستزوران المزرعة وتمكثان هناك من سبعة أيام إلى أربعة عشر يوماً قبل موت الشخص. ومن ثم سترحلان على الفور. لاحظ غوغ بنفسه هذا مرات ثلاث، واعتقد بأنهما الحمامتان نفسهما. ويكمن جانب من الإثارة، في ظهور الحمامتين عندما تُترك المزرعة إلى المستأجر قبل أنْ يموت. وفي ملاحظة أكثر تفاؤلاً يقول غوغ: «إنْ كان أحدهم مريضاً في المزرعة، ولم يظهر الحمام، فهذا يعني أنّ الشخص سوف يتعافى».

تقول خرافة أخرى إنّ شوهد الحمام قرب ممر أحد المناجم فلسوف يقع حادث في المنجم. يبدو هذا وكأنه يعاكس ترميز الحمام للحب والسلام، لكنه لاحظ اقتران اليمام بالموت. إنّ ظهور يمامة ترفرف قرب فم حفرة فحم في عام 1902 كان كافياً للتسبب في رفض ثلاثمئة رجل العمل هناك:

«كان الرجال يتهامسون، بمخاوفهم فيما بينهم، لوقت مضى. لكنّ العمل العنيف يوم الاثنين كان حصيلة نذر شر قيل إنّها سُمعت في المنجم...... هناك بالطبع الحكاية المعتادة ليمامة ترفرف فوق فتحة النفق».

انتشرت شائعات عن يمامة شوهدتَ قبل انفجارات لانبراداخ[1] ومورفا كوليري[2] وسنغينيد[3].

اقترنت بعض الطيور بقدرتها على تغيير الأحوال الجوية، فقد وعد الحمام بأنّ جواً أفضل سيحلّ قريباً.

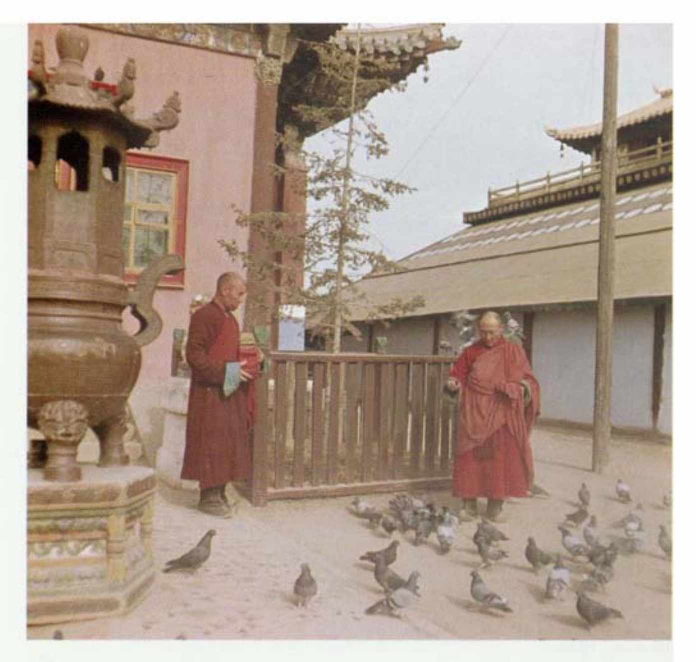
في كتاب «تاريخ... دورهام» لسورتي (1816 -40) يكتب عن

(1) قرية ويلزية بالغة الصغر.

(2) اشتهرت بكارثة وقعت في أحد مناجم الفحم.

(3) مدينة في ويلز حلت بها كارثة في أحد مناجم الفحم.

رهبان بوذيون يطعمون الحمام الذي يعيش حول معبدهم، منغوليا.



قرية ستوبكروس:

«وهاكم ستوبكروس تحكي»: «على بعد حقول عن الجنوب يقف برج حمام مدمر يظلله رماد تائه منتشر، ويسكنه صغار حمام الغابات Wood Pigeon. هنا قتلت فتاة فقيرة مسكينة نفسها من أجل الحب بالمعنى الريفي للكلمة، وفي المكان الذي كانت تلتقي فيه حبيبها الخائن. وأما روحها فما تزال ترفرف فوق البرج. أما مشهد رغباتها وعواطفها الدنيوية وأحزانها فهي على شكل يمامة بيضاء كالحليب تتميز عن رفيقاتها بثلاث بقع قرمزية على صدرها».

وقد أخبر مزارع عجوز سورتي بأنه رأى هذه اليمامة عشرين مرة وعندما ظهرت أعلنت عن أنباء طيبة تتصل بحال الطقس وعن موسم حصادٍ وفير.

الحمام واليمام يجسدان الحب سيما عندما يكون هناك طيّران مع بعضهما بعضاً:

«امض واحفر لي قبري رحباً وعميقاً

وضع عند قدميّ قطعة رخام،

وعلى كفني يمامة بيضاء كالثلج

لتقول للعالم إني مت من الحب.

ونُظر إلى الحمام، في أصقاع من أوروبا، بوصفه طريقة لمعرفة الفتاة التي ستتزوج قريباً. فإنْ تقدمت الفتاة تسع خطوات إلى الأمام، ومن ثمَّ تراجعت إلى الوراء تسعاً أخرى، في الوقت الذي يسمع فيه هديل أول يمامات الربيع، فستجد شعرة من الشخص الذي عزم على الزواج منها، في حذائها.

وقد نُسب إلى الحمام واليمام أيضاً بأنه يُدخِل الرغبة في قلوب البشر، فإنْ أضمر المرء أمنية بعد أنْ يشاهد أول يمامة في ذلك العام، فلسوف تتحقق أمنيته.

امتد دورُ الحمام المهم في الدين والشعائر والثقافة لقرون خلت، وأدّى دوره في أساطير الخلق والخرافات والفلكلور: من جسده الذي ضُحي به إلى اتخاذه لبوس الرمز الديني. وما تزال العديد من الثقافات بما فيها المجتمعات الغربية، تقرن اليمام بالأنثى إما كرمز للأمومة أو كتجسيد للبريء والطاهر. ويبدو من الغريب حقاً أنّ هذه الإسهامات تقترن غالباً مع «اليمام» وليس مع «الحمام». وفي الوقت الذي يمكن أنْ يدبّ فيه خلاف شديد في الآراء التي تتصل ببعض الممارسات أو المعتقدات التي أوردناها في هذا الفصل، فإنّ العديد من البشر يتفقون على أنّ الحمام بات رمزاً كونياً للسلام، بعد أنْ أدّى هذا الدور لقرونٍ مضت، وقبل أنْ يصبح أضحية تشبع نهم الآلهة. ومن خلال رغبته ليجد يابسة لفلكٍ هالك، كان سكانه يبحثون عن بداية جديدة.

3 - علاقة غير مريحة: طبّ ولحم ورسل

الطب

ساد اعتقاد بأنّ الحمام يمتلك خصائص تشفي من الأمراض. فقد تراوح استخدامه لأغراضٍ علاجية، من استثمار لحومه كمصدرٍ جيد للغذاء، إلى توظيفه على نحوٍ كبير في الفلكلور والخرافات. وكتب بليني الأكبر في الحقب الرومانية، بأنَّ تناول دمِ الحمام وسيلة لعلاج احتقان العين. كما عُدَّ تناول لحم الحمام شكلاً من الوقاية ضد وباء الطاعون وأمراض أخرى شبيهة، فمن النادر أنْ تتمكن الأمراض القاتلة من أولئك الذين يجعلون من الحمام طعاماً منتظماً لهم». أما زغاليله فقد كانت الخيار الممتاز للمعتلين بالأمراض، وأولئك الذين في حال من النقاهة ويتعافون. كانت تلك الطيورُ صغيرة وذات قيمة غذائية عالية، ومن السهل هضمها. نصح بفوائد زغاليل الحمام وميزاتها في القرن الثامن عشر: «الزغاليل مغذية وضرورية وتدر البول. كما اعتبرت مفيدة تنظف الكلى وتتخلص من الفضلات التي تلتصق بها».

كانت الحمامات الحية تقطع في وسطها وتوضع على الرأس أو على أخمص القدمين. فوضعها على الرأس يعدّل من المزاج العنيف، كما أنّها تطرد الكآبة والحزن. وقد وصف علاج شبيه لكاثرين ملكة براغانزا وزوجة تشارلز الثاني، إذ كتب صاموئيل بيبيز في يوميات الدخول إلى المستشفى في التاسع عشر من شهر تشرين الأول من عام 1663: «بدا بأنها مريضة جداً، ولا يمكنها أنْ تحتمل زرق الحمام لنزع الشعر عن قدميها بغية علاجها[1]. وعندما سقط الشاعر الإنجليزي جون دون John Donne فريسة مرض خطير، تلقى العلاج ذاته «بغية سحب الأبخرة من رأسه» كان زرق الحمام يُجفف ويُنخّل لصنع الكمّادات منه، وقيل إنه يشفي من الصلع والنقرس،

(1) استخدم زرق الحمام لإزالة شعر الجسد.

استخدام الحمام الحامل للرسائل للمساعدة في فك الحصار عن باريس 1870-71.

بالإضافة إلى كونه يُبتلع كأقراص الدواء، أو أنه يستخدم كمسهل. وشاع اعتقاد أيضاً بأنّ الطيور تمنع الموت بسبب عضة أفعى، إذ يوضع شرج الحمامة على الجرح، مما يعني أنّ الدبق[1] يبطل مفعول السم. كان الحمام المسافر يُذبح وتباع قانصته[2] وأمعاؤه

(1) Birdlime أو Lime مادة لزجة توضع على الأشجار لتلتصق بالطيور وبالتالي لاصطيادها. قصد هنا أنّ هذه المادة تلتصق بشرج الحمامة ومن هنا جاءت فكرة وضع الشرج الذي تملأه هذه المادة لإيقاف سم الأفعى.

(2) معدة الطير الثانية.

ودماؤه وزرقه كعلاجات طبية، وللعديد من الحالات بما فيها مرض الحصى والزحار والصرع والمغص والحمى.

لو كان الحمام قد عُدَّ من الطيور الضارة بحق، فهل كان البشر سيخاطرون بحيواتهم باستخدامه لعلاج أمراضهم؟ وهل سيكفُّ البشر عن التعامل عليه حين تنعدم إمكانية الاستشفاء به؟ وهل نفعل ذلك في أيامنا هذه؟ وبالرغم من عدم وجود الحمام بوصفه أحد المكونات التي تدخل في تركيب الأدوية الموجودة في الصيدليات في الغرب، فمن الممكن أنّ القنب الهندي[1] جاء إلينا عبره، فقد لوحظ بأنّ الحمام يهضم بذور القنب الهندي وتم تسجيل استجاباته لهذه المادة. ربما هذا ما جعل من سمية القنب الهندي تستخدم كدواء للبشر.

أدّى الحمام مؤخراً دوراً مهماً في العناية بالصحة، لكن ليس بوصفه أحد العقاقير. فقد استفاد قسم أمراض الدم في مستشفى فريدوم فيلدز في بلايموث، ديفون، من الحمام لتوفير النقود وضمان وصول عينات الدم على نحو سريع. ففي أواخر عقد السبعينيات من القرن المنصرم أدرك هذا القسم الذي كان يوفر خدمات لعشرين مستشفى في المنطقة، أن إرسال عينات من الدم كانت تكلفهم ما يقارب 40000 دولار أمريكي في كل عام إن أرسلت في سيارات الأجرة أو في وسائل نقل أخرى من المناطق البعيدة إلى المخبر المركزي من أجل فحصها. لاحظ القسم بأن هناك عدداً كبيراً من الحمام الأيّاب في المنطقة، ما دفعه إلى أن يجرب ذلك النوع من الحمام بإرساله مع مجموعات من عينات الدم. ابتكرت جمعية ديفون أورثوباديك، جريبات (أكياس) ناقلة خاصة صنُعت من جلد الشاموا الطري. وضعت التجربة الأولى موضع التنفيذ في الخامس من أيار في عام 1977 حين طُيّرت ست حمامات من المستشفى العام في غرين بانك

(1) نبات ذو تأثير مخدر يعرف في مصر بالبانغو.

مع عينات من الدماء وضعت في الجريبات (الأكياس) التي حملتها الحمامات. استغرقت الرحلة سبع دقائق. وأثبتت التجربة نجاحها وجهزت عليّة (سقيفة) بجوار قسم أمراض الدم مع عدد من صفار الحمام. قالت التقديرات إنه وخلال العام الأول من هذه العملية تم توفير مبلغ42000 دولار أمريكي.

ليس هذا هو المثال الوحيد على استخدام الحمام الأيّاب لأغراضٍ طبية. ففي ريف بنسلفانيا وحيث يندر وجود أجهزة الهاتف هناك (بسبب وجود أعداد كبيرة من الأميش[1] والمينونايت)[2] بنى أحد الأطباء المحليين عليّة (سقيفة) ومن ثم ترك حمامة أيّابة في عدد من المزارع. خلال العام الأول من هذه التجربة أوَت أعداداً كبيرة من الحمام إلى أربعين مزرعة. وكان ثمة قائمة انتظار لعدد من البيوت التي أرادت أحد تلك الطيور فور ولادتها ليتم تدريبها بعد ذلك. كانت رسائل السكان تصل إلى الطبيب عبر ذلك الحمام.

ومنذ عهد قريب ارتبط الحمام الأيّاب بعقاقير ممنوعة. فقد اعتقلت الشرطة البوسنية حمامة بعد أنْ اكتشفت أنّ السجناء كانوا يستخدمونها لتهريب المخدرات إلى واحد من أكثر السجون أماناً في البلاد. فقد اشتبه حينذاك أنّ الهيروين كان يعبأ بأكياسٍ صغيرة تربط إلى ساقي الحمامة.

لحم يؤكل

ظل لحم الحمام مصدراً غذائياً لبني البشر ولقرون عديدة. فقد كان يُمسك به أثناء طيرانه، أو تطلق عليه النار أو يربى في أبراج الحمام. وكان تدجين الحمام يعني مؤونة من اللحوم سواء للاستهلاك أو للأضحيات.

(1) Amish جماعة مسيحية بروتستانتية تقطن الولايات المتحدة الأمريكية ترفض نمط الحياة المعاصرة وتصر على الالتزام بمبادئ الإنجيل.

(2) Mennonite طائفة من المسيحيين البروتستانت تؤكد مبدأ العمادة والنزعة السلمية كما ترفض التنظيمات الكنسية.



صيد الحمام بالبنادق 1832
إتشينغ لون باليد
ورق مائي، لندن
نشرها روبرت
بولارد.

يجد المرء على العديد من الرسومات الجدارية في مصر، وعلى المجسمات المزينة صوراً لحمام يقدم كطعام للموتى. كما عثر على عظام حمام في بقايا وجبة طعام جنائزية في ضريح نُقِّب فيه ويعود إلى 3000 عام قبل الميلاد. وفي العصور القديمة كانت صغار الحمام مصدراً غذائياً أثيراً عند كثير من الشعوب. وخلال العصور الرومانية، وصف كاتو الأكبر وبليني وجوفينال في كتاباتهم تربية الحمام لتقديمه على موائد الطعام ببعض التفصيل. كما فرض الإمبراطور أوغست ضرائبَ ومكوساً على أبراج الحمام. وذكر الحمام أيضاً ضمن كتب فن الطبخ التي وضعها الروماني أبيكيوس في كتبه في القرن الأول للميلاد واعتبره أحد المواد الرئيسة. كما تحدّث عن مرق يقدم مع زغاليل الحمام المشوية أو المسلوقة.

إنّ تربية الحمام لتقديمه على موائد الطعام (أو بغية الحصول على زرقه، كما كانت هي الحال عند المسلمين) تقتضي توفير السكنى له. إنّ أبراج الحمام، في الغالب، مبانٍ على جانب كبير من الروعة المعمارية. لربما كان ذلك يبهج المرء من منظور علم الجمال مع إيحاءات رومانسية (يحوّل هديل الحمام أفكار المرء نحو الحب



يمام يرد الماء ويشرب. موزاييك على غرار لوحة سوسوس لبيرغامون. القرن الأول قبل الميلاد من House viii.2.34 بومبي.

والاستقرار مع حبيب)، لكن في الواقع ما الأبراج إلا لتجميع أسراب الحمام على هيئة حظيرة تصلح لحيواناتٍ أكبر.

في الشرق الأوسط، شُكّلت أول أبراج للحمام من قدور الصلصال التي كانت تُلصق بعضها ببعض، وتوضع في مناطق تجمع الحمام. وفي مناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط كانت تعلق تلك القدور على الجدران الخارجية لأماكن السكنى.

وفي العالم الكلاسيكي القديم استعار الكتاب الرومان المفردات الإغريقية «بيريستيريون Peristerion» وبيريستيروتروفيون peristeritrophion (برج الحمام) وأضافوا كولومباريوم Columbarium كمفردة جديدة يصفون بها برج الحمام. وكتب فارّو في كتابه De rerum rusticarum عن نوع السكنى هذا:

«يبنى البيريستيريون على شكل قفص (قوقعة) ضخم مع سقف مُقنطر، فيه مدخل ضيق ونوافذ شبكية على الطراز القرطاجي أو على نحو أعرض، كسيت بشبكة بطبقتين لتوفير الإضاءة الجيدة للمكان بأكمله ولمنع الأفاعي والحيوانات المؤذية الأخرى من الدخول.

يمضي فارّو قدماً ليذكر أنّ الأبراج كانت توجد في روما وفلورنسا وفي الريف أيضاً. كما كان الحمام يربى في الأبراج الصغيرة أو أنه يُؤوى في أطراف جملونات[1] المنازل.

وفي بعض مناطق من إيران ما تزال هناك أبراج أنيقة وضخمة تعود إلى القرن السابع عشر باقية حتى الآن، بما أنّ حاكم البلاد آنذاك هو من بناها. ويبلغ ارتفاع بعضها أكثر من 21 متراً (70 قدماً) في الطول وتأوي أكثر من 10000 حمامة.

كتب عالم الطبيعيات جورج لوي ليكلير، كونت بوفون في القرن الثامن عشر عن أبراج الحمام وقاطنيها:

«لحثّ الحمام على الاستقرار علينا أنْ نشيّد له مبنى شاهقاً من دون أنْ نغطيه على نحو جيد، ونجهزه بعددٍ كبير من الغرف الصغيرة. فالحمام ليس حيواناً أليفاً شأن الكلاب والجياد أو سجيناً كالدجاج، بل هو رهينة باختياره. وهو ضيف عابر يبقى في سكناه الذي خصص له فقط لأنه يحبه. كما أنّ وفرة الطعام ووسائل الراحة والترف في الحياة بهجة له.

وفي أصقاع كثيرة من أوروبا بات امتلاك برج حمام وتربية الطيور بغية الاستفادة من لحومها على موائد الطعام، مؤشراً على الطبقة الاجتماعية. فقد كان الحمام ومنذ زمن بعيد من أطايب الطعام في إنجلترا للطبقات الإنجليزية من ملاك الأرض. وهناك سُنّت قوانين تحظر على الناس تربية الحمام باستثناء طبقة النبلاء. ولم يكن الحمام يُطعم في إنجلترا إلا قليلاً في الحقبة الإقطاعية. بدلاً من

---

(1) وهو الجزء الأعلى مثلث الزوايا من الجدار الذي يكتنفه سطحان منحدران.

ذلك كان يُشجّع على أنْ يتغذى على محاصيل مستأجري الأرض من الفلاحين الذين كانوا يرضخون:

«ربما جعل بعض الناس من امتلاك النبيل بيت حمام قضية ضمير، ذلك أنّ حمامه يأكل قمح قومه وأهله. لكن ليس هناك ما يسمى ضميراً في العمل والأشغال. فالقضية تكمن فيما إذا كان رجلاً من تلك الطبقة التي تبيح لها الدولة امتلاك بيت لليمام، وإنْ كان الأمر كذلك، فلحمامه الحق أنْ يأكل حيث يرغب.

وحسب التقديرا فإنّ ألف زوج من الحمام يستطيع أنْ يستهلك 200 طن من الحبوب في كل عام. إنْ أخذنا بالاعتبار الغضب الناجم عن خسارة الحبوب، بالإضافة إلى عدم دفع تعويضات قانونية إلى من يستأجر الأرض، عندها يمكن أنْ نفهم بأنّ الأمزجة ستشتد حدة وستحفر المرارة عميقاً في النفوس. في بدايات العصور الوسطى، كانت أبراج الحمام تبنى في بعض الأحيان على أرض مشاع أو يباب للتخفيف من الأضرار التي يمكن أنْ تنزل بالأرض المحروثة. بينما كان النقيض في فرنسا واسكتلندا «حيث رسمت القوانين وجوب بناء التجهيزات على نحوٍ جيد في أرض المالك في محاولة للحد من الأضرار التي تحدثها الطيور لمحاصيله».

وفي فرنسا أيضاً اقتصرت ملكية أبراج الحمام أو ما يسمى «بيجيونير Pigeonniers» على النبالة (طبقة النبلاء). على أي حال غيرت الثورة الفرنسية من مسيرة مُلكية أبراج الحمام إلى الأبد. لقد أدى ارتباط أبراج الحمام مع النبالة إلى قطع الروابط بينهما في الرابع عشر من تموز من عام 1789 أي في يوم انطلاقة الثورة الفرنسية.

قالت كلمات مسودة إعلان حقوق الإنسان بإلغاء أبراج الحمام في فرنسا. وفيما بعد، اقتُرح تدمير جميع أبراج الحمام الموجودة، لكن وفي تدخل تم في اللحظة الأخيرة تمّ تعديل القرار في السادس

من آب وفيه نقرأ:

«يلغى كل حق حصري بامتلاك برج حمام. وسيبقى الحمام ضمن الأبراج لفترات يحددها السكان المحليون، وخلال هذه الفترات ستعتبر أي حمامة تطير هدفاً مشروعاً للصيد، وللكل الحق في اصطيادها.

وفي بلدان أخرى كانت ثمة قوانين صارمة فيما يتصل بهذا الموضوع. ففي اسكتلندا كان الأبوان يُغرَّمان بثلاثة عشر شلناً وأربعة بنسات إنْ دخل أطفالهما برج حمام، هذا بالإضافة إلى تعرّض الأطفال إلى السياط. أما من يكتشف بأنه يصطاد الحمام فسيواجه حكماً بالسجن لأربعين يوماً. وعندما ارتقى جيمس السادس ملك اسكتلندا إلى عرش إنجلترا، طُبِّقت قوانين صارمة في المملكة الإنجليزية. فخلال السنة الأولى من حكمه سُنَّ قانون جديد أقرّ بسجن كل من تسوّل له نفسه أنْ يقتل حمامة ثلاثة شهور ما لم يدفع عشرين شلناً غرامة عن كل طير يقتل، إلى كبير أبرشية المنطقة».

وسابقاً على تطور محاصيل الشتاء التي تتحمل الطقس البارد والتي تسمح بتربية القطيع على مدار العام، فإنّ الحمام الذي يضع زغلولين من ثمان إلى عشرة مرات في العام ولمدة سبع سنوات، كان يشكل مصدراً منتظماً من الغذاء يعول عليه. وكانت أكلاف العناية بالحمام منخفضة ويعود ذلك إلى غريزة العودة إلى دياره على نحوٍ فطري. فهو يؤوب إلى عشه كل مساء. وبتوقيت يتناغم مع تربيته. كان شهر كانون الثاني مخصصاً لرعاية اليمام:

«أطعم اليمام ولا تقتله
وإنْ أنت خسرته فلن تفلح
وأصلح له سكناه
واحفر له حفرة جيدة
فالأرض باردة

وزرقه يساوي ذهباً».

عاش الحمام متناغماً متآلفاً في منطقة محصورة ضمن مجتمع راسخ. وأما سرب منه يُغذى على نحو جيد فيميل إلى البقاء والتمسك بمكانه. لم تكن الأذيات التي تنصبُّ عليه كبيرة، ما خلا ممارسة اعتاد عليها الرومان تجسدت في إطعام الزغاليل قسراً. وأحيانا كان يتم تسريع فترة التسمين تلك من خلال كسر الساقين للحدّ من حركته لإبقائه في العش.

ورُبيّت في أوروبا أنواعٌ مختلفة من الحمام من أجل تناول لحومها. ففي إسبانيا وإيطاليا كان حمام «رنت Runt» أضخم أنواع الحمام المنزلي. أما الفرنسيون فقد كانوا تواقين إلى طائر أضخم لذا أُنْجِبَ حمام موندين Mondaine الذي أصبح الأثير عند الهولنديين والفلمنكيين.

وفي إنجلترا كان حمام «سباتشكوكد»[1] وصفة طعام قديمة. فقد كان يتم اختيار صغار الحمام وهي في عمر أربعة أسابيع و«تُقتل» سريعاً ومن ثم تُطهى عندما يتم التخلص من الكبار.

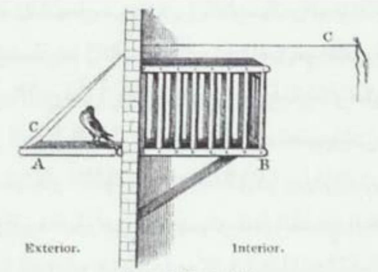
لم يؤت على ذكر أبراج الحمام في السجلات العقارية[2] لعام 1086. لذا قيل: إنّ النورمنديين هم من جاؤوا بتدجين الحمام إلى إنجلترا. وهم من جلبوا معهم الحق الإقطاعي الذي يتجلى في امتلاك أبراج حمام. فقد كان للعديد من الكنائس القروسطية أبراج حمام أو «حفر حمام Pigeon holes» ضمن أسوارها التي كانت تُعدُّ من ملكية الكنيسة. كما كانت الأديرة والأبرشيات تملكها أيضاً وكانت أصولاً تجارية ثمينة. وقد وفرت أبراج أماكن العبادة الكبيرة تلك، لرجال الكنيسة الإقطاعيين لحوم الحمام. إذ كانت بعض طوائفهم

---

(1) Spatchcocked تتألف الكلمة من مقطعين الأول spatch وتعني يقتل والثانية cooked وتعني مطهو. وهنا بات اسمه المطهو الذي قتل.

(2) Doomsday Book وهو السجّل الذي ذكرت فيه جميع الأراضي والملكيات في إنجلترا القروسطية.

فخ لسقيفة حمام من كتاب إي. إس. ديكسون The Dovecote and The Aviary (لندن 1851).



Trap of Pigeon-loft.

A, the door of the trap (outside the building).
B, the inner end of the trap where the swinging doors hang.
C C, the string used to pull up the outer door of the trap.

Trap of Pigeon-loft.
Interior showing the loose bars called "the bolt.

B, the little swinging doors on the inner end.
C. the string which pulls up the outer door.

تمتنع عن تناول لحوم الحيوانات التي كانت تدبّ على أربع، في الوقت الذي سمحت فيه بتناول كل أنواع الطيور الداجنة.

وعندما شاع استخدام الحمام، تزايدت أعداد أبراجه في أرجاء أوروبا باستثناء البلدان الاسكندينافية وسويسرا. يعود ذلك ربما إلى النقص في الأراضي ذات المساحات الكبيرة الصالحة للزراعة. كما نجد تشكيلة عريضة من تصاميم أبراج الحمام في بلدان مختلفة وحتى ضمن مناطق البلد الواحد. ففي الهند كانت تحفر للحمام آبارٌ بفتحاتٍ ضيقة بحجم عنق زجاجة في الأرض وتملأ بها. ربما كان السبب في ذلك هو حماية الحمام من الشمس. وما تزال هذه

الطريقة متّبعة في أنحاء من الشرق الأوسط والجزائر.

وتعكس التصاميم المعمارية لأبراج الحمام التغيرات في أساليب البناء والتطور الذي طرأ على تربية الحيوانات. وحتى بعض الطرز القديمة شأن البرج الدائري فقد حملت تحسينات في التصاميم الداخلية مثل ابتكار المقوّي Potenceوهو جهاز متدرج يمكّن من جمع البيض والزغاليل من كل مستويات القسم الخارجي المقوس من البرج. وأما الجدار المقوس فهو لمنع القطط والجرذان وحيوانات أخرى من الدخول إلى المبنى.

وتزدهر الخرافاتُ فيما يتصل بحماية الحمام من الغزاة شأن الجرذان والقطط وحيوانات ابن عرس، والسناجب، وابن مقرض[1]، والبوم وطيور أخرى. وجنباً إلى جنب مع الطرائق التقليدية شأن الكلاب المقيّدة التي توضع خارج الأبراج للحراسة، أو إحاطة المبنى بنباتات الجولق (الأزاليا) الشوكية أو أجمات الورود البرية[2]. وفي بعض الأحيان كانت توضع تعويذات أو رقى سحرية ضمن مبنى البرج. ولكي يصدّ المرء حيوان ابن عرس، كان يتعيّن عليه تعليق ساق أو ذئب أو رأس أيل رأساً على عقب.

وثمة ممارسة أخرى شاعت في أرجاء مصر وصفها بليني ونُصح بها في إنجلترا في القرن السادس عشر، تجسّدت في دفن عاسوق[3]، حيّ أو محنّط، في جرارٍ مصنوعة من الطين المشوي.

ومن ثَمَّ كانت تلك الجرارُ تُدفن تحت أبراج الحمام أو أنها تعلق في جدرانها الداخلية. قيل إنّ هذه الممارسة نشأت في مصر القديمة عندما كان يُضحّى بالصقور لحورس إله الصقور. وربما كانت تلك الجرار توضع في الأبراج توسلاً لحمايتها من الصقور أو كتعويذة أو رقية لإبعادهم.

---

(1) Ferret حيوان يتصيد القوارض.

(2) ورد له أغصان شائكة.

(3) نوع من أنواع الصقور.

لقد وفر الاستقرار في مناطق جديدة فرصاً لجلب حيوانات بما فيها الحمام إلى الحدود الجديدة. فقد كان لكريستوف كولومبوس (اسم عائلته في اللاتينية «كولومبا» ويعني «يمام») دورٌ في استقدام الحمام المدجّن بوصفه مصدراً للغذاء. عندما عاد كولومبس إلى البحر الكاريبي في عام 1493 أخذ هو و1500 مستعمر آخر طيوراً زراعية ويمامات روك[1] في قفص. كما أتى المستعمرون الأوائل معهم بالحمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع دجاج وحيوانات داجنة أخرى. وفي عام 1795 كتب الجنرال غرين أنّ مزرعته «ملبري» الواقعة بالقرب من السافانا – جيورجيا كان فيها بيت للحمام يتسع لألف طير.

وقد تأخر تطور إنتاج الزغاليل لأغراض تجارية وصناعية في الولايات المتحدة الأمريكية؛ بسبب وفرة طيور البرية.

ولم يتحول الأمر إلى مشروع تجاري حتى القرن التاسع عشر. ففي عام 1901 نشر إلمر سي رايس كتابه Manual on the Breeding of Squabs by the Robinson Method. وفي عام 1902 ضمت مزرعة جونسون للحمام (تقع خارج لوس أنجلوس) آلاف الطيور. وبحلول عام 1907 كانت هناك المئات من الأبراج التي شيدت لأغراضٍ تجارية في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية. أما السلالات التي استخدمت في الأيام الأولى فكانت تحتوي على الحمام الأيّاب وحمام أنتويرب Antwerp والدراغون[2] والدوقة[3]. وفيما بعد بدأ ذواقة الطعام يقبلون على زغاليل أكبر وبهذا تطورت سلالات الوايت كينغ[4] والأيّاب العملاق Giant Homer والموندين Mondaine بالإضافة إلى استيراد أنواع أكبر شأن كارنو Carneau من فرنسا وبلجيكا.

---

(1) سبق ذكرها.

(2) Dragoon التنين.

(3) Duchess الدوقة.

(4) White King الملك الأبيض.

الغلة

كانت الغلّة الأبرز من الحمام ريشه الخارجي وريشاته الناعمة التي تقبع تحت الريشات الخارجية، والتي كانت تستخدم في صنع الوسادات واللحافات. أما المنتج الآخر فقد كان زرقه. ورغم أنه كان يستخدم كمادة أولية في الدواء، بدا وكأن قيمته كمخصّب للأرض أكبر. وعبر التاريخ كان زرق الحمام بضاعة قيمة. ونتيجة للمجاعة خلال الحصار الذي فرض على السامرة ذكر في العهد القديم: «وربع القاب من زبل الحمام بخمس من الفضة» (سفر الملوك الثاني



برج حمام في ريف أمريكا.

25:6). والقاب يساوي 2 كوارت[1] لذا كانت هذه المخلفات على جانب كبير من القيمة. في مصر ظل زرق الحمام يُجمع لقرون كشكل من أشكال المخصبات خصوصاً لزراعة البطيخ.

وبنيت أبراج حمام خصيصاً لهذه الغاية. ودرجت العادة على وضع حصير كبيرة مصنوعة من سعف النخيل عبر العوارض تحت المدفن لتُجمع فيها مخلفات الحمام ومن ثم تباع في الأسواق المحلية.

في عام 1651 زعم صموئيل هارتليب وهو صديق للشاعر الإنجليزي جون ملتون John Milton أنّ حمولة من زرق الحمام كانت تساوي عشرة حمولات من روث آخر، ولذلك كانت تنثر على القمح الذي يقبع هناك رغم أنه لم يكن من السهولة بمكان الحصول عليه. ويضيف هارتليب أنه كان جيداً للحدائق أيضاً.

لقد امتدح جون مور[2] زرق الحمام أيضاً نسب فيها «طبيعته الحارة» إلى «ميزة نتروجينية حيث يوجد». ومضى ليدعوه «بالتربة الممتازة لأرضٍ رطبة باردة طبيعية.» إنه ينثر مع الحبوب ويعزق معها.

في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، ثُمِّن زرق الحمام كثيراً كمخصب لكروم العنب ومحصول القنب. كما استخدمه الدباغون لفترة من الوقت لصناعة الجلود الطرية.

من الواضح أنّ هذه المخلفات ساعدت في عملية إزالة الشعر عن الجلد.

وقد استُعمل زرق الحمام، في نهاية القرن السادس عشر، في إنجلترا كمصدر مهم لنترات البوتاسيوم التي استخدمت في تصنيع المسحوق المتفجر للبنادق. ففي عام 1627سمح تشارلز الأول بجمع زرق الحمام من الإسطبلات وباحات المزارع والبيوت التي تربى فيها

(1) Quart أي ربع غالون.

(2) John Moore كاتب أسفار بريطاني.

الحيوانات الداجنة.

كانت عملية الجمع تلك تتم ساعتين في النهار، وفي حال فُقد أي طير أو بيضة في هذه العملية كان المالك يطالب بالتعويض.

لم تستمر هذه الصناعة طويلاً، ففي نهاية القرن الثامن عشر، تم اكتشاف مصدر طبيعي آخر لنترات البوتاسيوم في أمريكا الجنوبية والهند الشرقية.

كانت كلّ حمامة تزرق أكثر من عشرة كيلوغرامات من الفضلات في كل عام. وبدلاً من التذمر، استطاع سكان المدينة أنْ يستفيدوا من فضلات الحمام على نحوٍ نافع.

كما استخدمت دماء الحمام في صناعة الزجاج العصري الأحمر وعرف باسم غورج دي بيجيون[1].

شاعت هذه التقنية في صناعة كؤوس الخمر الأوروبية في بداية القرن العشرين. كما استخدمت مفردة دماء الحمام لتصف أجمل ألوان الياقوت. فقد كانت كاثرين العظمى تملك ياقوتة من دماء حمراء حقيقية للحمام، كانت بحجم بيضه. وفي اللغة البورمية تعني كلمة «كو- توي» «دماء الحمام».

واستخدمت في النظام البورمي القديم لتصنيف الياقوت. أما الدرجة «كو- توي» فقد كانت تمنح لأفضل نوعية ياقوت، أي تلك التي بأجمل لون. لقد كانت منطقة موغوك في بورما مصدر الياقوت الحقيقي من دم الحمام. إذ قارن البعض لون الياقوت بقلب عين حمامة حية، أو بلون أول قطرتين من دماء تسفحان من أنف حمامة بورمية ذبحت حديثاً.

ربما كان من الضروري أنْ نؤكد أنّ لون دم الحمام الأحمر الحقيقي شيء بالغ الندرة، فهو لون يتخيله المرء أكثر مما هو موجود في الواقع. لقد عبر عن ذلك أحد التجار البورميين خير تعبير عندما

---

(1) Gorge-de-pigeon حلق (عنق) الحمامة

قال: «إنّ من يطلب أنْ يرى دماء الحمام، كمن يطلب رؤية وجه الرب».

لقد أزعج استخدام مصطلح «دم الحمام» لوصف لون الياقوت البعض. ففي عام 1985 قرر جيمس نيلسون الذي كان لا يحبذ استخدام مفردات خيالية أو عبارات، أنْ يحسم هذه المسألة:

في مسعى منه لمزيد من الوصف لهذا اللون الأحمر الغامض والذي لا يعرفه سوى الصيادين، وقلة من المحظوظين الذين يملكون أفضل ياقوت بورمي، لجأ الكاتب إلى حديقة حيوانات لندن. ولم يتلكأ قسم الأبحاث فيها في مدّ يد العون فقد أرسلوا إليه عينة من دماء الحمام الطازجة المشبعة هواء والمنحلّة الخلايا. أخضعت العينة لفحص بالسيبكترومتر[1].

وسرعان ما أُزيح الطائرُ البورمي بأمان من مملكة الجيمولوجيا[2] ليودع من جديد للأورثونولوجيا[3].

من الأهمية بمكان أنْ ننحي الاستخدام الغربي لكلمة حمام بوصفها مفردة تطلق على الوضيع. وكما نوهنا في الفصل الثاني ففي حقب مختلفة من التاريخ احتلّ الحمام مقاماً رفيعاً، فأنْ يمتلك المرء ياقوتة أُسميت تيمناً بدم الحمام فذلك مديح. وتبعاً لدايان مورغان، عرفت بورما ما قبل البوذية شكلاً من أشكال النزعة التي تؤمن بوجود كائنات روحية منفصلة عن الأجساد. وكانت إحدى الطرق لتهدئة الأرواح في قتل دجاج أو حمام.

رسل وأوسمة

لقد ساعد الحمام في تغيير مسار التاريخ ورسم خريطته بوصفه وسيلة للاتصال. فقد حملت هذه الطيور الرسائل منذ ما قبل عصر

(1) Spectrophotometer أداة تقيس كثافات طول الموجات الموشورية.

(2) Gemology العلم الذي يدرس الجواهر.

(3) Ornithology العلم الذي يدرس الطيور.

هانيبال الذي استخدم بريد الحمام أثناء اجتيازه جبال الألب. إذ كان ينقل المعلومات للملك سليمان (950 قبل الميلاد). أما سيروس الأعظم فقد أقام شبكة واسعة النطاق من الحمام في القرن السادس قبل الميلاد غطى فيها الإمبراطورية الفارسية الأخمينية. كما استخدم الإسكندر المقدوني أيضاً الحمام لإرسال المعلومات، وكذلك يوليوس قيصر خلال حملته على بلاد الغال.

دوّن بلينيي ما مُفادُه: أن هيريتس وديسيموس لونيوس بروتوس كانا يتواصلان بواسطة الحمام أثناء الحصار الذي فرض على موتينا في عام 43 قبل الميلاد. فقد كتب فرونتينوس:

«كان هيريتس يحبس الحمام في الظلام ويجوّعه ويثبت الرسائل إلى أعناقه بشعرة ومن ثم يُطيّره في أقرب منطقة من أسوار المدينة، حيث كان بروتوس يستقبل تلك الطيور التواقة للضوء والطعام في المباني المرتفعة. كان بروتوس بتلك الطريقة يعلم كل شيء ورد في الرسائل سيما بعد أنْ يضع الطعام في القدور ويدّرب الحمام على أنْ يحط هناك.

وبالإضافة إلى نقل الأنباء من ساحات المعارك، استُخدم الحمام أيضاً من قبل الرومان للإعلان عن انتصاراتهم في المدرجات الرومانية. وفي اليونان القديمة، ارتبط الحمام حامل الرسائل بالآلهة وببدايات الألعاب الأولمبية. وبحسب أوفيد، لطّخ تاوروسثينيز حمامة باللون الأرجواني الساطع وأطلقها في الجو معلناً عن انتصاره وفوزه في الألعاب الأولمبية إلى ابنه في إيجا. لقد رسخ هذا ما يشبه التقليد، كما استفيد منه لتنبيه الآخرين بهوية الفائزين.

وللصين أيضاً تقاليدها التي تعود إلى القرن الخامس عشر في الاستفادة من الحمام كساع للبريد. كان الحمام هناك ينقل أنباءً من الصيارفة ورجال الأعمال إلى أناس عاديين عن إقامة دعوات عشاء أو غداء مثلاً. كما كانت صفارات الحمام المصنوعة

من قصب الخيزران، تربط إلى ساقه أو إلى ريشات كفله. وكانت موسيقاه تصدح أثناء تحليقه. اعتقد البعض آنذاك بأنها أصوات أرواح أسلافهم. ربما كان صوت الحمام يساعد في طرد المفترسين والضواري أيضاً.

كان الحمام الأيّاب، خلال الحروب الصليبية، عنصراً مهمًّا كمتاع لمعظم الفرسان. وفي فترات محددة وعلى طول المسير، كان الحمام يطلق لينقل الأنباء إلى الديار. في منتصف شهر أيار من عام 1099 وصل الصليبيون أخيراً إلى مقصدهم إلى القدس في فلسطين. كتب توماس فوللر في كتابه Historie of the Holy Warre[1] 1643:

عندما جاء الفجر بأنباء الصباح، قاتل الصليبيون من جديد لأنهم اعترضوا سبيل رسالة ربطت إلى ساق يمامة. بما أنّ ذاك كان هو الأسلوب في تلك البلاد، أي كتابة الرسائل وإرسالها مخبأة في جوانح تلك الطيور حيث وعد الإمبراطور الفارسي بأنْ يقدّم العون إلى المدينة المحاصرة.

لقد شجعت الأنباءُ الفرنجةَ[2] على المضي قدماً، وهذا ما فعلوه، لتصبح مدينة القدس تحت سيطرتهم.

كانت مراكز الحمام تنقل أنباء أخرى عن المعارك خلال الغزوات الصليبية شأن سقوط مدينة القسطنطينية في عام 1204. فقد أُرسلت حمامة عائدة إلى مدينة فينيسيا لتطير أكثر من 700 ميل[3] لتنقل أنباءً طيبة. وكان الحمام أيضاً ذا فائدة للجانب الآخر. فقد نقل خبر وصول مجموعة من خيالة الفرنجة يقودهم لويس التاسع في عام 1249 إلى سلطان القاهرة، ما سمح له أنْ يغيّر الخطط

(1) تاريخ الحرب المقدسة. وفيه يوضح توماس فولر موقف البروتستانت من الشرق والإسلام.

(2) الصليبيون-المسيحيون.

(3) الميل يساوي 1.6 كيلومتر.

ويفاجئ الغزاة.

وشاع تأسيسُ مراكز حدودية متقدمة في منطقة الشرق الأوسط، وكانت وسيلة مهمة للاتصال بين المدن الكبيرة. وقد ذكر أول مركز وُثِّق رسمياً في عام 1150 في مدينة بغداد. وبقي هذا المركز يستعمل حتى عام 1258 عندما جاءت عصابات المغول لتأكل جميع الحمام الذي كان في المنطقة. رغم ذلك لم تَحُل هذه الحادثة دون إقامة مراكز أخرى للحمام عبر الشرق الأوسط وضمن أوروبا، فقد جاء الصليبيون بمعظم الحمام المدرّب إلى أوروبا وفيما بعد، أي في القرن السادس جيء بالحمام من بلاد فارس. كان بعض من شبكات الحمام هذه معقد بالفعل، ففي القرن الرابع عشر بنيت أبراج الحمام في تركيا وبُوعد فيما بينها مسافة تقارب أربعين ميلاً. كانت الرسائل تُنقل من طير إلى طيرٍ آخر، بما يشبه سباق التتابع، يتم نقل المعلومات بنسخة إضافية أخرى ترسل بعد ساعتين لضمان وصولها.

وأما الحضارات الساحلية القديمة سيما البحارة الفينيقيون



حمام مرسال على قطعة خشب تعود إلى القرن الخامس عشر من نسخة Travels للسير جون مندفيل.

والمصريون، فقد استخدموا الحمام لمد يد العون في التجارة، فقد اعتادوا على إطلاق طيورهم للإعلان عن وصول السفن المبحرة بالإضافة إلى نقل رسائل أخرى.

واستمر صيادو الأسماك في هذه الممارسة، فقد كانوا يطلقون حمامة للإعلان عن صيدهم أو شيئاً شبيهاً قبل وصولهم. وفي الولايات المتحدة الأمريكية وخلال فترة منع بيع الكحول والاتجار به في الفترة الواقعة بين (1919 – 1933)، استخدمت مجموعات المهربين مراكز الحمام كوسيلة للاتصال بين السفن والقواعد الموجودة في البر. وللعديد من السنوات درجت السفن على نقل الحمام الحامل للرسائل كجزء من حمولتها، بوصفه شكلاً من أشكال الحيطة في حال تعطلت أجهزة البث.

وبحلول القرن التاسع عشر تأسست مراكز الحمام عبر أرجاء عديدة في أوروبا. وبسرعة 30– 70 ميلاً يقطعها في الساعة، كان الحمام أسرع من عربات البريد أو الجياد كما استخدم الحمام لملء الفجوات في أنظمة النقل والمواصلات سيما بين باريس وبرلين. لقد تمت الاستفادة من سرعة الحمام وقدرته على العودة إلى دياره، فكان الحمام ما يزال الطريقة الأسرع لحمل الرسائل إلى أن اخترع التلغراف (1836) والهاتف (1875). إذ كانت ترسل أنباء أسواق المال عبر حمامات دُرِّبن على العودة إلى الديار. ففي عام 1815 تمكن مصرف روتشيلد في لندن من الاستفادة من أنباء هزيمة نابليون في معركة واترلو. وفي إنجلترا استخدم الحمام لنقل أهداف المباريات بعيداً عن الديار. فقد أقامت صحيفة التايمز اللندنية مركزاً للحمام بين لندن وبولون في الوقت الذي كان فيه المضاربون في البورصة يملكون حظائرهم الخاصة في دوفر وفولكستون. وفي نهاية القرن التاسع عشر استخدمت صحف أخرى مراكز الحمام لتسجيل الأحداث في الوطن بغية الحصول على أنباء رياضات



مركز حمام،. قطعة
خشب من ألمانيا
.1488

أخرى شأن نتائج سباقات ديربي وسباقات القوارب، ففي عام 1845 بدأت وكالة رويتر للأنباء عملها في أوروبا باستخدام الحمام وبدأت بخمس وأربعين حمامة، وقد جعلتها تسافر بين آخن في ألمانيا وبروكسل. وبنيت الحظائر الإسمنتية على سقوف وكالات الأنباء في اليابان واستمر ذلك للعديد من السنوات. وفي عام 1959 وعندما دمر إعصار استوائي مدينة ناغويا وعزلها عن البلاد عاد الحمام بصور عن الدمار الذي حل بالمدينة إلى محرري الصحف في كل مكان.

كما استخدمت مراكز الحمام للتخفيف من وطأة الإحساس بالعزلة. ففي مزارع الموز والشاي والبن كان أصحابها يرسلون بالحمام إلى المدن والبلدات القريبة مع قائمة بالمؤن التي يحتاجون. كما اعتمدت بعض أعمال التنقيب في المناجم على نقل الرسائل. وعلى جزيرة غريت بارير التي تقع قبالة ساحل نيوزيلندا، كان الحمام رسلاً لعمال المناجم الذين كانوا يريدون الاتصال مع أناسهم في أوكلاند. وفي تسمانيا كان حراس المنارات البحرية يزوّدون بالحمام،

لكن ذلك سبّب مشكلة، ففي نهاية شهور ثلاثة رأت بعض الحمامات أنّ المنارة باتت مسكناً لها مما جعلها تمتنع عن العودة إلى اليابسة.

بدأت أوّل خدمة بريدية منظمة تعتمد الحمام سعاةً لها في عام 1896، وكانت بين نيوزيلندا وغريت باريير ريف Great Barrier Reef. وأما الدافع إلى ذلك، فقد كان غرق السفينة «إس إس وايرارابا» قبالة غريت باريير ريف حيث زهقت 134 روحاً، إذ لم تصل أنباء تلك الكارثة إلى نيوزيلندا إلا بعض مضي ثلاثة أيام. وأصدرت طوابع حمام بريدية بغراماج خاص بتكلفة 20 سنتاً برسم يدفع نقداً قبل أنْ تُطيّر الحمامة. وفي شمالي همسفير حمل الحمام أول طابع بريدي في عام 1898. أما آخر مركز للحمام فقد هُجر في الهند في عام 2004 بعد أنْ أطلقت الحمامات هناك لتمضي ما تبقى لها من أيام في هدوء وسلام.

ربما استخدم الحمام كوسيلة للاحتيال والتهرب من دفع النقود. ففي عام 1937نشرت الصحافة الحادثة التالية:

«كانت هناك عائلة دائمة الارتحال ولا تملك سوى تذكرة مواصلات واحدة. كان أفرادها يغادرون إلى العمل في أوقات مختلفة ويأخذ كل منهم حمامة إلى عمله. وعند وصولهم كانوا يطيرونها ومعها التذكرة التي كان يستخدمها فرد آخر منهم يغادر في ساعة متأخرة. وكانوا يقومون بذلك مرتين أو ثلاثاً في اليوم».

يَسّرَ الحمام من استمرار الاتصال خلال الحرب. ففي رواية «الزنبقة السوداء» سجل الروائي ألكسندر دوماس شيئاً من حرب الاستقلال في هولندا سيما حصار مدينة ليدن الذي فرضه الإسبان عليها في عام 1574واستمر ستة شهور، عندما نجا سكانها من خلال تسليم الحمام الرسائل من العالم الخارجي.



أسطوانة رسائل ربطت بحمامة تنقل الرسائل.

وفي سياق حصار باريس الذي استمر من التاسع عشر من أيلول من عام 1870 وحتى الثامن والعشرين من كانون الثاني من عام (1871) خلال الحرب الفرنسية البروسية، طُيِّرت حمامات باريسيات تحمل مناطيدَ من باريس إلى لندن وتور ومدن أخرى. ومن هناك طُيِّرت من جديد وحُمِّلت رسائلَ إلى سكان باريس. وقد رتب عملية الاتصال تلك مكتب البريد البريطاني العام. وخلال أشهر الحصار نُقِل أكثر من 150000 رسالة رسمية، ومليون رسالة شخصية إلى باريس. وخلال الحصار باتت أساليب تسليم الرسائل تلك مثالية. في البداية كانت الرسائل ورقية، وكانت تلف بعناية وإحكام وتختم بالشمع وتربط على ريشات الذيل. رغم ذلك، لم تصب تلك الطريقة الكثير من النجاح، ففيها فقد الكثير من الرسائل. وتم تطوير هذه العملية من خلال إدخال الرسالة إلى ريشة إوزة صغيرة وربطها بخيط من الشمع إلى أقوى ريشات الذيل. فيما بعد وبعد أنْ خرجت آلات التصوير بالأسود والأبيض والتي كانت تلتقط الصور بالحجم الكامل، بات الحمام يحمل أفلامًا صنعت من

(في الأسفل) طابع بريدي أسترالي بذكرى عام السلام العالمي 1986.





جولي دودي (1892- 1831) وجاك غيواد (1876- 1811) Les pigeons messagers[1] 1870. رسم زيتي على كنفا.

(1) الحمام الرسل.

الكولوديون[1]. وعندما كانت الرسائل تصل إلى الأمكنة التي أرسلت إليها، كان يتمُّ إسقاطها على شاشة بمصباح قوي ليتم تدوينها وكتابتها بعد ذلك. وكانت مراكز الحمام فعّالة ما دعا السلطات الفرنسية لإشراعها للرسائل الشخصية. فقد تحدث الروائي أرنولد بينيت Arnold Bennet عن استخدام الحمام من أجل إيصال الرسائل خلال حصار باريس في روايته حكاية زوجات عجائز Old Wives.

حاول البروسيون أنْ يعترضوا الحمام باستخدامهم الصقور، لكن العديد من الحمام كان قد وصل إلى الأمكنة التي أرسل إليها رغم ذلك. وما يجعل من ذلك مأثرة لافتة، هو أنّ الحصار وقع في أشهر الشتاء.

(1) Collodion شاع استعماله فيما بين عامي 1850-1870 كمثبّت في التصوير الفوتوغرافي إلى أن تم استبداله بالجلاتين.



مجموعات من الحمام الياباني الحامل للرسائل.

أدى النجاح الذي حققه الحمام كرسلٍ إلى تأسيس مراكز عسكرية له في أوروبا كتهيئة لحروب مستقبلية. كما أنّ ذلك كان يعني مدًّا في جماهيرية رياضة سباق الحمام. فعند اندلاع الحرب العالمية الأولى، حظرت السلطات البريطانية استخدام الحمام، خشية توظيفه في أعمال الجاسوسية.

أقنع الكابتن إي. إتش. أوسمان السلطات البريطانية بمهارات الحمام وكيف أنه يفيد في حال أخفقت التكنولوجيا. لقد ارتبطت إمكانيات نقل الحمام للرسائل مع الشبكات التي كانت ترميها السفن الكاسحة للألغام. في المراحل الأولى من الحرب وقبل أنْ تجهّز الغواصات الألمانية، بالأجهزة اللاسلكية كان الحمام هو الوسيلة التي كانت تنقل فيها نداءات الاستغاثة وبهذا كان يؤدي دوره في إنقاذ البحارة. وقد أدت هذه الأمثلة إلى تأسيس مكتب خدمات الحمام البريطاني. وخلافاً لحلفائها الأوروبيين وحيث شيدت الحظائر العسكرية، كان استخدام الحمام في بريطانيا مسألة طوعية تماماً،

فلم يرسل به إلى جبهات القتال حتى شهر آذار من عام 1916. إذ كان الحمام (الأيّاب) يرمى من الطائرات في سلال إلى مناطق صديقة ليعود برسائل منهم. تظهر سجلات الحرب البريطانية أن 95٪ من الحمام حمل لهم الرسائل.

عُدَّ قتلُ حمامة أيّابة أو جرحها أو مضايقتها أذيّة في ظل قوانين مرسوم الدفاع عن الملكية. لقد كان الحمام بالغ الأهمية في نقل الرسائل المهمة. لا بد أنّ الجنود سيئي التغذية لم يستطيعوا مقاومة مصدر الطعام هذا. وإنْ قبض على أحدهم بتهمة تتصل بقتل أو إزعاج الحمام فيواجه بغرامة ثقيلة تبلغ 100 جنيه إسترليني أو سجن لمدة ستة شهور. كما كانت اللافتات والملصقات التي تتصل بحماية الحمام توضع حول الخنادق.

وبحلول كانون الأول من عام 1915 عُبّئت أكثر من مئتي حمامة كجزء من خمسة عشر مركزاً للحمام تقع على الجبهة الغربية. ولم يكن جميع الحمام يطيّر بسهولة؛ ففي الثامن عشر من شهر تشرين الأول من عام 1914 عندما كانت القوات الألمانية تتقدم إلى أنتويرب «آثر رئيس مكتب الحمام البلجيكي، بدموع انهمرت على وجهه، أنْ يحرق 2500 حمامة وهي على قيد الحياة على أنْ يجعلها تقع في أيدي قوات كايسر التي كانت تتقدم».

كما كشفت معركة سوم[1] مقدار أهمية الحمام وضرورته. فقد استخدم الفرنسيون 5000 حمامة خلال المعركة ولم يفشل منها في العبور سوى اثنين في المئة. ولا يعني هذا أنّ اثنين بالمئة من الرسائل لم تسلم، فجميع الرسائل المهمة أرسلت بنسخ إضافية من قبل حمامات أخريات. أما الحظائر المتحركة فقد كانت تُجّر بخيول أو حافلات تحولت إلى عربات كان يمكن نقلها وتحريكها إلى مواقع

(1) وادي نهر السوم Somme يقع في شمالي فرنسا وشهد معركة كبيرة في الحرب العالمية الثانية.

مختلفة. لقد كانت الرسائل تُحمل من الخنادق إلى مقرّات الكتائب ومن الدبابات إلى قواعدها. وفي نهاية الحرب دخلت في الخدمة في القوات البريطانية ما يقارب من 22000 حمامة اعتنى بها 400 من مربي الحمام.

وحالما غزت ألمانيا المنطقة الفرنسية أو البلجيكية، صدرت أوامر تقضي بالقضاء عل جميع الحمام. وإنْ عثر على أي شخص يبيعها أو يمتلكها، فيُتهم بحيازة أشياء غير قانونية في المعركة، ونتيجة ذلك عوقب كثيرون بشدة.

وعلى الجبهة الغربية، مُنحت حمامة فرنسية وسام كروا دي غيير وليجيون دونير كشاهد على مآثر الحمام وذكرى له في فيردون. كما شُيّد نصب في مدينة ليل الفرنسية تخليداً لذكرى العشرين ألف حمامة اللاتي قضت في ساحة المعركة، كما أشاد نصب في بروكسل


DEFENCE OF THE REALM
Regulation 21A.

SHOOTING
HOMING PIGEONS.

Killing, Wounding or Molesting Homing Pigeons
is punishable under the Defence of the Realm Regulations by
SIX MONTHS IMPRISONMENT OR £100 FINE.

The Public are reminded that Homing Pigeons are doing valuable work for the Government, and are requested to assist in the suppression of the shooting of these birds.

£5 REWARD

will be paid by the NATIONAL HOMING UNION for information leading to the conviction of any person SHOOTING HOMING PIGEONS the property of its Members.

Information should be given to the Police, Military Post, or to the Secretary of the Union, C. C. PLACKETT, 14. EAST PARADE. LEEDS.

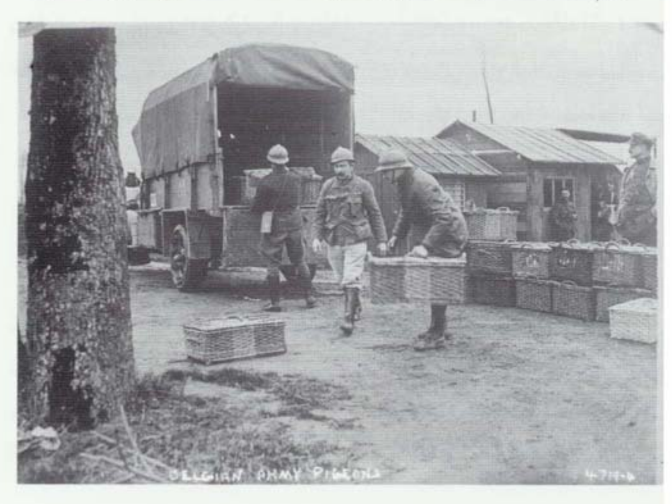
خلال الحرب العالمية الأولى تمت حماية الحمام من أنْ يتحول إلى مصدر سهل للطعام لأنه كان ضرورياً للمجهود الحربي.

بواحد وعشرين ألف حمامة ومربيها كانوا قد قتلوا في الحرب، وفي برلين ثمة نصب للحمام الألماني المحارب.

كتب الميجور جنرال فولر رئيس قسم الإشارة والاتصالات في الجيش البريطاني:

«إنّ اضطررنا للتخلص من جميع خطوط الاتصالات وطرقها التي تستخدم على الجبهة باستثناء أحدها، وإنّ ترك لي الخيار بأنّ أختار طريقة منها، فلسوف أختار الحمام ومن دون أي تردد. علينا أنّ نعتمد على الحمام عندما تفشل كل الوسائل الأخرى. وخلال الفترات التي تهدأ فيها المعارك بإمكاننا أنّ نعتمد على الهاتف والتلغراف والرايات والإشارات وعلى كلابنا ووسائل عديدة أخرى استخدمت في الجبهة مع الجيوش البريطانية. ولكن عندما اندلعت المعركة وأفسحت المجال للقصف ونيران البنادق الآلية، هذا من دون أنّ نذكرَ شيئاً عن الهجمات بالغازات والقنابل، أوصلنا الحمام إلى ما كنا ننشد... يسرني القول بأنه لم يخذلنا أبداً».

وتمَّ الاحتفاظ بالحظائر المتحركة خلف الخنادق على الخطوط



حمام الجيش البلجيكي.



رسالةٌ ملفوفةٌ وموضوعةٌ في وعاء ربط إلى ساق حمامة تحمل البريد. كتيبة الإشارة الواحدة والستين باليمينا، أيرلندا الشمالية. 3 تموز 1943.

الأمامية للجبهة في أوروبا. وكان يتوجب على الحمام أنْ يسلم الرسائل إلى القاعدة في الغالب حتى في خضم إطلاق النار والغازات السامة. وأما في إنجلترا فقد شُيّدت الحظائر الثابتة في مطارات صغيرة رئيسة. كما شيد صفٌّ من الحظائر على طول الخط الساحلي الشرقي من نيوكاسل على تاين إلى هاستينغز بغية الاستفادة منها إنْ حدث الغزو. وقد صدرت تعليمات إلى جميع طواقم الدبابات والطائرات البحرية والغواصات التي حملت الحمام، بشأن كيفية التعامل مع الحمام ورعايته. ولم ينج من الحمام الأيّاب الذي أرسل إلى أفراد المقاومة والمتعاطفين معها، الذي اشترك في العمليات الاستخباراتية سوى 10 % فقط.

يعدُّ شيرآمي (الصديق العزيز) واحداً من أكثر أفراد الحمام

تميزاً وهو ذكر من فصيلة بلو تشيكرد كان قد أنقذ أفراد «الكتيبة المفقودة» السابعة والسبعين من سرية نيويورك في الجيش الأمريكي. ففي السابع والعشرين من تشرين الأول من عام 1918 وفي «غراند بري» كان جنود تلك الكتيبة تحت وطأة هجوم عنيف، ولم يكن هناك معهم سوى طير واحد، فقد قتلت جميع الطيور بنيران العدو. طُيّر شيرآمي وقصفته نيران العدو لكنه أفلح في الوصول إلى حظيرته في رامبونت على بعد أربعين ميلاً في غضون 25 دقيقة وكاد يموت. كانت البكرة التي وضعت فيها الرسالة ما تزال ملتصقة بساقه الجريحة التي كانت لا تزال معلقة ببعض شرائط من الأوتار. يعود فضل إنقاذ الكتيبة بسرعة إلى شجاعة شيرآمي الذي كوفئ بمنحه بالوسام الفرنسي كروا دي غير، من دون أنْ يحصل على وسام أمريكي بما أنّ الجيش الأمريكي لا يكرم الحيوانات أثناء الخدمة بهذه الطريقة، رغم ذلك منح هذا الطير ميدالية ذهبية من منظمة مربي حمام السباقات الأمريكية. توفي شيرآمي متأثراً بجراحه التي أصيب بها في المعركة في الثالث عشر من حزيران من عام 1919. وشاعت الأنباء التي تحدثت عن المأثرة البطولية التي قام بها، وباتت موضوعاً لأسطورة. وفي عام 1919 أنتج فيلم سينمائي عن شجاعة ذلك الطير وأما في العام 1926 فكتبت به قصيدة:

«صديقي العزيز
أنت من يجب أنْ نرسل
فقدنا الكتيبة كلها
وعليك أنْ تفوز بأي ثمن».

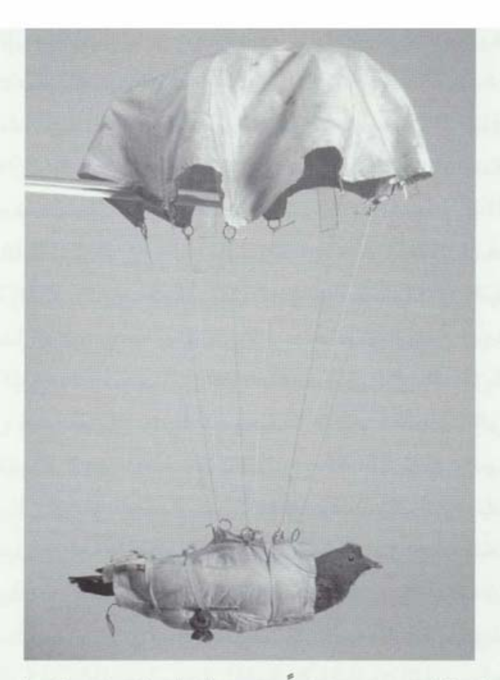
خلال الحرب العالمية الثانية، لم يكن للحمام البري المكانة الرفيعة ذاتها كأسلافه من الحمام الأيّاب. فقد نُظر إليه كحشراتٍ زراعية وإضافة مفيدة إلى موائد الطعام أثناء توزيعه على الجنود. في ذلك الوقت كان هناك ما يتراوح من خمسة ملايين إلى ستة

ملايين حمامة برية في بريطانيا، إذ وزع خرطوش البنادق مجاناً على مهرةِ الرماة مما مدَّ سوق اللحوم بأكثر من مليون طير خلال الحرب العالمية الثانية.

في حزيران من عام 1940 شُجِّع مربو الحمام على تطويع طيورهم في الخدمة العسكرية للحصول على معلومات من أوروبا المحتلة.

كان الحمام يؤخذ إلى القواعد الجوية حيث يجهز بصناديق معدنية للرسائل وتربط مع كل طير منها مظلة بالإضافة إلى مؤونة طعام تكفيه عشرة أيام. وكانت الصناديق تحتوي أيضاً على معلومات واستبيانات تطلب ممن يجدها أنْ يرسل الطير من جديد مع المعلومات. كانت رحلة الذهاب والإياب هذه تغطي 300 ميل. وبالطبع كان بعض الحمامات يُقتل على أيدي صقور دربها الألمان كانوا قد نشروها عبر بادي كاليه[1]. وقد وصل العدد الإجمالي من الحمام الذي اشترك فعلياً في الحرب العالمية الثانية إلى أكثر من ربع مليون حمامة مرسال. ولفت فيلم كرتوني بعنوان فاليانت انتباه البشر إلى مآثر الحمام البطولية أثناء الحرب. ويتحدث الفيلم الذي تضمّن مزيجاً من عدة أحداث وقعت في الحرب الثانية، عن وحدة مهمات خاصة من الحمام تسلم رسالة مهمة من حركات المقاومة إلى المقرات في إنجلترا. ومن بين شخصيات الفيلم نرى حمامة غابات برية صغيرة وشجاعة، وأخرى مهووسة بتناول الطعام من ساحة ترافالغار (الحمامة الثانية مفرطة الوزن وتملؤها البراغيث وتبث القرف الذي يشعر به العديد حيال حمام الروك الشائع). ولكي توصل تلك الوحدة الخاصة رسائلها، على أفرادها أنْ يراوغوا ويتجنبوا أعداءهم الحقيقيين، أي الصقور. يصور الفيلمُ الصقورَ الضارية والماكرة على أنهم النازيون. ففي أحد المشاهد، يتوعد زعيم الصقور بأنْ يلتهم ذكرَ حمام أسيراً. يغضب ذكر الحمام ويقول

(1) محافظة في شمال فرنسا عاصمتها ليل.



مظلة حمام من الحرب العالمية الأولى.

للصقر: إنه كان يعتقده نباتياً، وهذه إشارة إلى نزعة هتلر النباتية المزعومة.

كان موسوليني وفرانكلين روزفلت من أشهر من ربى الحمام. فبعض حمام روزفلت كان ينقل الرسائل من باريس المحاصرة وإليها خلال الحرب العالمية الثانية. كما كان هنريش هملر رئيس الغستابو من مربي الحمام ورئيساً سابقاً لجمعية الحمام الألمانية. في نهاية الحرب، أقيم مزاد بالقرب من روما حيث انصبّ اهتمام البشر على حمام موسوليني الداجن. وقد جاء العديد من مربي الحمام من مسافات طويلة لحضور هذا الحدث.

وكان المكتب العسكري للحمام في الولايات المتحدة الأمريكية، في أوج الحرب، يضم 150 ضابطاً و3000 رجل و54000 حمامة نقلت ما

يقرب من 30000 رسالة. وخلال الحرب كان الحمام يعبر البحار، إذ وصلت نسبة تسليم الرسائل إلى 96 %.

شكلت النهايات التي آل إليها بعض الحمام صدمة كبيرة. ففي شتاء 1944 نقلت الحمامة لوسيا دي لاميرمور إلى موقع متقدم من المعركة وهناك طُيّرت بمعلومات مهمة. لكنها تأخرت في التحليق. في تلك الليلة عادت برسالة: «إلى القوات الأمريكية، ها نحن نعيد الحمامة إليكم. لدينا ما يكفي لنأكله. التوقيع القوات الألمانية».

عندما خشي مربو الحمام في أرجاء أستراليا من أنْ تتعرض بلادهم للغزو، تبرعوا بطيورهم بغية نقل الرسائل في حال استحال الاتصال عبر أجهزة الراديو. وعندما انتقلت الحرب إلى غينيا الجديدة، بات للحمام دور مهمٌّ هناك أيضاً؛ فقد تمكن الحمام من الطيران في المناطق الجبلية وفوق الغابات وتسليم الرسائل في مناطق صَعُبت فيها الاتصالات العسكرية، أو استحالت في بعض الحالات.

لم يخضع الحمام إلى التجنيد الإلزامي، كما لم تدفع أية تعويضات للحمام الذي لم يعد إلى الديار. أما مكافأة مربيه فتمثلت في الإقرار بإسهامات طيورهم المهمة في المجهود الحربي. بعد هذا كله، فإنّ أولئك الذين لم يسهموا بحمامهم في المكتب الوطني للحمام في بريطانيا، لم يتلقوا حصصهم من القمح لطيورهم تلك.

وفي عام 1943 قدمت ماريا ديكين مُؤسّسةُ المركز الشعبي الطبي للحيوانات المريضة PDSA وسام ديكين للحيوانات الأبطال التي خاضت الحروب. وشملت هذه الجائزة القوات المسلحة ووحدات الدفاع المدني في الحرب العالمية الثانية. وقد عُدَّ هذا الوسام ذو الشريط البني والأزرق والأخضر معادلاً لوسام فيكتوريا كروس (وسام فيكتوريا) الذي يُمنح تقديراً للبسالة. ونقش على هذا الوسام البرونزي «من أجل البسالة». و«نحن نقاتل أيضاً». وقد مُنح وسام ديكين خلال الحرب العالمية الثانية إلى أربعة وعشرين كلباً وثلاثة

جياد وهرّة واثنتين وثلاثين حمامة. وكان أول حيوان يتلقى هذا الوسام هو حمامة بلو تشيكر واسمها وينكي كانت قد أنقذت طاقم قاذفة. قال الكثير من البشر بعودة أيام الحمام الداجن منذ اعتبرت الاتصالات اللاسلكية متفوقة، لكن هذا لم يأخذ بنظر الاعتبار الأوقات التي لم تكن تتيح إرسال الرسائل باللاسلكي. ويمكننا توضيح هذه النقطة بالإشارة إلى حالة وينكي (أسميت كذلك بسبب الطريقة التي تدلت بها عينها تعباً[1]). «ففي عام 1942 أجبرت سفينة حربية بريطانية على التوجه إلى بحر الشمال، وطيُّرت وينكي من صندوقها في خضم المعمعة. وبرغم المياه التي اختلطت بالنفط والتي أعاقت حركة جناحيها، أفلحت في قطع مئة وعشرين ميلاً إلى الساحل الاسكتلندي لطلب المساعدة. حدد فريق الإنقاذ الطاقم المحاصر الذي كان يتشبث بزورق تجديف ومن ثم وصلوا إلى بر الأمان. والجميل في الأمر أنّ وينكي تلك حلّت ضيفاً بعد عدة أيام على مأدبة أقيمت على شرفها. وقد جلست في قفصها في نهاية طاولة طويلة وبدأ الأدميرالات المعجبون بها يشربون نخبها».

في مقبرة المركز الشعبي الطبي للحيوانات المريضة في إلفرد إيسكس، يقبع ضريح لـ«ماري إيكستر»[2]. وقد أدرجت ماري الحمامة في مجموعة إيكستر على خطوط خدمات الحمام الوطنية للاتصالات الدفاعية. وكان خط سيرها يمتدُّ من تانتون إلى إيكستر ومن بلايموث إلى إيكستر. لقد طارت هذه الحمامة في العديد من المهمات ونالت نصيبها من الجراح. فذات مرة طُيرّت برسالة من وحدة المهمات الخاصة الثامنة في الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها ضاعت. بعد أربعة أيام، وقعت على حظيرتها وقد غطتها الدماء بعد أنْ انشطرت من العنق إلى الصدر، بعد أنْ هاجمها أحد النسور. خيطت وأعيدت إلى الخدمة. كما جرحت في مناسبتين أخريين،

(1) الفعل منها wink.

(2) Exeter مدينة فيها كاتدرائية تاريخية تقع نهر إيكس في ديفون جنوب غربي إنجلترا.

خِيطَت في إحداهما باثنتي عشرة درزة رغم أنّ وزنها لم يكن يتجاوز باونداً واحداً.

وفي أستراليا نالت حمامتان وسام ديكين؛ (الحمامة dd 139 t 43 والحمامة dd 43 q 879) وكانتا الحيوانين الوحيدين البطلين اللذين نالا هذا الشرف. كان تكريماً وكانت أوسمة جاءت بعد الممات، ذلك أنهما لم تعودوا إلى الديار حيتين بعد الحرب.

قدر كيث رايستون وهو ملازم بوحدة المهام الخاصة الأسترالية التابعة لمكتب الخدمات الوطني للحمام في سلاح الإشارة في غينيا الجديدة خلال الحرب العالمية الثانية، بأنّ ما يقارب العشرة آلاف حمامة تركت في غينيا الجديدة. لقد قتلت تلك الحمامات على



وسام صليب فيكتوريا يمنح للحيوانات الأبطال لمجهودها في الحرب. وقد تلقى الحمام أوسمة ديكين أكثر من أي من الحيوانات الأخرى.

خلفيات إنسانية بسبب قوانين الحجر الصحيّ بالإضافة إلى عدم وجود حبوب طبيعية تناسبها في غينيا الجديدة. وقد أعيد العدد القليل من تلك الحمامات وذلك لأغراض تتعلق بالعروض. وفي الثامن من شهر تشرين الثاني من عام 1945 أشادت صحيفة صن التي تصدر في سيدني تخليداً لذكرى حمامات غينيا الجديدة التسع اللواتي جُهزنّ لمعرض ذكرى الحرب الأسترالية.

وداعاً يا طيوري المخلصة

في الحرب كنت خارقة

الآن تكرمك بلادك

بتحنيطك.

تحطمت قلوب العديد من الجنود حزناً عندما اضطروا إلى قتل «رفاقهم في السلاح» الذين دربوهم على خوض المعارك وأنقذوا العديد من الأرواح، والذين أقاموا صلات روابط فيما بينهم. لقد قتل ذوو الريش والأجنحة ولم يتقاعدوا كما حدث في بلدان أخرى. والمحزن في الأمر أنّ الحمام الأسترالي لم يُعط أسماء، بل أرقاماً. وما هذا سوى سبيل للنأي بالنفس عن تشكيل أواصر صداقة. وقد وُجّهت في تشرين الثاني من عام 2000 دعوة لأعضاء سابقين من قسم الحمام لحضور الاحتفالية التي تقام بمناسبة «يوم التذكر» في السينوتاف في وايتهول لندن، وأخيراً تم الاعتراف بالحمام.

ورغم أنّ ملصق فريدريك هنري كي هنريون «حمامة السلام» الذي نشر في عام 1944 ربط الحمام بالسلام، فقد كان تصميم بيكاسو لحمامة على ملصق للمؤتمر العالمي للسلام في عام 1949 هو الذي ربطها بالنفْس كرمز حديث للسلام. لقد باتت يمامة السلام التي تظهر على شعار الأمم المتحدة مألوفة. رغم ذلك تم تحدي اليمامة بوصفها رمزاً كونياً للسلام. فلوحة بيت لحم لبانكي هي قطعة مستفزة من الغرافيتي Graffiti تتحدى اليمام ورسالته

فريديرك هنري
كي هنريون ملصق
Dove of Peace.
.1944

السلمية التي يقترن بها.

لقد استطاع الحمام بوصفه رسولاً أنْ يقوم بالشيء ذاته خلال الحروب.

في السنوات الأخيرة بات الحمام يستخدم كشاشات وأجهزة لتحديد تلوث الجو، ففي عام 2006 كانت هناك خطة لوضع حقائب ظهرية متحركة على سرب من حمامات لترصد التلوث في الجو. طُيِّرت عشرون حمامة في السماء فوق سان خوسيه في كاليفورنيا، يحملُ كلٌّ منها جهاز استقبال يتلقى المعلومات من الأجهزة الملاحية عن طريق الأقمار الاصطناعية. كما حُمِّلت حساسات تشير إلى تلوث الهواء فضلا عن هاتف نقال. كانت آلات التصوير التي ربطت حول أعناقها بالغة الصغر وترسل صوراً للفضاء. لقد كان الحمام رسولاً

للبيئة مكملاً دور أسلافه الأسطوريين في أيام الطوفان العظيم[1].
في تلك الحكاية وجد الحمام الأول يابسة ليرسو فيها فلك نوح، وأما في أيامنا هذه فهو يساعدنا في الحفاظ على ذلك الإرث.

رياضة

أدت مهارات الحمام الملاحية الخارقة إلى تنظيم سباقات له تشبه سباقات الجياد (وأحيانا تُشبّه بسباق البلوكولار[2]. إنّ معدل سرعة الحمام الأياب ستون ميلاً في الساعة مع اندفاعات ما بين 80 - 90 ميلاً في الساعة. وقد بدأت السباقات الحديثة في بلجيكا، كان أول سباق أقيم في عام 1815. وفي عام 1819 كان هناك سباق من لندن إلى أنتويرب اشترك فيه 32 طيراً.

وفي عام 1832 جرى سباق آخر وأيضاً للمسافات الطويلة هذه المرة بين لندن وبلجيكا.

حسّن مربو الحمام البلجيك طيورهم وصقلوا مقدراتها من أجل مزيد من السرعة أثناء الطيران ومزيد من التحمل وأسموها «المستكشفون Voyageurs». انتشر استخدام هذا الحمام إلى العديد من أصقاع العالم. وبحلول العقد التاسع من القرن التاسع عشر افتتحت نوادٍ لسباقات الحمام في بلدان أوروبية أخرى. وفي إنجلترا في الأيام الأولى من السباقات كان الحمام يؤخذ بالقوارب إلى ساوثمبتون، أو في عربات تجرها الجياد أو في عربات القطار المخفورة. وفي محطة ماريليبون في لندن كان هناك كولومبادروم[3] حيث يمكن للحمامات المتسابقات أنْ ينلن قسطاً من الراحة قبل أنْ يؤخذن إلى وجهتهن. وفي أيامنا هذه يؤخذ الحمام إلى غرف النوادي ويوضع في صناديق وينقل إلى السباق. وسباقات الحمام، في

---

(1) طوفان نوح.
(2) سبق ذكرها.
(3) سبق التنويه عنها.

بلجيكا، رياضةٌ شعبيةٌ مع أكثر من 60000 من مربي حمام من أصل عدد السكان الذي يبلغ عشرة ملايين نسمة. كما أنّ لهذه الرياضة جماهيريتها أيضاً في أنحاء أخرى من أوروبا (هناك أكثر من 500 نادٍ في هولندا) بالإضافة إلى تبني هذه الظاهرة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث يبلغ عدد أتباع تلك الرياضة 10000. وجيء برياضة سباقات الحمام إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1875، وكان عام 1878 نقطة انطلاق لسباقات منتظمة بحسب تقرير صدر مؤخراً عن اتحاد سباقات الحمام الأمريكي، هناك 15000 حظيرة مسجلة في الولايات المتحدة الأمريكية. رأى البعض في هذا رياضة وحشية وشنوا الحملات لمنعها وأفلحت مساعيهم تلك في مدينة شيكاغو.

سرعان ما تتحول هذه الرياضة إلى رياضة رفيعة في مناطق في آسيا ورومانيا وتركيا، ويعود ذلك إلى الجوائز المالية الكبيرة

بانكي: بيت لحم تطلق رسالة عيد ميلاد مختلفة. سلسلة بيت لحم. كانون الأول عام 2007.



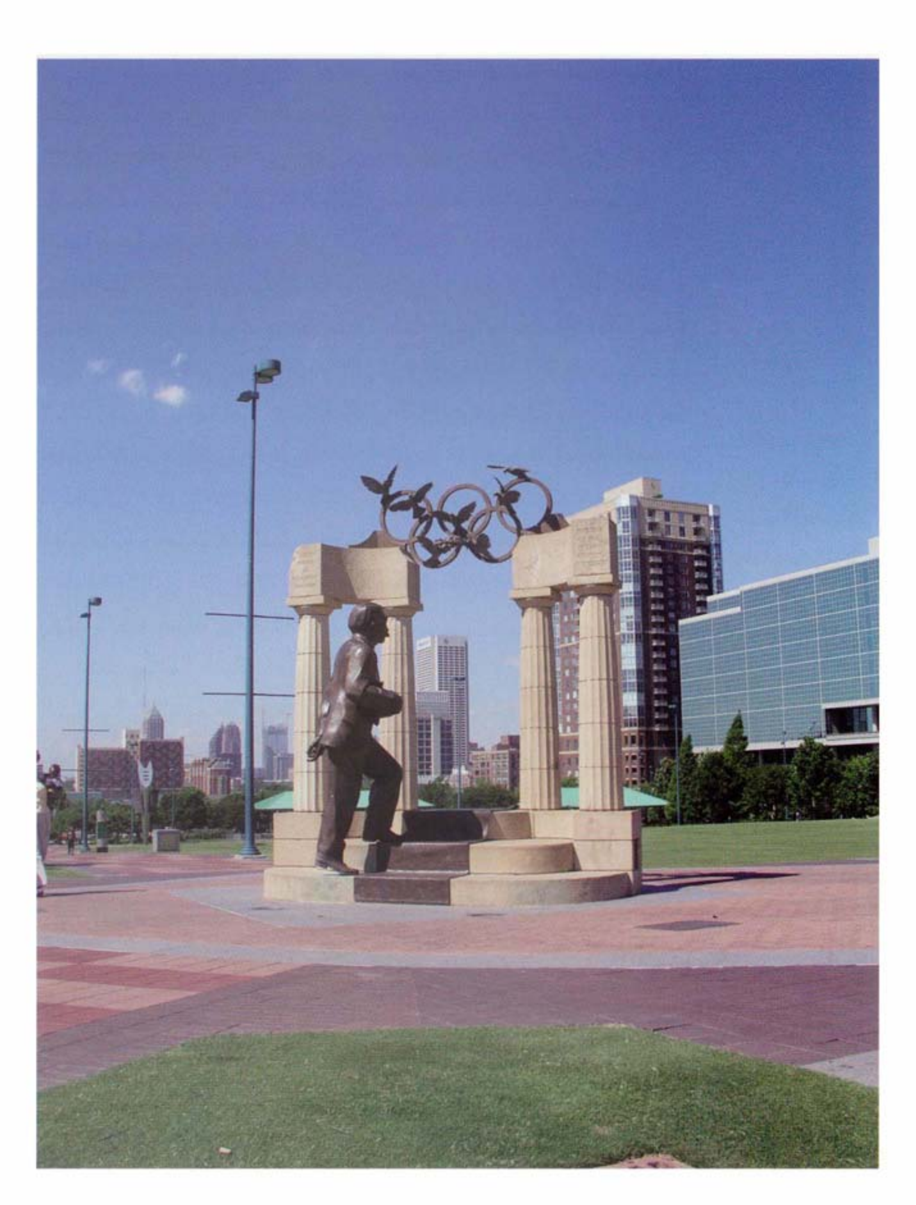
التي رصدت، فضلاً عن الرهانات الدائرة حولها. فقد دُفع مبلغ 110،000 جنيه إسترليني لقاء الحمامة «الروح التي لا تقهر Invincible Spirit» بعد أنْ فازت بسباق برشلونة التقليدي الدولي في عام 1992. لكنّ السنوات الأخيرة شهدت تراجعاً بسبب أكلاف الحياة وعمر المربين.

باتت حكاية ذكر الحمام «ملك روما King of Rome» مادة لأسطورة؛ إذ يُعدُّ «ملك روما» الذي يملكه تشارلي هدسون من ويست ديربي، أحد أشهر حمام السباقات في بريطانيا. وفي روما في عام 1913 هبّت عاصفة خربت السباق هناك، حيث لم ينجُ من ألف حمامة بريطانية اشتركت في السباق سوى اثنتين (كان حظّ الحمام البلجيكي أوفر فقد عادت اثنتان وستون من أصل مئة وعشرين). قطع ملك روما 1001 ميل وهي المسافة بين روما وديربي. ودفعت الظروف التي حقق فيها ملك روما هذا الإنجاز ديف سدربي لأنْ يكتب أغنية «ملك روما» (1983).

يؤكد بيتاها الأولان على حلم الإنسان العادي الذي يتطلع إلى السماء أو النجوم من خلال مآثر هذا الطير. فقد غير هذا الطير البطل حياة صاحبه وروحه:

«في الطرف الغربي من ديربي ثمة عامل
يقول: «لا أستطيع الطيران، لكن طيوري تستطيع»
عندما أطيّرها، تبدو جزءاً مني
رُفِع على أجنحة وضاءة.
أعرف بأنَّ الإنسان يزحف، أو يستطيع أنْ يتعلم الطيران.
لكنني يجب أنْ أحاول
وإنْ عاش المرء هنا، فلسوف تبدو الأرض كريهة.
أحياناً أحتاج إلى أنْ يأخذني النصر بجناحيه ويحلق بي».

بالطبع إنّه أكثر من فوز، رغم أنه حدث مثير بحد ذاته، فبالنسبة



لمربي الحمام الكادحين، هي الإثارة التي تنجم عن حلم الفوز والأمل بالفرار من المشكلات وحالة الفقر التي يعيشون فيها.

يُقابل مربو الحمام في أيامنا هذه بكثير من الاحترام، رغم أنَّ الأمر لم يكن كذلك على الدوام. ففي إنجلترا لم ينظر إلى مربي الحمام باحترام قبل عام 1858 عندما نشر جون ماثيوس إيتون كتابه Treatise On the Art of Breeding and Managing Fancy Pigeons بل عُدُّوا موضع شبهة وارتياب. فقد صُنِّف في الخانة ذاتها التي وضع فيها صيّادو القوارض[1]، وسارقو الكلاب.

ثمة سؤال يتعلق بالكيفية التي يُنظر إلى الحمام من قبل مربيه، ومن قبل من يشركونه في السباقات. هل يتعاملون معه كسلعة تعود عليهم بالنقود؟ أم يتعاملون معه شأن رياضيين؟ لقد تلقى كبير مربي الحمام هايدن بوغل عرضاً من طاهية البرنامج التلفزيوني Two Fat Ladies كلاريسا ديكسون رايت لتزويدها بحمام لمطعم أحد أصدقائها. وقد اعتذر هايدن بقوله: «لا أستطيع، فأنا لا أتناول لحوم أصدقائي».

تحدث أحد الذين يشركون الحمام في السباقات عن تلك الرابطة الوثيقة مع الحمام بقوله: « كان أحدهم يملك طيراً اسمه كارمن، حنَّطه بعد أنْ مات. هي ذي علاقتنا مع الحمام. لسنا مثلكم نقتل كلابنا عندما تخسر السباقات. وتطلقون على الجياد ما يسمى رصاصة الرحمة عندما يتقدم بها العمر، رغم فوزها بسباقين، ليرسل بها إلى المصانع جثثاً هامدة. الحمام بالنسبة إلينا أمر شخصي جداً».

Gateway of Dreams فيها تمثال للبارون بيير دي كوبيرتين. سينتينيال أوليمبك بارك، أتلانتا، جيورجيا. 1996.

ومن الشائق أنْ ننوه أنّ تشارلز داروين كان يعتقد الشيء نفسه؛ فقد كبر شغفه بالحمام حتى أنه لم يعد يستطيع أنْ يقتل أو يُشرّح

(1) في الأصل Rat Catcher وهي المهنة التي درجت الحكومات سيما في المدن على تشجيعها للتخلص من القوارض والجرذان.

الطيور التي باتت صديقة له. ففي عام 1860 دخلت قطة ابنته إيتي حظيرة الحمام وقتلت بعضاً منها. ولم يكن من داروين إلا أنْ قتل القطة وهذا ليس من شيمه. يقول الكاتب مايكل بولتر في كتابه Darwin's Garden: إنّ السبب وراء انفجار غضب داروين في تلك الحادثة الحزن الطاغي الذي كان يمرُّ به جراء موت آني ابنته الأثيرة على قلبه قبل ذلك بتسع سنوات عندما كانت في العاشرة من العمر، أكثر منه ردة فعل على فقدان طيوره التي كانت الوسيلة الرئيسة في بحوثه التي أدت إلى نظريات الاصطفاء والتكيف.

شكل اليمام جانباً من الألعاب الأولمبية الصيفية أولاً في عام 1896 ومن ثم في عام 1920. بعد أنْ أُضيئت الشعلة طُيّرت اليمامات كرمز للسلام. كان تنظيم الحدث أمراً بالغ الأهمية، لكنه لم يكن كذلك في دورة سيؤول للألعاب الأوليمبية عام 1988. فقد نظر العديد من الحضور بخوف عندما بقيت اليمامات في منطقة الشعلة حيث أحرقن أحياء عندما أضيئت الشعلة. ومن الجدير ذكره أنَّ دورة الألعاب الأولمبية التي أقيمت في عام 1900 كانت الأولى والأخيرة التي تطلق فيها حمامات حية. فإنْ كانت الحمامات البيض قد شكّلت جانباً من مراسم حفل الافتتاح في عام 1900، هل أقيمت وقتها صلة بين السلام وإراقة الدماء؟

لقد وقفت الأحداث الأخيرة في المملكة المتحدة في وجه إمكانية اعتبار سباقات الحمام رياضةً. وقيل لمربي الحمام بوجوب دفع تكاليف مهنتهم تلك، ذلك أنها بقيت من دون أنْ يعترف بها كرياضة. وكتب أحد النوادي إلى الملكة بوصفها راعية لجمعية الحمام الملكية: «سيضطر مربو الحمام إلى أن يدفعوا ضريبة عن الحظائر التي يحتفظون فيها بسلال السباق؛ لأن تلك الهواية لم يعترف بها كرياضة.» وقال الناطق الرسمي في HM Revenue and Customs: «لم تُدرج سباقات الحمام واحدةً من الرياضات المؤهلة

لمنحها أموالاً واعتبارها جزءاً من الأعمال في ظل خطة جمعية نادي الرياضات للهواة».

ضربة أخرى تلقتها هذه الرياضة في عام 2007 تجلّت في حظر البرلمان البريطاني سباقات الحمام من برٍّ القارة الأوروبية إلى بريطانيا بسبب مخاطر نقل أنفلونزا الطيور. لكن بريان سمبسون عضو حزب العمال في البرلمان الأوروبي دعم رفع الحظر عن مربي الحمام معلناً بأنَّ الحمام لا يحمل سوى مخاطر قليلة فيما يتصل بأنفلونزا الطيور.

ثمة جانب مظلم آخر يتجلى في رياضة الرماية. فقد حُظّرت هذه الرياضة في بعض الدول، إذ استبدل الحمام الحي بآخر من الطين. لكن في بلدان أخرى ورغم ذلك ما تزال هذه الرياضة مستمرة والأهداف بالطبع هي حماماتٌ حقيقيةٌ التي يتم الحصول عليها بنصب الشراك لتؤخذ بعدها إلى نوادي الرماية. عموماً حُظرت هذه الرياضة في الولايات المتحدة الأمريكية، ربما لأنَّ أهداف تلك الرماية حمام، وليست حيوانات جذابة. وينصب صيادو الحمام غير الشرعيين في الولايات المتحدة الأمريكية الشراك لهذه الطيور



بدء أحد سباقات الحمام، نيويورك 1915.

في مدينة نيويورك، وعندما يصلون إلى منطقة الصيد تكون هذه الطيور في الغالب تتضور جوعاً، وتصارع للبقاء على قيد الحياة. يُترك العدد الكبير من الحمام للموت، أو تطؤه الأقدام أو يرمى به إلى النفايات. في نيويورك ثمة حركة سرية راديكالية تضم مواطنين مسؤولين يخفرون الشوارع ويخربون خطط الصيادين غير الشرعيين. بيد أن التغييرات في تشريعات حماية الحمام من هذه الوحشية لن يأتي بها سوى الزمن والثقافة.

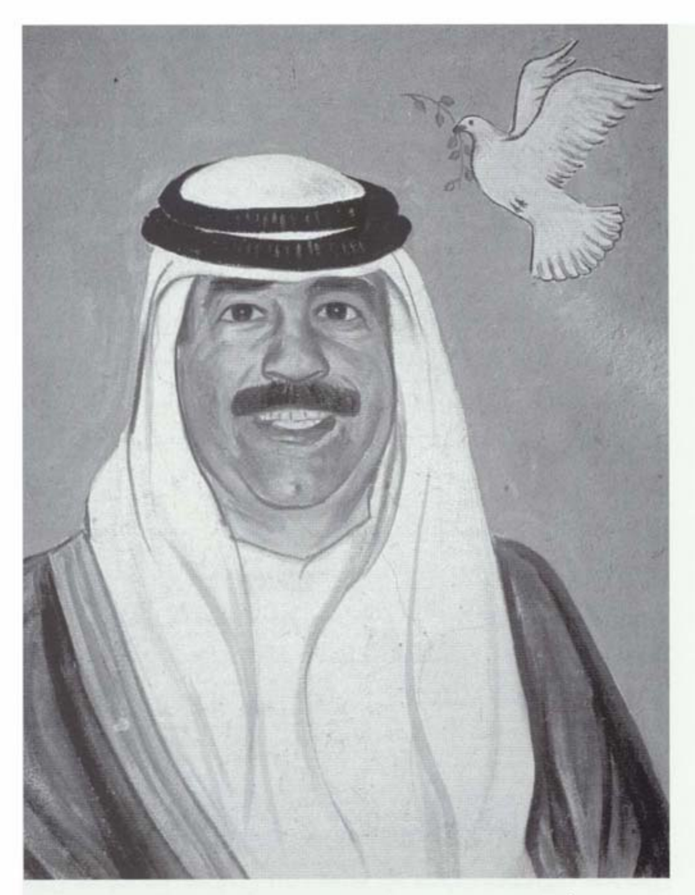
4 - مرغوب به أم عنه، الحمام واليمام في الأدب والفن والثقافة

ألهم الحمامُ واليمامُ فنانينَ وكتاباً عبر القرون. فقد استمر حضوره من أعمال الموزاييك والأيقونات إلى النحت والشعر والرسم والمسرح. أحياناً كان الحمامُ واليمامُ يُضمّنان في الأدب لأهدافٍ تتعلق بإسداء التوجيه والإرشاد، وفي أحايين أخرى، كان الهدف منه مجرد المتعة. وبسبب هذه العلاقة التي أقمناها مع الحمام لآلافٍ من السنين، حاول الفنانون أسر تلك الشراكة في المقدس، ووظفوه رسولاً، وصوروه منارة وهدياً تشير إلى «الغريب»؛ إلى ما بعد العادي. كما استخدموه دلالة على المثل الأعلى المتملص المحير الذي تتوق قلوبنا إليه، أي الحرية والسلام.

يظهر الحمام أو اليمام في الأدب عادة لسبب من أربعة: أولاً، لمدِّنا بحقائق، أو لتجسيد رمز الحب، أو كمادة للكراهية والعزوف عن أمر ما، أو كوسيلة للتعبير عن التزام أخلاقي. يتفرّد الحمام/ اليمام في أنه يقبع في قطبي المشاعر المتقابلين، الحب والكراهية. يؤكد هذا ومن جديد على التعارض والانقسام الكامن بين هاتين العاطفتين.

الحقائق

ذُكِر الحمام في الآداب الإغريقية والرومانية، لتوضيح الحقائق. ففي حديثه مع غلاوكن Glaucon في كتاب «جمهورية» أفلاطون (الكتاب الخامس)»، يشير سقراط إلى الاصطفاء في سلالات الطيور. وفي «تاريخ الحيوان History of Animals» تظهر معرفة أرسطو الجيدة بميزات الحمام وعاداته من خلال إشاراتٍ وإحالاتٍ عديدة إليه. ففيه يصف أرسطو خمسة أنواع من الحمام البري، وجميعها معروفة في أيامنا هذه.



فرانسوا دي كولدير
«صدام حسين»
.1990

وفي الأدب الروماني يناقش فارّو Varro في كتابه De rerum rusticarum الأثمان المرتفعة التي كانت تدفع لقاء الحصول على الحمام. كما نوّه أيضاً إلى أنّ الحمام يتناسل على مدار العام ما خلا شهر شباط، لربما كان هذا أصل هذه المغالطة. كما ذُكر الحمام في أعمال كاتو الأكبر Cato the Elder، وفيرجيل Virgil، وبليني

Pliny، وجوفينال Juvenal (الذي ذكر انتشار الحمام في سقائف روما). وكتب أيليان Aelian عن عادات الحمام في وضع البيوض، منوهاً إلى أنّ الحمام يضع بيضتين، الأولى يفقسها الذكر، وأما الثانية فمن نصيب الأنثى. وهذه أيضاً، مغالطة.

وكما ذكرنا من قبل، لعب الحمام دوراً في الميثولوجيا الرومانية والإغريقية. ففي الأخيرة، كانت اليمامة هي الوسيلة التي عبرت



فتاة تحمل يمامة، صورة باللون البني الغامق 1902.

بها سفينة الأرغوناتوس صخرتي سيبملغيدز[1]. وفي عام 1592 سمّى الفلكي ورسام الخرائط الهولندي بتروس بلانسيوس Petrus Plancius مجموعة من النجوم تقع خارج مجموعة كاني ماجور Canis Major بوصفها Columba «كولومبا» (اليمامة). وتُعرف هذه المجموعة أحياناً بكولومبانوشي ColumbaNoachi (وتشير إلى اليمامة في حكاية فلك نوح) أكثر مما عرفت بكولومبا بإحالتها الميثولوجية الإغريقية إلى حكاية الأرغوناوت.

وكان لبعض الكتّاب اهتمامات عميقة بالحمام وسلالاته. إذ



حمام النيكوبار رسم أخذ من الواقع. جورج إدواردز كانون الثاني 1761 من كتاب Gleanings of Natural History iii (لندن 1764).

(1) انظر الفصل الثاني.

كان شكسبير مربياً للحمام أو أنه كان يعرف مربين. فكتاباته تصف أحياناً خصائص الحمام التي لا يمكن استشفافها إلا بالرصد الدقيق واللصيق. ففي مسرحية «على هواك» (الفصل الرابع المشهد الأول) تقول روزاليند إلى أورلاندو:

«لعمري لأكونن أشدّ عليك غيرة من ذكرى حمام الزاجل على أنثاه».

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي تُذكر فيها سلالة بعينها في الأدب الإنجليزي والتي جاءت على لسان روزاليند. كما أشار شكسبير إلى معرفته بسكينة اليمام ووداعته مقترنة بغريزته الأبوية القوية التي تتجلى في حمايته لصغاره. في مسرحية هنري الرابع الجزء الثالث (الفصل الثاني المشهد الثاني):

ستتغير أدنى دودة
بعد أنْ تطأها الأقدام
وينقرها اليمام
لحماية صغارها



حلية 1798- 1809 فرنسا. ذهب أحيط بعجينة.

كشف تشارلز ديكنز عن معرفة واسعة بالحمام وبسلالات معينة منه في روايته «Barnaby Rudge»:

كانت هناك حمائم في ساحة الإسطبل الموحشة وخارج المباني، وكان لا يستطيع تقدير أعداد الحمائم إلا صاحب الإسطبل. ربما لم يكن تحليق تلك الطيور الذي اتخذ شكلاً دائرياً، من حمام الرنتس[1] إلى حمام ذيل المروحة Fantail وصولاً إلى الحمام البهلوان، انتهاء بالبوتر، في حال من التناغم مع الطابع الرزين والثقيل للمبنى، لكن صوت الهديل الرتيب الذي صدحت به بعض تلك الطيور طوال النهار، كان ملائماً للمكان وبدا وكأنه يترنم له بتهويدة كيما ينام.

---

(1) Runt وتعني أصغر وأضعف أفراد العائلة أو المجموعة.

اقتبست رواية بياتريس بوتر[1] The Tale of The Faithful Dove التي كتبت في عام 1907 عن قصة حقيقية. نشرت الرواية بطبعة محدودة بعد وفاة الكاتبة. ورغم إعادة طباعتها مذاك، فقد بقيت غير معروفة كثيراً حتى بين المعجبين ببياتريس ذلك أنَّ النص الأصلي لم يحمل رسوماً. تحكي الرواية أشياء عن إخلاص زوج من الحمام وولائه بعضه لبعضه الآخر. كما تأتي بوتر على ذكر دور الحمائم في تهريب أشياء، وتكشف عن عين خبيرة بالسلالات المختلفة وبعادات تلك الطيور في بناء أعشاشها. (كانت بوتر تعرف أنَّ ثمة يوماً يفصل بين وضع البيضة الأولى والبيضة الثانية). والمفاجئ حقاً ألا تكون تلك الحكاية على قدرٍ من الشهرة، فمعلوماتها الدقيقة عن عادات الحمام والسلالات ودورها في التاريخ جنباً إلى جنب مع البشرٍ يجعل منها حكاية تمدنا بمعلومات وحقائق عن الحمام.

كلُّ البشر يعرفون أنّ الحمام عاش بيننا لآلاف السنوات، وتكيف بسهولة تامة مع الأسلوب المعماري للمدن وأفاريزها العديدة ومبانيها التي تشبه الجروف الصخرية.

وتوفر هذه الأمكنة (الكوى) المحمية أو الارتجاعات، حماية لصغار الحمائم. يتساءل بعض سكان المدن عن السبب الذي لا يجعلهم قادرين على رؤية أفراخ الحمائم. لقد طُرح هذا السؤال على الكاتب الراحل إي. بي. وايت[2]:

سؤال: «برأيك هل سبق وأنْ رأى أحد زغلولاً في مدينة نيويورك»؟

جواب: بالطبع حدث ذلك. فقد سجلت حالات عديدة. ففي ظهيرة هذا اليوم بالذات رأيت بأم العين زغلولاً في عشّ في المبنى رقم 813 من الجادة الخامسة في الطابق الثالث ذي الواجهة الأمامية

---

(1) Beatrix Potter 1866-1943 كاتبة قصص أطفال إنجليزية.

(2) E.B.White كاتب أمريكي اشتهر بالعديد من الكتابات عن الأطفال.

على بعد خطوات من حانة كارلتون هاوس، ويطلُّ على حلبة ركوب الخيل في سنترال بارك. كما يتمتع العش بعنوان عصري ينتمي إلى المدرسة الباروكية لأعشاش الحمام.

الحب: دنيوي وديني

تجسدت جاذبية اليمام بالنسبة للعديد من الكتاب والفنانين وما تزال، في اقترانه بالحب والتودد وفن الغزل. عموماً، اليمام وليس الحمام هو الذي ارتقى إلى ذرى العاطفة الشاهقة المدوّخة. وقد عبّر العديد من الفنانين عن هذا الحب وذلك الافتتان من خلال الأدب أو الموسيقى أو الفن. ومن حين لآخر كانوا يعبرون عنه بطريقة أخرى. فقد أشارت إليزابيث باريت براوننغ[1] إلى عاطفتها الجمّة لليمام. وكان زوج يمام هدية هو خير تعبير عن تمنياتها إزاء صديق. فقصيدتها «My Dove» هي في جانب منها إقرار بالدروس التي استقتها من يماماتها:

أي يماماتي الصغيرات!
علميني صفوة الحكمة!
لأمشي
في شوارع المدينة،
بقلب مطمئن إلى حب مقدس
وأغنيات كأغنيتي تلك
ينبوع مجهول للعالم

كما سطّر شعراء فيكتوريون آخرون قصائد تحدثت عن الحب الرومانسي. وليس غريباً، أنْ يقارن روبرت براوننغ[2] حبه (ربما كان لإليزابيث؟) بيمامة:

(1) Elizabeth Barrett Browning 1806-1861 شاعرة ومفكرة سياسية إنجليزية.

(2) Robert Browning 1812- 1889 شاعر إنجليزي.





بطاقات تعود إلى فترة ماضية تصور الاقترانات الثقافية باليمام بطرق عديدة، من كونه رمزاً للبراءة والطهارة، إلى كونه يحمل العاطفة والمشاعر.

كيف تقولين؟
أي يمامتي دعينا
نحرر أرواحنا...

كما أقام الشاعران تينيسون Tennyson في قصائده Locksley Hall وGardener›s Daughter وMaud ووردزورث Wordsworth في قصيدته «العندليب» التي يقول فيها: «يقين أنك فن»، صلة ما بين اليمام والمشاعر الرومانسية. أحياناً تقيم كلمات الأغنيات مقارنة بين الحبَّ وإخلاص اليمامة. كما أنَّ تلك الكلمات تصف المشاعر الجسدية. فعبارة «يرفرف بجناحيه» تقترن بالحب الرومانسي عندما تحلق المشاعر. وما يجعل من هذا الاقتران طبيعياً ويسيراً هو التقافي مابين كلمة Love وDove بينما الأمر غير ذلك مع كلمة Pigeon.

وأما الأمثلة فكثيرة وتضمُّ أعمالاً موسيقية نالت جماهيرية كبيرة ومن مختلف الحقب شأن أغنية on the wings of a dove (على جناحي يمامة) التي اقتبسها فيلكس مندلسون[1] من المزامير

(1) Felix Medelssohn 1809-1847 مؤلف موسيقي ألماني وأحد الشخصيات

يمامة ووردة. ويليام موريس تصميم لستائر منزلية.



الإصحاح -55 الآيات 1-[1]7.

تم تصوير الحمام واليمام بوصفها تساعد من يبحث عن الحب. ففي فيلم Enchanted[2] الذي أنتج عام 2007 تجد بطلة الفيلم الأميرة جيزيل نفسها في مدينة نيويورك الحديثة. بينما في نسخة والت ديزني من فيلم سندريلا الذي أنتج في عام 1950، نرى الطيور

الطليعية في رومانسية مطلع القرن التاسع عشر في اوروبا.

(1) «فقلت ليت لي جناحاً كالحمامة فأكبر وأستريح».

(2) قامت بدور البطولة فيه الممثلة آمي آدامز وباتريك ديمسبي وأخرجه كيفن ليما. ورشح لثلاث جوائز أوسكار. واللافت أنّ النجمة سوزان ساراندون اشتركت به في دور ثانوي. وأما جولي أندروز فقامت بدور الراوية.



إرنست فيليب زكريا.
امرأة مع حمام عام 1883. رسم بالزيت على كنفا.

الصغيرة شأن عصافير الدوري تساعد سندريلا في أعمال المنزل، فالحمام الكبير في مدينة نيويورك (وهو هنا عصافير الدوري) يساعد الأميرة جيزيل.

في فيلم «دونكي سكين»[1] (إخراج جاك ديمي 1970)، وهو تنويع على حكاية سندريلا لتشارلز بيرو تظهر اليمامات في العديد من المشاهد. ففي ساحة القصر، نجد الأميرة جالسة وتعزف على الهارب تغني عن الحب. تحيط بها حمائم الفانتيل[2] البيضاء. وبالفعل يظهر العديد من تلك الحمامات في جُلّ مشاهد الفيلم.

---

(1) ظهر في النسخة الفرنسية بعنوان Peau d›ane وأخرجه جاك ديمي وقامت بدور البطولة فيه أسطورة فرنسا السينمائية كاترين دونوف

(2) Fantail سبق التنويه عنها.

وحتى في غرفة نومها، ثمة برج حمام بالقرب من سريرها مع العديد من حمامات الفانتيل فيه وعليه. يمثل اليمام البراءة والطهارة، ويؤكد على إلماحات وتضمينات خطرة. وبصرف النظر عن البراءة والكوميديا في فيلم enchanted نجد اليمام في فيلم Donkey Skin يكشف عن ثيمة Theme أكثر ظلاماً في الحكاية، من خلال ترميز براءة الأميرة مقابل انعدام الأخلاق عند أبيها المستعد لانتهاك تابوات[1] سفاح القربى أثناء سعيه للزواج منها.

في الغالب تشير الكتابات التي تتناول اليمام إلى حب مختلف، أي حبّ الله. أحياناً يجبرنا هذا الحب الإلهي على أنْ نقيم مقارنة بين حبّ الله، وحبنا نحن الذي يعكسه سلوكنا الأخلاقي.

في «الفردوس المفقود»[2] يأخذ جون ملتون الخلق بعين الاعتبار متخيلاً الله يحتضن العالم، شأن اليمام الذي يحضن بيوضه ليفقسها، ليأتي بكل شيء إلى الوجود. بعد أنْ يهيمن عليه إحساس عميق بالخوف والخشية، يسأل ملتون الله العون، ذلك أنَّ إدراك قوة الله وخيره، يشتغل كمرآة لروحه. يعرف ملتون في صميم قلبه أنه فشل:

وجدت منذ الأزل

وبجناحين جبارتين انبسطا

مثل يمامة جلست تحضن اللجّ المهول

ليحبل: ما فيَّ، تنوّر مظلم

ما هو واطئ ينهض

ويدعم[3]

أما ويليام بليك[4] فيجهر باحتجاجه على احتفاظ البشر

(1) Taboo محرمات.

(2) Paradise Lost ملحمة شعرية خطها الكاتب الإنجليزي جون ملتون في عام 1667.

(3) الترجمة للمترجم.

(4) William Blake شاعر ورسام إنجليزي (1757-1827) أبدع شكلاً شعريا =

بطيورها ضمن أقفاص. يحاجج بليك، بأنّ ذلك ليس وحشية فقط، بل هو أيضاً ضد «المخطط الإلهي»:

إنّ بيت اليمام المتخم بالحمام واليمام، يهزّ جهنم في كل أرجائها.

وأما قصيدة جون كيتس[1] بعنوان The Dove فهي مؤثرة. إذ تقابل بين ما حدث ليمامة الشاعر مع سذاجته ووحشيته غير المقصودة:

ماتت حلوتي يمامتي
التي كانت....
ظننتها ماتت حزناً
ولكن أيّ حزن هذا؟!
فقد أوثق منها القدمان
بخيط ناعم
حاكته يداي.

كما ظهرت عدة كتب مصورة ركزت على «عيد الميلاد Christmas» منها Memories of the Manger لميشيل ميدلوك أدامز، وفيه تروي اليمامة حكاية «مولد الإنسان». وفي كتاب Animals' Christmas Carol لهيلين وارد، يغني كل من الحيوانات أغنية عن هدية قدموها إلى المسيح في طفولته Christ Child. فهدية القمريات[2] له كانت أغنية. وأما الهدية فيذكرها جوزيف ويلكون في كتابه Thomas and The Dove.

وفيها يقدم توماس «للمسيح الطفل» يمامة بسيطة صنعها من الخشب بيديه. كان توماس محرجاً ومرتبكاً؛ ذلك أنّ الآخرين قدموا هدايا أثمن من هديته وأكثر سخاءً. وفي اللحظة التي يمد فيها يسوع

= مصوراً غير مألوف تميز برؤى صوفية غامضة.

(1) John Keats شاعر إنجليزي كبير (1795-1821).

(2) Turtledove ورد ذكرها في الفصل الثاني وترجمها الكتاب المقدس باليمامة.

يده لأخذها، تبسط اليمامة جناحيها وتطير، حية ترزق. لم يكتف المسيح بقبول الهدية، بل حوّلها إلى يمامة حقيقية دلالة على شيء أعظم من مجرد طير صُنع من خشب.

أما أغنية The Twelve Days of Christmas المعروفة كما شجرة عيد الميلاد والبهشية[1]، فقد انطلقت كفكرة ثورية. في إنجلترا فيما بين عامي 1558 و1829، حُظِر على المسيحي أنْ يكون كاثوليكياً؛ فخلال هاتيك السنوات مُنع الكاثوليك من ممارسة عباداتهم وشعائرهم الدينية، سواء في السرّ أم في العلن، لذا اخترعت الشيفرات والرموز بغية تعليم أطفال الكاثوليك أسس معتقداتهم. تجلت واحدة من سبل التذكر تلك في أغنية Twelve Days of Christmas[2] التي قيل إنها كُتبت كأغنية لتعليم الديانة المسيحية على شكل سؤال وجواب قبل المعمودية Catechism. وتبعاً لها، فإن اليوم الثاني من الأيام الاثني عشر من ميلاد المسيح، هي كناية عن العهدين القديم والجديد[3].

(1) Holly وتسمى أيضاً شرابة الراعي أو الآس البري. وتسمى في سوريا «حب الديس» نبات بثمار حمراء تشبه التوت وأوراق دائمة الخضرة تستخدم أفرع وأغصانها للتزيينات في عيد الميلاد.

(2) أيام عيد الميلاد الاثني عشر هي الأيام الاحتفالية التي يبدأ بها عيد ميلاد يسوع. تبدأ في الخامس والعشرين من كانون الأول وتمتد إلى الخامس من كانون الثاني من كل عام.

(3) وفيه نقرأ:

في اليوم الثاني من عيد الميلاد

أرسل حبي الصادق لي

يمامتين

وحجلاً

في شجرة كمثرى

متى باتت الكراهية التي قوبل بها الحمام المتواضع ممارسة شائعة في الثقافة الغربية؟ بالرغم من أنّ المجتمع لم ينظر بكثير من التقدير والاحترام إلى مربي الحمام أو إلى الذين يشركونه في السباقات، فإنّ الفكرة التي تقول بوجوب كراهية الحمام والخشية منه وضرورة التخلص منه، هي ظاهرة حديثة نسبياً.

قيل: إنّ فيلم وودي آلان[1] Stardust Memories الذي أنتج في عام 1980 كان صاحب السبق في ابتكار عبارة «جرذان السماء»[2] التي أطلقت على الحمام واستخدمت لتوصيف الحمام البري. ليس واضحاً فيما إنْ كان وودي آلان هو من صكّ هذه العبارة، لكنها كانت المرة الأولى التي استخدمت فيها في فيلم جماهيري، ففي الفيلم نرى «ساندي بيتس» لعب الدور وودي آلان، يذعر من حمامة تدخل شقته. تنعكس وجهات النظر المتعارضة في ردتي فعل ساندي وزوجته دوري التي لعبت دورها الممثلة «شارلوت رامبلنغ»:

دوري: ياله من طير جميل!

ساندي: لا، إنه ليس كذلك إنه أحد جرذان السماء.

دوري: لا! لا أتفق معك، ربما كان ذلك فأل خير. مؤكد أنه سيأتي إلينا بحظ جيد.

ساندي: أبداً، أخرجيه من هنا. ربما كان أحد الحمام الفتّاك.

دوري: دعنا نطعمه، ونلاطفه كي يبقى.

يرى ساندي مُطْفِئَةَ حريق.

ساندي: أوَ رأيت، انظري إلى الصليب المعقوف[3]!

هل يمكن أنْ تكون عبارة «جرذ بجناحين» جاءت من ملاحظة

---

(1) Woody Allen كاتب وممثل ومخرج سينمائي أمريكي اشتهر بأفلامه التي تتناول شخصيات عصابية.

(2) Rats with Wings انظر الفصل الأول.

(3) صليب النازية

وردت في كتاب لليافعين:

هناك اختبأت حمامتي المميزة

في قالب من أوراق الشجر تحت السياج.........أهي جرذ؟

هَسهَس ورجع إلى الوراء

هل هي جرذ بجناحين؟



يستخدم اليمام أحياناً في السخرية والهجاء السياسي بوصفه رمزاً لمثل أعلى وسقوط هذا المثل. درويش أحمد درويش. جورج بوش.

كشّرتُ في وجهه.

من بين المصطلحات الساخرة الأخرى هناك: «جرذان السماء»، و«نسور المجارير (=قنوات مياه التصريف الصحي)»، و«صقور المزاريب». وتتحدث كلمات أغنية توم ليرر[1] (Poisoning Pigeons in the Park 1959) عن نزهة إلى الحديقة يُطعَم فيها الحمام بازلاء فيها سم السيانيد. وفي الوقت الذي نجد فيه كراهية علنية للحمام، تتوجه كلمات الأغنية إلى موضوعات أخرى شأن التودد والضجر، وبالطبع يكون فيها الحمام هو شخصية ثانوية يحفز على أحداث أخرى.

لقد كُتب عن الحمام من خلال الإشارة إلى الحرب والاضطهاد. ففي رواية «الزنبقة السوداء Black Tulip» يحكي لنا الروائي ألكسندر دوماس حكاية «كورنيليوس فان بايرل» السجين في «لويفستين» بتهمة سياسية ضد ويليام أمير أورانج. ففي أثناء وجوده في السجن، يأسر «فان بايرل» حمامتين ضالتين من «دورت»، وتستقر الحمامتان في زنزانته ويبدأ بتطييرهما مع رسائل تؤدي أخيراً إلى حريته.

يرمز استخدام الحمام أحياناً إلى قوى الظلام كما في القصة القصيرة Pigeons للكاتب «إسحق باشيفيز سنغر» التي تتحدث عن وارسو خلال ثلاثينيات القرن المنصرم، وفيها يموت البروفسور فلاديسلاف إيبيشوتز نتيجة للأذيات التي صبّها عليه أعداء السامية[2]. كان البروفسور يحب الطيور ويطعمها في شقته وخارجها. ويمثل الحمام الضعفاء من البشر أي الأهداف السهلة، بمعنى آخر اليهود الموجودين في هذه الرواية. لكنه (الحمام) يتحول إلى قوة جبارة فيما بعد. خلال موكب جنازة البروفسور باتجاه

---

(1) Tom Lehrer موسيقي أمريكي.

(2) المقصود من يكرهون اليهود.

المدينة القديمة يطير الحمام في أعلى الموكب.

«تزايدت أعداد الحمام بسرعةٍ كبيرة حتى غطت السماء بين المباني على كلا طرفي الشارع الضيق، وبدت وكأنها في حالة كسوف. تتوقف الحمامات معلقة في الهواء لدقيقة، بعد ذلك ترافق الموكب من خلال الدوران حوله ضمن مجموعة شكلتها.

ربما تعكس هذه الإشارة الإيجابية التي اختتم بها سينفر قصته، شيئاً من نفسه هو، ذلك أنه كان يحب الحمام. عندما مشى في شوارع نيويورك حول برودوي يحمل كيساً ورقياً بنياً تملأه البذور التي تأكلها الطيور، كان الحمام يطير باتجاهه من على بعد عدة مبانٍ.

وتروي قصيدة آبا كوفنر My Little Sister حادثة جرت خلال الهلوكوست[1] يكتب آبا عن محاولة والده العثور على مكانٍ آمن لشقيقته في الدير. عندما تصل شقيقته إلى بوابة الدير، تلتقيها تسع راهبات واقفات مع يمامات (يمثلن البراءة) فتقوم اليماماتُ بتناول الطعام من أيدي الراهبات، ربما كان ذلك يوحي بالحماية أو الرعاية.

وتمضي مذكرات برنارد غوتفرايد عن الهلوكوست المعنونة Anton the Dove Fancier قدماً بموضوعة الاضطهاد. ويحكي غوتفرايد عن مراقبته لجاره أنتون الذي يربي الحمام والذي يعتقله الغستابو الألماني بعد احتلال بولندا. ويقوم النازيون بالإيعاز بجلب حمامات أنتون، لكنهم يصابون بالدهشة لموتها داخل البرج عندما ذهبوا ليجمعوها. تلصق بأنتون تهمة التخريب ليُرحّل بعدها إلى المعتقل. عندما يُرسل غوتفريد إلى معتقل «مجدانيك» النازي، يلتقي بأنتون الذي تحوّل الآن إلى «كابو»[2]. وفي آخر ترحيل للسجناء من معسكر الاعتقال، يُقتل أنتون على أيدي السجناء بسبب المعاملة

(1) المحرقة اليهودية المزعومة.

(2) Kapo سجين في المعتقلات النازية خلال الحرب العالمية الثانية يحتل مرتبة إدارية متدنية.

بابلو بيكاسو

حمامة السلام

.1949

الوحشية التي كان يصبّها عليهم. بعد الحرب يعود برنارد إلى رادوم[1] بلدته الأم، وهناك يلتقي بزوجة أنتون التي تعترف له بأنّ زوجها (أنتون) كان رجلاً متوحشاً لم يحب في حياته سوى حمائمه ربما لأنهما لم ينجبا أطفالاً، ولم يكن لطف أنتون يبرز إلا مع حمائمه. وبالتأكيد ليست هي الطريقة ذاتها التي يتعامل فيها مع زوجته، أو تلك التي تعامل بها مع السجناء الذين كانوا تحت عهدته في معسكر الاعتقال (باستثناء غوتفريد الذي يتذكره بوصفه الولد الذي كان يراقبه وهو يطيّر حماماته، ولذلك كان يساعده بالطعام واللباس). يبرز غلاف الكتاب صورة لافتة ليمامة بيضاء وقعت في شرك خلف الأسلاك الشائكة للمعسكر: البراءة والعجز عن الطيران والطهارة وقد سجنها الشر.

---

(1) Radom بلدة في شرقي بولندا.

وفي حكاية أخرى عن السجن والاعتقال نُقلت تلبية حاجات الحمام بوصفها تجربة تحول أخرى. ففي رواية الكاتب التشيكي بوميل هاربل I Served The King of England يُسجن أخيراً ديتي النادل في براغ والشخصية الرئيسة في الرواية. أما مهمته اليومية فتتجلى في إطعام 200 زوج من الحمام الحامل للرسائل الذي تم التخلي عنه. وتتحول هذه المهمة إلى فرحة يومية ومن ثَمَّ إلى خلاصه.

الأمر الأخلاقي

في خرافات يعسوب[1]، يعالج العديد من الحكايات اليمام والحمام للتأكيد على دروس أخلاقية رئيسة. توضح حكاية «الطعوم واليمام The Decoys and the Doves» ممارسة الإيقاع بالطيور ودور الحمام الطعم[2] فيها. يرمي صائد الطيور شبكته ويربط فيها عدداً من اليمامات الداجنة لكي يجذب اليمامات البرية. بعد أنْ ترى تلك الأخيرات اليمامات العالقات في الشبكة يطرنَ إليهن ويقعن في الشرك. وعندما ترى اليمامات البريات صائد الطيور ويدركن بأنهن خدعن يغضبن من اليمامات الداجنات اللواتي كان من المفترض أنْ يحذرن شقيقاتهن البريات. وثمة خرافة أخرى بعنوان «النملة، والحمامة وصائد الطيور The Ant، The Pigeon and The Bird-Catcher » تشير إلى التملص من صائد الطيور من خلال تدخّل النملة التي ردت من خلال ذلك جميلاً سابقاً للحمامة.

وتعكس حكايات أخرى براءة اليمامة المفترضة (أو سذاجتها)، في حكايتي «اليمام والحدأة The Doves and the Kite» و«غراب الزرع (الزاغ) واليمام The Jackdaw and the Doves» هذا

---

(1) Aesop›s Fables مجموعة من الحكايات الرمزية تنسب إلى عبد إغريقي يسمى يعسوب عاش في حوالي عام 600 قبل الميلاد وجاءت على لسان الحيوانات.

(2) Stool Pigeon انظر الفصل الأول.

بالإضافة إلى الإشارة إلى عاداتهم التناسلية (المفترضة) في حكاية «اليمامة والغراب The Dove and The Crow».

ويكتب جون دون John Donne في قصيدته «تقديس The canonization» عن نفوسنا المعقدة وعن الجوانب المتعارضة وربما المخيفة للشخصية الإنسانية. فاليمام يمثل المُرَكَّب المسالم الأكثر لطفاً:

«ونحن شموع ضعيفة أيضاً
ونموت بأيدينا
ونجد في نفوسنا
العقاب واليمامة....

وفي رواية The Sword in The Stone ينوه الكاتب الإنجليزي تي. إتش. وايت[1] إلى خصائص طبيعية محددة للحمام بوصفها صفات جديرة بالإعجاب:

قال أرخميدس: «الحمام نوع من الكواكر[2]. فهو يرتدي اللون الرمادي. كما أنه ولد مطيع وعاشق أبدي، وأبٌ حكيم. فهو يعرف جميع الفلاسفة، ويعرف بأنَّ جميع البشر ضده. فقد تعلم عبر العصور فن الهروب. ليس هناك من حمامة قامت باعتداء أو انقلبت على من اضطهدها، وفي الوقت نفسه ليس هناك من طير مَهُرَ في تجنب مضطهديه مثله. فالحمام طائر يقظ وهش وعَطِرٌ، سائب الريش طليقه، لذا ترغب الكلاب عن افتراسه. تحصنه ريشاته ضد الرصاص. يهدل الحمام لبعضه بعضاً بحبٍ صادق، ويطعم بكل الانهماك صغاره الخبيئين المتدثرين، ويهرب من المعتدين بحكمة حقيقية. الحمام أفراده محبون، يعيشون ضد قوى المجازر ويتبنون الهروب حكمة لهم».

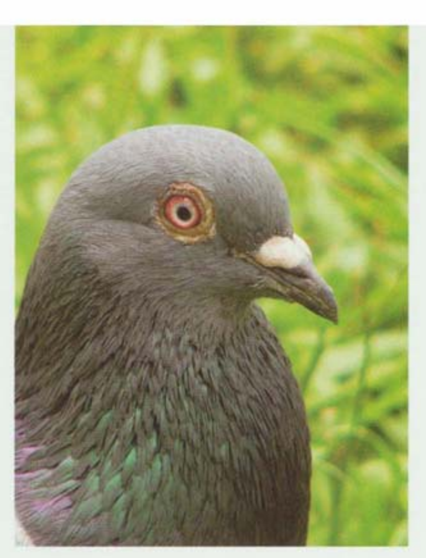
(1) T. H. White كاتب إنجليزي عاش فيما بين 1906 – 1964.
(2) Quaker نوع من الببغاوات.

جان بابتيست غريوز
(1805-1725)
البراءة: فتاة مع
يمامة، زيت على كنفا.



ثمة صفاتٌ شبيهة تُنسب للحمام نجدها في كتاب بام إيريس للأطفال Bertha and the racing Pigeon:
وفيه نجد بيرثا حمامة غابات[1].
لا يمكن القول: إنّ بيرثا ذات حصافة وعقل كبير، لكنها شخص أمين ومجد، واضح ولطيف.
وفي فيلم Mr. Smith Goes to Washington لفرانك كابرا

(1) Wood Pigeon سبق التنويه عنها.



للحمام إمكانية رؤية مميزة. فهو يستطيع أنْ يرى مجالاً بمقدار 340 درجة مئوية، كما أنه يستطيع أنْ يكتشف الأشعة ما فوق البنفجسية وما ينجم عنها إمكانيات ملاحية جيدة.

يأخذ جيفرسون سميث السناتور الذي لم يمض على تعيينه في مجلس الشيوخ زمن طويل (لعب الدور جيمس ستيوارت) حمائمه معه إلى العاصمة واشنطن، وعندما يترجل من القطار يستقبله سكان عاصمة البلاد المشذبين المتحضرين بكل حفاوة. ويقوم سميث بعرض صندوق حمائمه متباهياً بها. يضايقه الناس هناك إذ يسألونه فيما إنْ كانت حمائمه ستنقل له رسائله إلى أمه. يأخذ السناتور الجديد أسئلتهم على محمل الجد ويقول إنه يأمل بأنْ تتحول واحدة من حمائمه إلى مواطن. تدل الحمائم في الفيلم على المواطن العادي البريء، شأن جيفرسون سميث الذي لا يرتدي قناع الكبرياء المصطنعة أو الكياسات المزيفة فعنده لاشيء خبيء. وما يراه المرء يحصل عليه. وبما أنَّ الحمامة ليس لديها ما تخفيه، فإنّ جيناتها وتربيتها هي التي تملي عليها سلوكها، والشيء ذاته أيضاً مع سميث. وبوصفه مواطناً أمريكياً مارس قادة الأمة تأثيرهم على

سلوكه، ولاسيما من شرّع الدستور، والمثل الأعلى هناك أبراهام لينكولن. ربما كان سميث شخصاً عادياً ساذجاً، لكنه يعرف كيف يجب أنْ يتصرف. والحمامة أيضاً طير عادي، لكنها تعرف كيف تطير وكيف تعود إلى الديار. وهي لا تخالف طبيعتها، وكذلك حال سميث. فمن «العادي» تأتي النتائج غير العادية. وفي الوقت الذي تستطيع فيه الحمامة أنْ تطير إلى مسافاتٍ بعيدة، تظل قادرة على أنْ تجد طريقها إلى الديار. تمكن سميث من أنْ يبقي على مسافة في ظروف عدائية إلى أنْ يجد «الوطن» بين جمهرة تقرّ به واحداً منها.

من منا يستطيع أنْ ينسى شخصية «السيدة طير» المؤثرة التي تقف على درجات كاتدرائية سانت بول تحيط بها الحمائم وهي تغني «اطعموا الطيور الكيس ببنسين»[1] في فيلم «ماري بوبنز»؟ في لقاء مع روبرت. بي. وريتشارد إم شيرمان وهما من كتبا الأغنية، تحدثا عن دلالة «السيدة طير» وقالا إنها تمثل أكثر من مجرد شخص يطعم الطيور، فالأغنية تتحدث عن الحنّو على أكثر الناس تواضعاً وبؤساً وعن الهمشيين والعناية بهم وما هذا سوى جزء من سحر الأغنية والشخصية. كما تظهر الحمائم أيضاً في المشاهد الذي يظهر فيها بيرت الذي ينظف المدافىء والمداخن عندما يرسم صوراً بالطباشير على الرصيف. الحمام هي الشهود عليه، وعلى طبقته (أي أبناء الشوارع) الذين يتجاهلهم الموسرون، رغم أنهم موجودون.

وفي «بينوكيو» -فيلم الرسوم المتحركة للأطفال- للمخرج كارلو كولودي والذي يعدُّ أثراً كلاسيكياً، فإنّ الحمام هو الذي ينقذ بينوكيو. لم تُصوَّر الحمامة هنا شخصاً سخيفاً أو أحمقَ، بل صورت بوصفها طير الحكمة وهو دور بينوكيو أيضاً. يمكن أنْ يكون الحمام نموذجاً بدئياً Archetypal لشخصٍ حكيم أو مقدس. ويلتقي هذا الحمام بالشخص/الدمية الذي كان يبحث عنه (كما في كثير من الحكايات

(1) انظر الفصل السابق.



صندوق تبغ فرنسي يعود إلى القرن التاسع عشر مزخرف بيمامات من المينا. قاعدة. في المقابل، ثمة غطاء.

الدينية، أو قصص عصر التنوير). ويستمر هذا النموذج البدئي في كلماته الملهمة. ولدى سماعه بينوكيو يصرخ بأنَّ أحد الأطعمة التي لا يفضّلها كثيراً بات الآن وجبة لذيذة، يجيب الحمام أو «المعلم» طالبه بمَثلٍ: «عليك أنْ تتذكر بأنَّ الجوع هو أفضل مَرق!» وبأسلوب شخص مقدس (يذكرني هذا بالقصص الهيسية[1] على نحو خاص). يطير الحمام بعد أنْ يسلم بينوكيو إلى مصيره (أو قدره) بعيداً من دون أنْ ينتظر شكراً أو امتناناً».

ضمن سلسلة كتب للأطفال تقتفي أثر غرائب الحمام، يكرس مو ويليمز[2] العديد من موضوعات الطفولة الأولى، شأن المسؤولية ومعرفة المرء لحدوده. على موقع ويليمز الإلكتروني، يلفى المرء سؤالاً: «لماذا اخترت الحمام لتبدأ به كتبك؟ لا يحتوي جواب مو على تفسير لانجذابه إلى الحمام أو استخدام تضمين للخفي (اللامرئي) في كتب الأطفال (الذين يشعرون في الغالب بأنهم متجاهلون أو غير مرئيين). لا، فجوابه كان غريباً فقد قال: «لأن فرس النهر لا يناسب صفحة موقعي الإلكتروني».

(1) Hasidism حركة تجديد ديني في اليهودية ظهرت في أواسط القرن الثامن عشر في أوروبا الشرقية.

(2) Mo Williams كاتب ورسام صور متحركة أمريكي.



عالجت ثلاثة كتب لليافعين هي: Feather Wars وWhere Pigeons Go to Die وMister P and His Remarkable Flight، مسائل شأن العزلة والتنمّر والصداقة والتغير والموت. إنّ الاستهزاء (السخرية) التي يشعر بها البعض حيال الحمام تجعل المراهقين يتماهون مع «المنبوذين» وينؤون بأنفسهم عن شأن هذه التصنيفات التي تثبتهم ضمنها وعن التحامل عليهم. وفي قصة Mister P and His Remarkable Flight يصادق فنسنت، «المستر بي» الحمام العنيد بعد أنْ يُرسل به بعيداً عن مزرعة والديه التي ضربها القحط. يقع فنسنت تحت تهديد عزلته. وفي النهاية يتصالح مع ما يعنيه أنْ يكون للإنسان بيت، وينعكس هذا في الحكاية عندما يفشل في شق طريقه إلى البيت، بعد عدد من الأحداث خلال أحد السباقات. وبينما كانت أسرة فنسنت تقاتل ضد الدمار الذي أحدثه القحط والجفاف والذي سبب انقسام الأسرة، يُدمّر مستر بي وزغاليله وشريكه، وبات عليه الآن أنْ يعيش من دونهم. أما حكاية Feather Wars فتسبر أغوار موضوعة الحرب: الحرب ضمن الأسرة وضمن المجتمع المحلي، بالإضافة إلى المعارك التي تحدث في السياق العالمي من خلال الطريقة التي يفهم فيها الناس الحمام. فوالد سام يجند

حماماته في الحرب. في نهاية الكتاب يبرز الحمام المدمر مصائب الحروب وأما الناجي الوحيد فهي قوة الإنسان الذي وُهِب المقدرة على أنْ يبدأ من جديد. وفي قصة Where Pigeons Go to Die يتحدث الجدُّ مربي حمام مع حفيده عن محاولته السكنى في المدينة: «لم تعد المدينة تناسبني لقد دُجِّنتُ وأحببت عشي. كنت مثل الحمام حرًّا في أنْ أطير، لكنني قانع في أنْ أبقى في دياري».

فيما بعد وأثناء احتضاره ينقله حفيده الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام من سرير المستشفى إلى البيت على عربته الصغيرة، كي يتمكن من الموت في «عشه» بالقرب من حمائمه.

وفي فيلم «الحيد البحري»[1] يستخدم مخرجه إيليا كازان، الحمام في الفيلم لينقل عدداً من الموضوعات الجوهرية. ففي المشهد الافتتاحي، يبدأ تيري مالوي (لعب الدور الممثل العالمي مارلون براندو) حدثاً يتردد صداه في الطريقة التي صور بها ومن خلال عصابة الغوغاء التي تسيطر على أحواض السفن. وفي طريقه إلى البيت، يتوقف مالوي لإخبار جوي بأنه وجد إحدى حمائمه وبأنه سيأخذ الحمامة إلى حظيرته في السقف. يردّ جوي قائلاً: إنه سيلتقيه هناك. عندما يصل جوي، يدفعه أفراد العصابة من أعلى البناء.

فيما بعد تصعد شقيقة جوي إلى السقف وتلتقي تيري في حظيرته. عندما تقول بأنها فوجئت باهتمامه بالحمام، يُضمّن مالوي إجابته وصفاً لحياته الخاصة بعد أنْ وقع في شرك عصابات المافيا:

مالوي: أوَ تعرفين، هذه المدينة مليئة بالصقور.... إنها تتسكع على سطوح الفنادق وترصد الحمام في الحديقة وتنقض عليها.

يخرج أحد طيوره. إنه طيري القائد، إنه دائماً في أعلى مجثم الطيور. وكما تعرفين إنْ حاول مشرد آخر أنْ يأتي ليحتل مكانه،

---

(1) On the Water Front فيلم بالأسود والأبيض. 1954.

فلسوف يعطيه إياه.

عندما تعلق إيدي قائلة: «حتى الحمام ليس مسالماً!». يجيب مالوي في واحدة من لحظات الفيلم الرقيقة: «الحمام مخلص جداً، فهو يتزوج مثل البشر تماماً، ويبقى على عهده إلى أنْ يموت أحدهما». عندما سألها إنْ كانت ترغب في احتساء كأس من الجعة، تكون خارج الحظيرة. لا تكتفي شبكة الأسلاك بفصل تيري عن إيدي فقط، بل تُحدث هوة بين عالمين مختلفين جداً. في أحد المساءات تجده (مالوي) مستلقياً على السقف يصغي إلى حمائمه.

العصابة تقترب، وأما مالوي فتسعى السلطات خلفه للتحقيق معه. يقول:

«الحمام.... إنه متوت. كان هناك صقر في هذه الأرجاء من قبل». بعد أنْ يدلي بشهادته يعود إلى حظيرته ويجد بأنّ جميع حمائمه قتلت انتقاماً منه. يمرُّ بالقرب منه أحد الأطفال وهو يصرخ: «حمامة مقابل حمامة!» ليس هناك من مكان آمن على الحيد ليختبئ فيه الحمام من الصقور.

بدا بأن فيلم «الحيد البحري» مارس أثره على فيلم «غوست دوغ: أسلوب الساموراي»[1] للمخرج جيم جارموش. وكما في فيلم «الحيد البحري» فالمافيا متورطة أيضاً. أما القاتل المأجور للمافيا فهو «غوست دوغ»[2] وهو أفرو أمريكي يتبنى أسلوبَ الساموراي وقوانينهم في الحياة كما لخصها كتاب أقوال ياماموتو تسوتومو المدونة Hagakure. ومن مجريات الفيلم قيام غوست دوغ التابع لأحد أفراد العصابة بالاتّصال مع رئيسه أو (سيده) عبر الحمام الأيّاب.و يفتتح الفيلم مشاهده بلقطة لحمامة في الجو تنظر إلى المدينة، ثم تحطُّ الحمامة على سطح مبنى قرب حظيرتها، في الوقت

---

(1) Ghost Dog: The Way of the Samurai 1999.

(2) Ghost Dog تعني الكلب الشبح.

الذي يكون فيه غوست دوغ صاحب الحمامة يقرأ كتاب The Way of the Samurai. والمفارقة أنّ توتر غوست دوغ ونزقه يتجاورا مع هدوء الحمامة وسِلْمِها. وبعبارة أخرى، فإنّ الوقت الذي يبذله غوست دوغ في محاولة تعلّم قواعد الساموراي تكون الحمامة قد وجدت فيه طريقها إلى الديار. يعلم غوست دوغ أنه مستهدف من قبل العصابة بعد أن شهدت ابنة الزعيم واحدة من أفعاله.

في المشهد الذي يقتل فيه غوست دوغ الزعيم الذي كان يشاهد فيلماً كرتونياً لبيتي بوب، وفيه كانت بيتي تحاول أنْ تمسك بالحمام بشبكة كبيرة، يدخل غوست دوغ إلى الحظيرة ليمسك حمامة لكنه يكتشف بأن شبكته غير صالحة. وعندما تدرك العصابة أنّ الطريق الوحيد المؤدي إليه كائنةٌ عبر الحمام يبدؤون بإطلاق نار عشوائي على الحظائر الموجودة في السقف. في النهاية يقتلون الحمامة التي يريدون، ويعود غوست دوغ إلى المنزل ليجد بأنّ جميع حمائمه قتلت باستثناء إحداها (يذكرنا هذا بمشهد من فيلم «الحيد البحري»). وتقوم العصابة بوضع واحدة من الحمامات القتلى على السرير (وهذه إشارة إلى مشهد في فيلم العراب عندما يجد صاحب ملهى ليلي رأس حصانه الأثير مقطوعاً في سريره)[1]. أما الحمامات المتبقية فتسلّم رسالة للعصابة من غوست دوغ يقول فيها: «حتى وإنْ قطع رأس الساموراي فجأة فيجب أنْ يظل قادراً على أنْ ينجز عملاً أخيراً». تبقى مهمة وحيدة لغوست دوغ تتجلى في قتل أفراد العصابة بأكملها باستثناء رئيسه وابنة الرئيس انتقاماً لموت حمائمه. في نهاية الفيلم وعندما يُقتل غوست دوغ على يد رئيسه تطير الحمامة الوحيدة الباقية وتجلس معه وهو يحتضر. وبينما بقي غوست دوغ مخلصاً لسيده، بقيت الحمام على ولائها لصاحبها.

(1) Godfather الجزء الأول قام بدور البطولة فيه « آل باتشينو ومارلون براندو» وأخرجه فرنسيس فورد كوبولا.



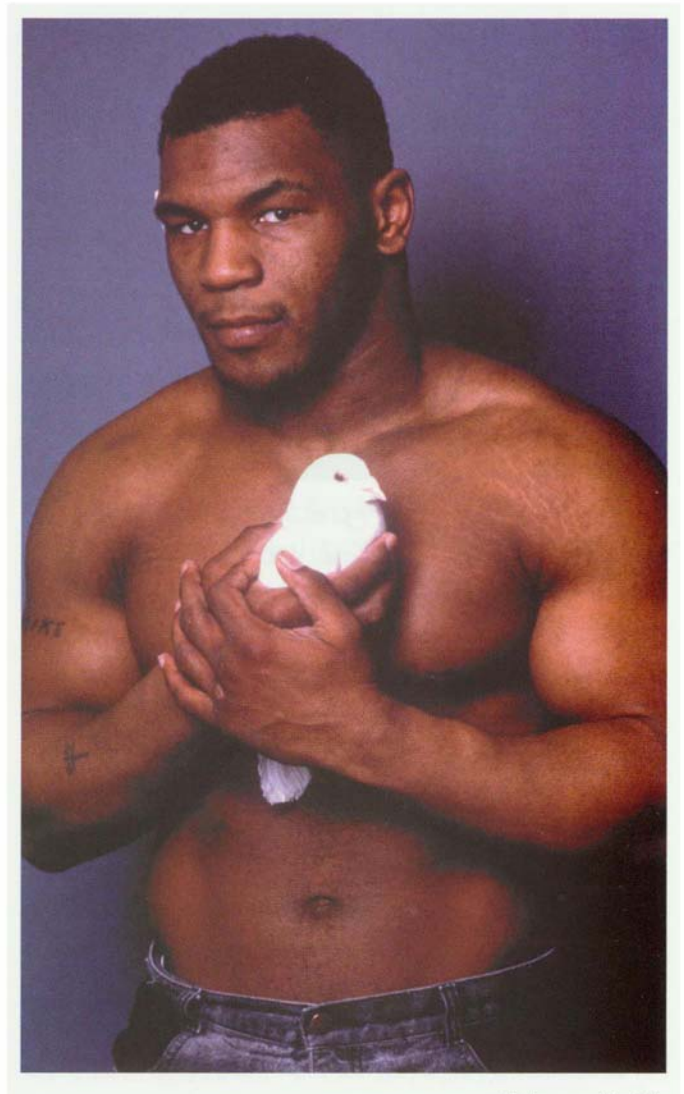
غوست دوغ يتعلم أسلوب الساموراي قابعاً بين حمائمه المحبوبات. فيلم Ghost Dog 1999.

في بداية الفيلم يقرأ غوست دوغ:

«بحسب ماقاله أحد الكبار، عندما يتخذ المرء عدواً، فهو كالصقر عندما يتخذ طيراً فريسة. لقد ضرب الصقر ضربته».

ارتباطات ثقافية أخرى

في العروض السحرية، يُطيِّر الحاوي اليمام من قبعته أو أنها تخرج من كمّ معطفه. ربما سيبقى الإحساس بالغامض حاضراً على الدوام ضمن دائرة السحر. ولكن لماذا اقترن اليمام والحمام بالحواة؟ يكمن السبب في أنّ الحمام طيور ذكية، ويمكن تدريبها بسهولة. كما أنها مطواعة ولا يحتاج المرء لأنْ يقلق عليها في الأحوال الجوية المتغيرة، كما هو الحال مع بعض الطيور الأخرى. فإنْ خرجت تلك الطيور تشتغل غريزتها في العودة إلى الديار ولا عجب فهي مرتبطة أشد الارتباط بصاحبها.



مايك تايسون ويمامة.

في كتاب كولن ثومبسن[1] [2] The Great Montefiasco يمتلك مونتيفياسكو، وهو أسوأ حاوٍ في العالم، حمائمَ يستخدمها في عروضه السحرية. وخلافاً لليمامات البيضاء التي تظهر من قبعة الحواة المهرة، فعندما يسعل مونتيفياسكو تسقط حمامتا روك رديئتان من أكمام معطفه، من تلك التي يجدها المرء في الشوارع والطرقات في مدن العالم كلها. وتظهر صور الكتاب حمامات مونتيفياسكو وهي تجثم على ظهور الكراسي والمقاعد وتشرب في الحانة بعد أنْ تقدم أحد العروض السحرية، وتنام في أعلى الدرج بالقرب من طاولة صاحبها. إنه تحول حقيقي عن الطريقة التي نعرف فيها الحواة ويماماتهم البيضاء عادة. إنه كمن يحمل المرآة لكي يرينا الحواة، على حقيقتهم، أناسًا عاديين بعكّازاتهم.

للحمام أتباع ومشايعون من جميع فئات المجتمع وشرائحه. فالعديد من المشاهير كانوا مربي حمام. فقد ربت ماري ملكة الاسكتلنديين يماماً. وهناك المسرحي البريطاني دوبليو إس جلبرت[3]، والرسام الفرنسي كلود مونيه[4] (ما تزال الحظيرة التي كان يحتفظ فيها بحمائمه باقية في حديقته في جيفرني). وهناك أيضاً روي روجرز[5]، ويول برنر[6]، وإلفيس برسلي[7]، وغوشيو

---

(1) Colin Thompson كاتب بريطاني ولد في لندن 1942. اشتهر بكتاباته الغريبة وقصصه المصورة. اشتهر بكآبة مرضية تخلص منها عندما بلغ الخامسة والعشرين من العمر ومن أقواله في هذا السياق: «إنّ عانيت من الكآبة، تذكر بأنّ ليس فيها ما يعيب أو يخجل ولا تحاول أنْ تخفيها. فهي مرض حقيقي شأنه شأن أي مرض آخر».

(2) كتاب قصص مصورة يتحدث عن حاوٍ أخرق عندما يلتقي ببيتي (وهي ذات شخصية خرقاء أيضاً). أثناء بحثه عن مساعدة له. لا ينال الساحر مجد الشهرة فقط، بل يدخل في علاقة حب حقيقية مع بيتي.

(3) W. S. Gilbert مسرحي بريطاني (1836-1911).

(4) Claude Monet رسام فرنسي ومن رواد الحركة الانطباعية (1840-1926).

(5) Roy Rogers ممثل أمريكي (-1912 1998).

(6) Yul Brynner ممثل أمريكي اشتهر بحضوره المسرحي اللافت (-1915 1985).

(7) Elvis Presley مغنٍ وممثل أمريكي. (-1935 1977) اقترن اسمه=

غوشي[1] (الذي دفع 10000 دولار أمريكي ثمناً لطير واحد) ، وويلي براندت Willi Brandt الرئيس السابق لألمانيا الغربية، ومايك تايسون[2]. وثمة أمر يثير المشاعر عندما نحملق في صورة مايك تايسون وهو يحتضن يمامة بين يديه، فهذا الملاكم الذي اقترن اسمه بالعنف سواء في حياته الخاصة أو العامة، يحمل طيراً صغيراً، رمز السلام، بكل حنو بين يديه.

اقتطف عن تايسون قوله: «هذا حبي الثاني، بعد أطفالي. إنه يريحني».

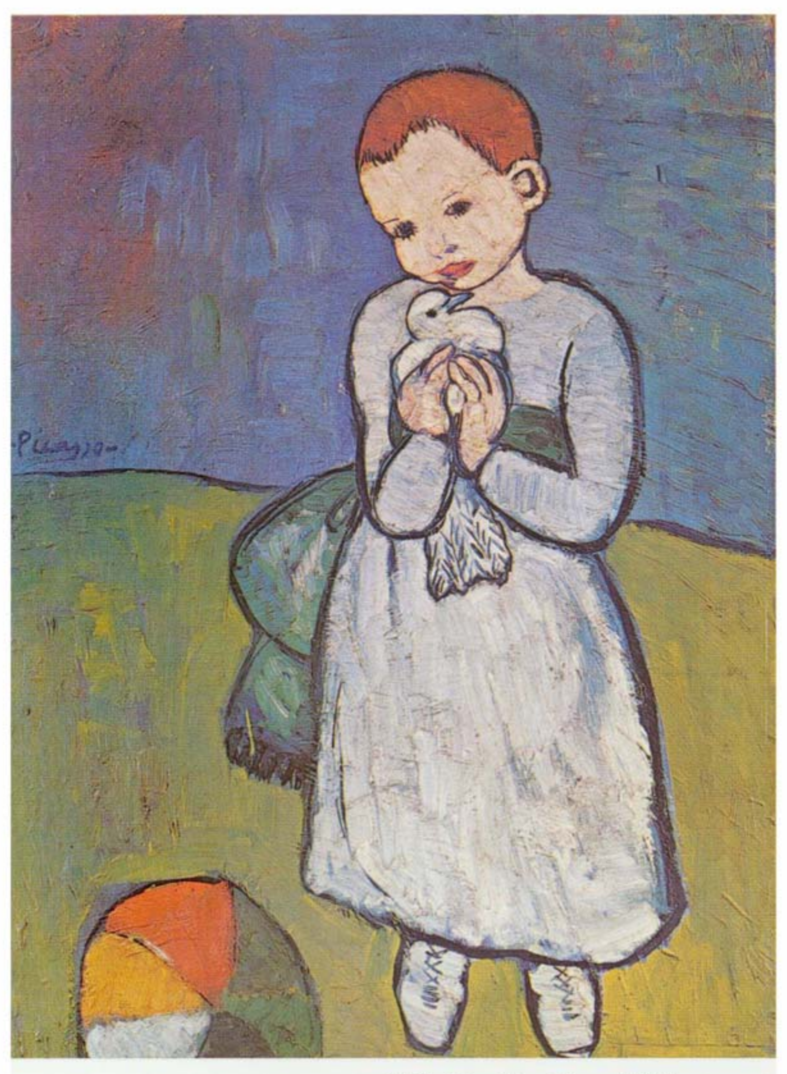
ربما كان الحمام هو السبب الذي جعل تايسون يمتهن الملاكمة على نحوٍ غير مباشر. فعندما كان تايسون في الحادية عشرة من العمر قتل أحد الصبية واحدة من حماماته العزيزات على قلبه. تايسون الذي لم يظهر غضباً عظيماً من قبل، انفجر حنقاً وضرب الولد مرات عديدة. ومذاك أخذ يتدرب على الملاكمة. ما يزال تايسون يربي الحمام، وحتى تاريخ كتابة هذا الكتاب كان تايسون ما يزال يملك ثلاثمئة وخمسين حمامة.

يصف كتاب Percy to the Rescue حمامة روك عادية تعيش في لندن تقوم باستكشاف مشاهد المدينة وتنتهي بالحصول على عشٍّ ملكي في قصر بكنغهام. ورغم أنه عمل نثري، فثمة شيء من الحقيقة ضمن هذه الحكاية، ذلك أنّ العائلة البريطانية الملكية لها اهتمامات بالحمام وسباقاته، عندما أهداها ملك بلجيكا ليبولد الثاني حمام سباق في عام 1886. وأما الحظيرة فبنيت في قصر ساندرغهام. وفي عام 1990 شاركت واحدة من حمائم الملكة في سباق «باو» حيث حلّت

= بموسيقى الروك. بات أيقونة الشباب الأمريكي.

(1) Guccio Gucci أسست عائلة غوشي شغلها في إيطاليا في القرن الخامس عشر.. بدأ غوشيو بتصميم الألبسة وصناعتها للرجال والنساء حتى بات اسمه ماركة مشهورة في عالم الأزياء.

(2) Mike Tyson بطل العالم في الملاكمة.



بابلو بيكاسو A Child with a Dove 1901. زيت على كنفا.



رينيه ماغري. The healer . غواش على ورق 1936.

أولاً في سباق المرحلة الخامسة المفتوحة.

في الماضي، كانت الحمائم الملكية تسجل أرقاماً في الفوز في سباقات الحمام أفضل من سباقات الجياد الملكية. وهناك يمامة أيضاً تبرز على الصولجان المعروف باسم «صولجان العدالة والرحمة Rod of Equity and Mercy» يحمله الملك الإنجليزي أثناء مراسم التتويج.

لقد ظهر الحمام واليمام في الأعمال الفنية والدينية القديمة منها والمعاصرة، بما في ذلك أعمال بابلو بيكاسو ومارك شاغال وماغري. فقد ربى بعض الفنانين اليمام بمن فيهم بيكاسو وماتيس. وتظهر لوحة بيكاسو Child Holding a Dove بحثه عن اتجاهٍ جديد في نهاية صيف 1901.

وحازت موضوعاته على تعاطفه هو. ففي هذه اللوحة، رسم بيكاسو الطفلة واليمامة بعين ملؤها المشاعر. انعكس ولع بيكاسو باليمام في اختياره لاسم ابنته «بالوما» وهي الكلمة الإسبانية «ليمامة». قال بيكاسو عن طيوره:

«هذه طيور حقيقية لفيلسوف. كل الكلمات والتلفظات البشرية لها جانبها الغبي والسخيف. لحسن الحظ أربي يمامات فقط لتسخر مني. وفي كل مرة أعتقد بأنني أقول شيئاً ذكياً تذكرني بخواء ما أقول».

استخدم الفنان السوريالي رينيه ماغري اليمام في عدد من لوحاته لينقل عدداً من الموضوعات والرموز. وبالفعل قيل:

«إنْ حدّقت طويلاً في لوحات ماغري، بإمكانك دائماً أنْ تجد فيها يمامة».

وتصور لوحة (Thérapeute The Healer) شخصاً جالساً. ثمة قفص حيث يجب أنْ يكون الرأس والجسد وفي القفص هناك

يمامتان. تمثّل لوحة (Black Magic) (La Magie noire)[1] امرأة عارية/ تمثالاً رُسم جزئياً باللون الأزرق. وهناك عدد من النسخ وفيها يظهر التمثال في سيرورة تحويل نفسه إلى امرأة أو العكس.

وفي نسخة أخرى تعود إلى عام 1945 على سبيل المثال، ثمة يمامة/ حمامة بيضاء على كتف المرأة. ربما تمثل اليمامة في هذا المثال البراءة و/أو الطهارة.

أما لوحة (The Good Omen) Heureux Presage فهي مشرقة وتدعو للتفاؤل. وهنا نجد يمامة بيضاء كبيرة مرقطة بالذهب وتطير في الجو مع أزهار بوصفها ريشات ذيلها.

وفي لوحة(the large Family) La Grande Famille هناك حمامةٌ عملاقة. وهناك أيضاً لوحة (The Idol) l›idole التي تضم يمامة ضخمة تهيمن على السماء.

تشكل اليمامات أحياناً جزءاً من طقوس الزفاف ومراسم الدفن، وتعرف «بالطيور المُحرَّرة.

تُطلق الحمائم في نهاية الزفاف كرمز للحب والطهارة والولاء. وأما في المآتم فتمثل رحلة الروح الأخيرة بالإضافة إلى أنها تدل على إدراكنا أو إقرارنا بشيءٍ أعظم من أنفسنا. يُطيَّر اليمام إلى الأعالي باتجاه السماء في رحلة جديدة. كما أنّ اليمام جزء من أحداث أخرى خاصة ومميزة بما فيها ألعاب الكومنولث الأولمبية، والذكرى السنوية لمدينة هيروشيما حيث تُطلق في السماء ألف يمامة في كل عام.

ترتبك الثقافة الغربية ومعها الذات الغربية فيما يتصل بالحمام و/ أو اليمام. ومن جهة أخرى، نشير إلى حبيباتنا باليمام. ونشتري بطاقات عيد الحب Valentine أو بطاقات عيد الميلاد Christmas المتخمة بالنقوش والزينات. ونعترف بهم رموزاً للسلام.

ومن جهة أخرى، فالحمام مكروه وينظر إليه بوصفه قوارض «وجرذان

---

(1) السحر الأسود.

بأجنحة»، وفي بعض الأمكنة يُنقص من قدره على نحو بالغ القسوة.

فلننظر إلى المفارقات في مواقفنا من الحمام في مدينتي فينيسيا ولندن فيما يتصل بمسألة العناية به في الميادين العامة. لقد تم قبول الحمام كجزء من المشهد الطبيعي في فينيسيا منذ عام 1204، عندما أجازه الدوغ إنريكو داندولو لدوره في نقل الرسائل من القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة. وأما التدابير فقد اتخذت في ساحة قصر الدوغ من أجل الحمام مع إنشاء قدور حجرية ليشرب منها.

لقد قال البعض إنّ الفينيسيين قبلوا الحمام لأنّ تحليق اليمام الأبيض حول ساحة سان ماركو خلال الأسبوع المقدس (يمثل الروح القدس). وبصرف النظر عن الأسباب بات الحمام واحداً من رموز الفأل الجيد. وبات يُعتنى به ويثمّن عالياً. وللعديد من السنوات كانت المدينة تطعم مئات الحمائم التي قبلتها المدينة بكل سرور لوقوعها ضمن مسؤوليتها.



حمامات في ساحة ترافالغار.

نالت شركة التأمين Assicurazioni Generali، خلال خمسينيات القرن المنصرم، هذا الامتياز ربما كاستراتيجية تسويقية. أما الحكاية فتتغير، فمؤخراً تحدثت تقارير عن أن المدينة تحاول أنْ تحدّ من مبيعات بذور الحمام للسياح لكي تنقص من عدد الحمائم هناك. وقد هدف هذا الإجراء إلى منع فضلات الحمام من تخريب أرصفة الساحة.

في عام 2000 وصف كين ليفينغتسون محافظ لندن الحمام بقوله: «جرذان بأجنحة» وأعلن حرباً على حمائم ساحة ترافالغار الشهيرة.

كان أحد التدابير التي اقترحت هو حظر بيع الشعير في الساحة وهي طريقة هُدف منها تجويع الحمام (قدر عدده بأربعة آلاف حمامة). أما سلطة لندن العليا The Greater London Authority فقد سحبت ترخيصاً من بيرني رينر كانت عائلته قد باعت طعاماً للطيور في ساحة ترافالغار في الخمسين عاماً الماضية. كما استخدمت تلك السلطة طرقاً أخرى بما فيها استقدام صقور لقتل الحمام، وخراطيم المياه والحوافر الصناعية. ودفعت هذه الإجراءات إلى تشكيل جماعة أسمت نفسها «أنقذوا حمائم ترافالغار Save The Trafalgar Pigeons» مع موقع على الشبكة الإلكترونية، وساعدت في جمع التبرعات لإطعام هذه الطيور، ولخوض معارك قانونية وتثقيف الجماهير وتوعيتها فيما يتصل بالحمام عموماً، وماذا يجب على المواطن أنْ يفعل إنْ شاهد حمامة جريحة. في شباط من عام 2007 حظرت لندن إطعام الحمام في ساحة ترافالغار واعتبرته عملاً مخالفاً للقانون.

لربما يمكن تفسير الاختلاف في الموقف جزئياً بالإشارة إلى الموقع والدلالة. فساحة ترافالغار ليست مكاناً مقدساً، لذلك فالحمام أو اليمام لا يرمز إلى الروح القدس، أو إلى معتقدات دينية بعينها، ومن دون هذه الموافقة ينظر إليه بوصفه حشرات مؤذية. ترى هل كانت مواقفنا ستتغير فيما لو كانت ساحة ترالفالغار مكاناً مقدساً؟

5 - استغلال أو حماية: ضميرنا المكسو ريشاً:

من بين أشهر أنواع الحمام أو اليمام التي انقرضت منذ عام 1600 الدودو[1] والحمام المسافر[2].

الدودو

يظهر الدودو في مغامرات أليس في بلاد العجائب، كشخص ذكي. بعد أنْ تحاول بعض المخلوقات الغريبة العجيبة بأجسادها الرطبة القذرة تجفيف نفسها، يقترح الدودو إقامة سباق لمساعدتها في ذلك. بعد السباق يُطرح السؤال التالي:

«من الذي فاز؟»

لم يستطع الدودو الإجابة عن هذا السؤال من دون أنْ يفكر ملياً، وأمضى وقتاً طويلاً يضغط بسبابته على جبينه (هي حركة نراها عادة في صور لشكسبير) في الوقت الذي قبع فيه الآخرون في صمتٍ مطبق. في النهاية يكسر الدودو صمتهم ويقول:

«جميعكم فاز وعليه فسيحصل كل منكم على جائزة.».

اعتقد العديد أنّ الدودو شخصية أسطورية اقتصرت على عالم الخيال Fantasy. صدم بعضهم عندما اكتشفوا بأنّ الدودو كان طيراً حقيقياً له ما يربطه مع الحمام، وانقرض في عام 1681 بسبب وحشية البشر. وتشير عبارة «ميت كطير الدودو» إلى ميتة مضى عليها زمن بعيد وغلفها النسيان. في الحكاية لم يفز الدودو في السباق، ولم يحصل على جائزة.

فيما مضى كان الدودوRaphus cucullatus يعيش في جزيرة موريشيوس. أطلق أول مستكشفي الجزيرة على هذه اليمامة الضخمة

(1) Dodo وتطلق على العديد من أنواع الطيور ومنها من هي غير قادرة على الطيران. المقصود هنا طير ضخم بمنقارٍ معقوف موطنه الأصلي مورشيوس. اسمه اللاتيني Raphus cucullatus. وتطلق كلمة دودو أيضاً على الشخص الغبي الأخرق.

(2) Passenger Pigeon حمام مهاجر انقرض في بداية القرن العشرين. موطنه الأصلي أمريكا الشمالية. اسمه اللاتيني Ectopistes migratorius.

جون تينيل «The Dodo» من كتاب لويس كارول «أليس في بلاد العجائب».



العديد من الأسماء منها: «الديك الرومي البري Wild Turkey، الإوزة ذات القلنسوة، النعامة السافلة، بوبي[1] وكاسواري[2]».

ثمة احتمال من بين اثنين فيما يتصل باسمه، فإما أنّ البرتغاليين هم من أطلقوا عليه هذا الاسم، أو البحارة الهولنديين الذين تبعوهم إلى جزيرة موريشيوس. تقول إحدى المدارس الفكرية: إنّ الاسم جاء من الصوت الذي يصدره أثناء نداءاته. بينما قال آخرون إنّ التسمية جاءت من الكلمة الهولندية (dod-aarse [3]lump arse). أما الكلمة البرتغالية doudo فتعني «سخيف». أحياناً نطلق

---

(1) Booby وتعني الشخص الأخرق. كما تشير إلى نوع من أنواع الطيور البحرية.
(2) Cassowary طير أرضي (لا يطير).
(3) العبارة سباب بذيء.

على الشخص الذي نعتبره غبياً كلمة «دودو».

استوطنت هذه اليمامة الضخمة غير القادرة على الطيران، والتي بحجم الديك الرومي، جزيرة ليس فيها من ثدييات ولا مفترسين. كما أنها لم تواجه الخطر إلا بقدوم البشر، وفي الغالب كانوا برتغاليين. كان الدودو طيراً غريب المظهر، بجسدٍ مدور وريش رمادي غامق وفاتح، وسيقان صفراء ومنقار معقوف. بلغ من الطول ثلاثة أقدام مع جناحين صغيرين، وجلد عارٍ من الريش حول منطقة العينين. وأمّا وزنه فكان يصل إلى خمسين باوندًا. وأما الذيل عنده فقد اكتسى ريشاً مجعداً.

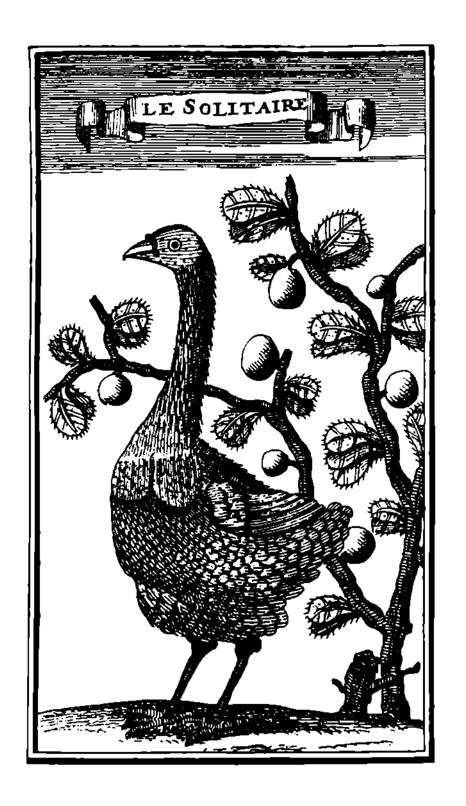
لقد تحدت الأبحاث الحديثة صورة الدودو التقليدية والتي صورته على أنه طير مفرط الوزن يجر معدته على الأرض.



حفر من إتش. إي. ستركلاند واي جي ملفل The Dodo and its Kindred 1848 على غرار لوحة نسبت لرويلاندت سافيري، أواخر العقد الثاني من القرن السابع عشر.

واستُخدمت قياسات هيكله العظمي في جامعة أكسفورد، بالإضافة إلى مجموعات العظام في متحف علم الحيوان في كمبردج ومتحف التاريخ الطبيعي في لندن لحساب وزنه. لكن اللُّقى Findings أشارت إلى طيرٍ أملس. ولو كان الدودو طيراً كبيراً، لما كان هيكله العظمي قادراً على أنْ يدعم كتلة جسده: «إنّ إعادة البناء الجديدة للدودو صورته أكثر هزالاً، وبدت بأنها تشبه الرسومات المعاصرة الأولى له».

ومع طيور أخرى، زوّد الدودو طواقمَ السفن الأوروبية بطعامٍ



The Solitaire of Rodriguez «سوليتير رودريغيز» على غرار حفر في كتاب فرانسوا ليغوا»[1] Voyages et Adventures 1708 يظهر أنثى.

(1) Francois Leguat مستكشف فرنسي.

جاهز ورياضات عديدة، رغم التقارير التي أفادت بأنّ لحمه قاسٍ ومذاقه كريه. عندما أصبحت الجزيرة مستعمرة هولندية، جلب المستوطنون معهم مخاطر جديدة تجلّت في الحيوانات الداجنة شأن الكلاب والقطط والقرود والجرذان والخنازير. فقد هاجمت الكلاب البالغين من الدودو، بينما ركزت الحيوانات الأخرى على بيوضه وصغاره. وبحلول عام 1680 كان الدودو قد انقرض.

كان طائر الدودو نتاج عصره، وانقرض بسبب ظروف هاتيك الأيام، ولو أنه عاش لفترة أطول قليلاً فلربما اختلفت المسائل بالنسبة له. اقترح إيرول فولر[1] التالي:

«لو عاشت طيور الدودو لمزيد من العقود، فلربما كانت المستعمرات قد رسخت نفسها في حدائق على الطراز الأوروبي. ربما كانت تلك الطيور، مخلوقات قوية وشديدة. ولو بقيت حتى أيامنا هذه لربما انتشرت كما الطاووس في حدائق العالم المزينة. لكن لم يبق منها سوى عظام ومِزَقٌ من جلودها ومجموعة من صور تفاوتت في نوعيتها، وسلسلة كتب دونت فيها أوصافها وعبرت عن العصر الذي شهد تلك الطيور. والغريب في الأمر أنّ ما كتب عنها غير كاف وتغيب عنه المعلومات.

كانت هناك ثلاثة أنواع من يمام عملاق في عائلة Raphidae التي تضم على تنويعين من يمام السوليتير الذي عاش في جزر ريونيون ورودريفيز. وصف ليغوا يمام سوليتير في مذكراته في عام 1708:

«الإناث منها جميلة على نحوٍ رائع. البعض منها بألوان فاتحة والبعض الآخر بألوان غامقة. سأدعوها فاتحة، لأنّ ألوانها كلون الشعر الفاتح. ذروة منقارها تشبه تسريحة الأرملة[2] بلونٍ رمادي يميل إلى البني.

(1) Errol Fuller كاتب ورسام بريطاني كتب سلسلة من الكتب عن المخلوقات المنقرضة.
(2) Widow Peak خط من الشعر على شكل V تعبر مقدمة الجبين خلفها ينمو الشعر.

أما ريشات الفخذين فمدورة وتشبه صدفات في طرف منها، ولأنها ثخينة هناك، تعطي المرء انطباعاً مريحاً. لهذه الطيور بروزان على الحويصلة، وأما الريشات هناك فهي أكثر بياضاً من بقية الريش. يشبه البروزان صدراً ناهداً لامرأة جميلة، وتمشي هذه الطيور بجلال ورشاقة، مما يجعل من الصعوبة بمكان ألا يمتدحها المرء بل ويحبها.

كتب ليغوا أيضاً عن طقوس المعاشرة عند هذه الطيور، وعن الرقصات التي تؤديها بالإضافة إلى التصفيق بالجناحين على أجسادها والذي يشبه صوت الخشخشة. كما أنه كتب عن طقس سنوي اصطلح على تسميته «مراسم الخطوبة»:

«بعد عدة أيام على مغادرة الطير الفتي العش، تأتي صحبة من ثلاثين أو أربعين طيراً بطير آخر إليه. يمشي هذا الطير حديث العهد بالتحليق مع أمه وأبيه وتنضم إلى الصحبة لتذهب بعد ذلك إلى مكان حيث تفترق عن العروسين. كنا في الغالب نتبعهم ووجدنا بأنّ المتقدمات منها في العمر كانت تمظي كل إلى طريقها أو ضمن أزواج وتترك العروسين، وهذا ما أطلقنا عليه زواجاً».

لم يصدق الناس ليغوا. كما لم تؤخذ تقاريره على نحوٍ جدي إلا بعد قرنين من الزمان، وذلك بسبب اللقى الأركيولوجية التي أثبتت صحة الكثير مما دوّنه. وعندما صودق على لقاه، سلّم الناس بمصداقية ما تبقى من أعماله.

كتب آخرون عن طير السوليتير الجميل والرشيق، منوهين إلى أنه يهزل عندما يقبع في الأسر. وأما عندما يتم اصطياده فلا يفعل سوى أنْ يذرف الدموع.

لم تحمِ الكتابات اللافتة هذه اليمامة الكبيرة اللطيفة من مخاطر بنيِ البشر (خلافاً للدودو فلحم السوليتير يؤكل). انقرض سوليتير رودريغيز Raphidae Prezohps Solitarius بحلول عام

The White Dodo.. Victoriornis .imperialis



1800. أما سوليتير ريبونيون Ornithaptera Solitarius فقد كان يصطاد كطعام وانقرض بحلول عام 1700.

ليس هناكَ من دليل أركيولوجي يدعّم وجود أي طير آخر Raphidae Victoriornis imperialis (يعرف باسم الدودو الأبيض لجزيرة ريينيون) فيما مضى. هناك توصيفات لشاهدي عيان وعدد من الرسومات. «أفلحت هذه الشهادات غير المألوفة» التي تدل على وجود الدودو الأبيض في إقناع العلماء بأنّ الطير كان موجوداً بالفعل.

ففي لوحة اكتملت في عام 1680، صوّر بيتر ويذوس الدودو الأبيض بوصفه طيراً قصيراً بلمسة تميل إلى اللون الأزرق على ريشاته البيضاء، وذيل مقنطر (مقوس) مرتفع. أما السيقان والأقدام فبلون أصفر يميل إلى البني. والأظفار سوداء وأجفان العين فحمراء فاقعة. وشقّ العديد من هذه الطيور طريقه إلى أوروبا وكانت على قيد الحياة ونقلت إلى هناك كتحف أو أشياء نادرة. في عام 1638 زار السير هامون لي إسترانج إحداها وكانت في أحد

المعارض في لندن:

رأى طيراً مهولاً أكبر بقليل من أضخم ديك رومي، لكنه أقوى وأثخن وفي حالة منتصبة. كان الحارس يسميه دودو، وفي نهاية المدخنة في الغرف هناك ترقد كومة من حصى كبيرة وحجارة، حيث قدم لطير الدودو الكثير منها، بحضورنا، بعضها بحجم جوزة الطيب. ما فتئ الحارس يخبرنا بأنّ هذه الأنثى ويقصد الدودو تأكلها (فهي تساعد في عملية الهضم).

وبالفعل كان الدودو يأكل الحجارة بالطريقة ذاتها التي يأكل فيها الحمام كسارة الحجارة الناعمة والحصى الصغيرة لتساعده على كسر الجوز والبذور. لم تكن الحجارةُ جزءاً من غذائه، بل مجرد وسائل تمكّنه من الهضم. كانت الدودو طيوراً قاسية صلبة، إذ كان عليها أنْ تبقى على قيد الحياة في الرحلات البحرية التي كانت تنطلق إلى أوروبا.

وهنا لزام أنْ نقرَّ بأمر يجعلنا نحن بني البشر نخجل ولو قليلاً، إذ لم تستخدم تلك الطيور قوتها في علاقاتها مع البشر الذين كانوا السبب في انقراضها بحلول عام 1770.

في موريشيوس توجد شجرة «التامبالاكوك» (Calvaria major) وتعرف بشجرة الدودو. يعدُّ هذا النوع من الأشجار نادراً، ويواجه الانقراض شأن الطيور التي سميت تيمناً بها.

شاعت هذه الشجرة في الحقبة التي عاشت فيها طيور الدودو. وتزخر الحكايات بأن الدودو أحب أنْ يتناول من بذور هذه الشجرة، وبما أنّ عصائر معداتها والمقصود معدات الطيور تليّن من البذور فهذا ما كان يسمح للبذور بالنمو عندما يطرحها الدودو.

سواء صحّت هذه النظرية أم لا، فهي لافتة لأنها تفترض صلة بين فناء الدودو وندرة هذه الشجرة. يعبر ديفيد دي عن هذا بقوله:

«يعتبر هذا من أكثر العلاقات التكافلية التي قامت بين نبات وحيوان غموضاً».

استُخدم الدودو كرمز لمحمية جيرسي للحياة البرية التي تعرف الآن باسم اتحاد دوريل لصون الحياة البرية التي أنشأها جيرالد دوريل في عام 1958.

في رحلة استكشافيه له إلى موريشيوس أخذ دوريل يتفكر:

«من سخرية الأقدار أننا نحن الثدييات غير القادرين على الطيران، نحطّ في واحد من أكبر صروح التحليق المعروفة على وجه المعمورة والذي يغطي بقايا واحد من أغرب طيور الأرض التي لا تستطيع الطيران. ذلك أنّ ضريح الدودو الذي استخرجنا منه العظام التي تأسست عليها معرفتنا الضحلة به، يرقد تحت إسفلت مطار بلايسانس.

الحمام المسافر (Ectopistes Migratorius؛ الجوال المرتحل)

كان الحمام المسافر، الذي انقرض فيما مضى، أحد أكثر الطيور البرية وفرة على وجه كوكبنا. إذ كان يشكل ما بين 25- 40 بالمئة من العدد الكلي للطيور البرية في ما بات يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية:

«قدر المؤرخون والبيولوجيون بأنّ ما يتراوح من 3 إلى 5 ملايين حمامة مسافرة قطنت الأصقاع الشرقية والوسطى من أمريكا الشمالية في حقبة الغزوات الأوروبية». فقد حجبت بلايين الطيور السماء وأسدلت على الأرض ظلاماً، وأما أصواتها فمثل الرعد عندما كانت تمرُّ فوق رؤوسنا. في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية، يفوق عدد هذه الطيور، أعداد جميع الأنواع الأخرى من طيور أمريكا الشمالية مجتمعة.

لقد أثرت تلك الطيور على المستكشفين الأوائل. فقد كتب كريستوفر كولومبس عن نوع من اليمام يختلف كلية عن الأنواع التي

رآها في أوروبا. دوّن الرجل بأنّ تلك الطيور كانت تطير في أسرابٍ هائلة حتى أنها كانت تحجب الشمس تقريباً.

وفي الأول من تموز من عام 1534 كتب جاك كارتيير عن رؤيته أسراباً على ما يُدعى الآن جزيرة الأمير إدوارد.

يطير الحمام المسافر إمّا بالقرب من الأرض أو أنه يحلق عالياً في السماء، بمستوى واحد أو أنه يحشر نفسه في طبقات ولمسافة ستين ميلاً في الساعة، ويستطيع أنْ يطير لعدة ساعات في كل مرة.

كتب أودوبون ذات مرة عن طيران الحمام المسافر الذي استغرق ثلاثة أيام حتى انجلى الجو وبانت السماء. اشتقت كلمة الحمام المسافر Passenger pigeon من كلمة passenger الفرنسية والتي تعني «يمر مرور الكرام». قارن أودوبون مابين الظلام الذي ينجم عن طيران الحمام أثناء مروره بظلام الكسوف.

كان الحمام المسافر فيما مضى طيراً جميلاً برأسٍ وظهرٍ أزرق رمادي. أما جناحاه فترقّطهما أحياناً بقع سوداء. ويقترب لون الصدر عند الذكور من الأبيض بالقرب من معداتها. أما المنقارُ فكان أسودَ والسيقان والأقدام حمراء، بذيل طويل وعيون حمراء.

وجمعت ريشات العنق الأرجواني والذهبي والأصفر والأخضر.

كتب ثورو[1] عن جمال تلك الطيور:

(كان[2]) لونه كلون الخشب الجاف والذي لطخته عوامل الجو والطقس مناسباً لرحّالة الأجواء هذا، ذو الزرقة الهادئة والتي تبتعد عن زرقة السماء وتقترب من زرقة الأرض، ولا عجب فميدانه (مساره[3]) بين السماء والأرض.

وفي معرض تعليقه على ريشات عنقه التي تبدو مثل ألوان قوس قزح صرخ بعجب:

---

(1) Thoreau.

(2) الأقواس للمؤلف.

(3) الأقواس للمؤلف.

«انعكاسات أعناقها غاية في الجمال، وتذكرني بالصدفات الملقاة على شاطئ البحر».

تبدّل الطيور البالغة منها ريشاتها مرة كل سنة، أما الصغار فتأخذ ألوان البالغين بعد مضي عام على ولادتها. وهي تتناسل من نيسان إلى حزيران، وعلى نحوٍ رئيس في شمال شرقي الولايات المتحدة الأمريكية، وشمالي كندا وفي الميدويست[1].

يمكن أنّ تمتد الأراضي التي تتناسل عليها هذه الطيور إلى مساحة تبلغ 850 ميلا مربعًا. ومنطقة التعشيش هذه كانت في ويسكنسون وتضم حوالي 135 مليون طير. وتستغرق طقوس التودد والغزل والجماع عندها ثلاثة أيام.

يتشابه العديد من طقوسها مع طقوس حمام آخر، بفارق واحد كبير. فأحياناً يندفع الحمام ويضع جناحيه عبر جناحي الوليف ويبدو الأمر كعناق. شأن هذا الغزل لا يوجد عند حمام آخر، وإنّ حدث ووقع حمام مسافر مع أنواع أخرى من الحمام في الأسر وأدى تلك الطقوس، فيخاف الحمام الآخر أكثر مما يتشجع على مبادرات من هذا النوع.

تضع أنثاه بيضة واحدة ترقد عليها ثلاثة عشر يوماً، خلافاً لمعظم أنواع الحمام الأخرى التي تضع بيضتين. وشأن معظم أنواع الحمام الأخرى يتبادل الذكر والأنثى الأدوار في حراسة العش وجمع الطعام. بعد أنّ تفقس الزغاليل، تبقى في العش لأسبوعين ومن ثم تُترك لتتدبر أمرها بسبلها الخاصة. بعد بضعة أيام، يطير الحمام المسافر في أسرابٍ هائلة. ويمكن أنّ يسمع المرء ضجيجه وصخب نداءاته وضربات أجنحته على بعد ثلاثة أميال. أما المناطق التي يأوي إليها فتجذب المفترسين بمن فيهم البشر.

كان الهنود الحمر من سكان البلاد الأصليين يصطادون الحمام

---

(1) Midwest وسط الولايات المتحدة الأمريكية.



حمامة مسافرة. طباعة على الحجر لروبرت هافيل على غرار جون جيمس أودوبون، من كتاب طيور أمريكا. (فيلادلفيا -184 1844).

المسافر، ذلك أنهم كانوا يستهلكون لحومه وريشه وشحومه. وخلافاً للمستوطنين البيض، كان الهنود يصطادون حاجتهم منه فقط. فيما بعد بدؤوا يصطادونه لأغراض التجارة.

كانت بعض قبائل الهنود الحمر تهدد المستوطنين البيض إنْ هم قتلوا الزغاليل التي تبقى في أعشاشها.

أطلقت القبائل الهندية على الحمام المسافر أسماء مختلفة: «أو مي مي نوغ» للبوتاواتومي[1]، و«أوميمي» للألكونكوين[2] وكلا الاسمين يرددان صدى أصوات تلك الطيور. وهناك قبائل أخرى وصفت تلك الطيور بمفرداتٍ أكثر شاعرية، فقد أسمتها النارا غانسيت»[3]، وسكوهان» (الجوال) وأطلق عليها التشوكتاو[4] «بوتشي ناشويا» (اليمامة الضائعة).

أدّى الحمام المسافر دوراً في طقوس الهورونز[5] المحلية وأساطيرهم وشأن العديد من الأقوام الأخرى، ربط الهورونز الطيور بالموت ومع أرواح الموتى الذين يعودون على شكل حمامة. وبالنسبة للميكماك[6] للحمام المسافر دوره أيضاً في كواكب ومجموعات النجوم، وهو واحد من النجوم يقع بين مجموعة الدب الأكبر ومجموعة التاج الشمالي وفيها أحد الطيور يطارد دباً.

وكان للمستوطنين البيض معتقداتهم أيضاً فيما يتصل بالحمام المسافر. ففي قصيدة «إيفانغيلين» للشاعر لونغفيلو[7] ثمة إشارة إلى الحمام المسافر حيث يقيم معه صلة بالموت:

«ثم جاء ليحمل ذلك الوباء الذي حلّ بالمدينة، متنبأً بدلالات



صورة لحمامة السلام من متحف كورت هاوس القديم، فيكسبرغ، الميسيسيبي. زر يعود إلى حقبة الحرب الأهلية.

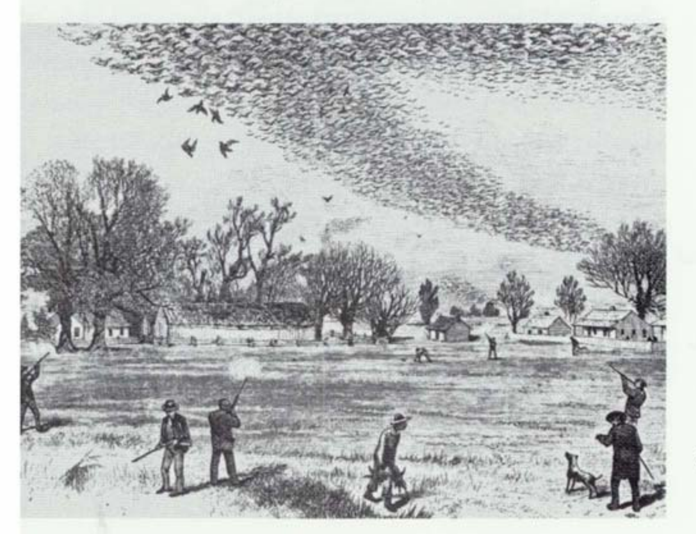
(1) Potawatomi القوم المحليون لشمالي أمريكا.
(2) Algonquin مجموعة من سكان كندا الأصليين.
(3) Narragansett مجموعة من السكان المحليين في أمريكا الشمالية.
(4) Choctaw قوم محليون يقطنون أمريكا الشمالية.
(5) Hurons كونفدرالية محلية في أمريكا الشمالية.
(6) Micmacs قوم محليون في أمريكا الشمالية.
(7) Henry Wadsworth Longfellow شاعر أمريكي شهير.

عجيبة، ومعظمها من أسراب من الحمام البري، تحجب الشمس في طيرانها ببطون خاوية، لا شيء فيها سوى جوزة بلوط.

خطر لـ«كوتون ماثر» وهو أحد المستوطنين فكرة غريبة تجلت في أنّ الحمام يمضي إلى قمر تابع يقع على مسافة قريبة من الأرض بعد أنْ يأوي إلى عشه. وهناك خرافة قالت بها إحدى النساء مفادها أنّ دفن المرء ذكر حمام مسافر في الحديقة من شأنه أنْ يجعل الأزهار أكثر سطوعاً.

وتتغذى هذه الطيور على الجوز أو على البندق بالإضافة إلى ثمار العلّيق والبذور والحشرات الصغيرة.

باتت هذه الطيور رُحّلاً لأنّ الأشجار التي تتغذى عليها تنتج الجوز بكمياتٍ مختلفة في أوقات مختلفة خلال العام، وفي أماكن مختلفة. يعدُّ الحمام المسافر طيراً أكولاً. ربما كان السبب هو خوفه من أنْ يحلّ الجوع في الأرض. أحياناً تمتلئ حويصلات تلك الطيور بالطعام حتى أنها تتضخم لتصبح بحجم البرتقالة.



حفر من Illustrated Sporting and Dramatic News 3 تموز 1875.

يمكن أنْ تتخذ هذه الحويصلاتُ حجم ثُمن بنت[1] من ثمار الجوز. وربما يجد المرء في حويصلة واحدة كميات كبيرة من البلوط، 17 جوزة، و104 من حبوب القمح في أخرى ونصف بنت[2] من جوز الزان في حويصلة ثالثة. وللحمام المسافر عادة منفرة أيضاً، فهو يأكل أيّ شيء آخر يجده حتى وإنْ كانت حويصلته مملوءة.

استخدم المزارعون أساليب شتى لإخافة الحمام، منها فزاعات الطيور وأصوات الأجراس، وفي النهاية لجؤوا إلى البنادق. إذ من الممكن للمزارعين أنْ يخسروا محاصيلهم كما حدث مع المستعمرين في بلايموث في عام 1643. وفي كندا كان حراس الكنيسة يستدعون لهذا السبب، ذلك أنَّ الأسقف كان يستخدم هذه الضغوط لطرد الحمام بسبب الدمار الذي كان يحل بالمحاصيل.

أصبح الحمام المسافر مصدراً ضرورياً للطعام في البلاد على الحدود وفي المدن.

ونشرت كتب الطهو التي ضمت وصفات الحمام المسافر: إذ كان يُحضَّر في الفطائر، كحمام مُفَخّر[3] وهناك المشوي والمحمص والمُدَخن والمُملح وحتى المُخلل. فقد بات الحمام المسافر طبقاً رفيعاً في بيوتات المدن وفي المطاعم. نشرت صحيفة «ذِ نايل ربليكان The Niles Republican» التي كانت تصدر في بيرن كاونتي- ميشغن هذه القصيدة الصغيرة عن الحمام المسافر:

عندما أصوِّب بندقيتي
على حمامات السماء
أودّع الخنازير والفاصولياء
وأعيش على فطائر القدور الشهية.

لكنَّ الطلب على الحمام المسافر من أجل موائد الطعام، لم

(1) Pint 0.473 لتر.
(2) انظر الهامش السابق.
(3) مطهو في الفخار.

يصبح مشكلة حتى منتصف القرن التاسع عشر. فمع تطور السكك الحديدية، وبعون من التلغراف، تزايد عدد الصيادين حتى باتوا آلافاً ينزلون إلى مستعمرات الأعشاش ويقتلون الطيور التي كانت تنقل على جناح السرعة إلى المقاصد الرئيسة.

كانت أعداد الحمام الذي تم نقله مهولة. وأما مستعمرة هذا النوع الحمام في بلاتسبرغ في نيويورك في عام 1851 فقد وفرت 1،8 مليون طير وفي عام 1883 وفرت مونرو كونتي – ويسكنسن، 2 مليون طير.

كانت هناك طريقتان رئيستان في الصيد: الشباك، والبنادق. كانت الأراضي تنظف من النباتات وتنشر الحبوب المعالجة (أحيانا تنقع بالويسكي) على الأرض. وكان الحمام الطعم[1] يستخدم كشراك بعد أنْ تخاط أجفانه بعضها ببعض، ويوضع في الحقول على مجثم يرتفع عدة أقدام عن الأرض، ويُلبس أردافاً من جلود يربط بها حبل. عندما يُحلّ الحبل، يسقط المجثم وكذلك الحمام الطعوم. تظهر الحركة التي تقوم بها الحمامة للحمام المسافر البري وكأنّ واحدة منها تهبط إلى الأرض.

عندما يرى من ينصب الشراك سرباً قادماً يحرر الحمامة الطعم بالإضافة إلى عدة حمامات أخريات تعرف باسم «الطيارين». كانت تلك الحمامات تربط بحبلٍ طويل وتطير في الجو لتجذب السرب البري. وترمى عليها شباك ضخمة في الوقت الذي تحطُّ فيه على الأرض، ومن ثم تُثَقل الشباك لإبقائها على الأرض. في بعض الأحيان كانت الشباك توضع عبر الممرات التي يطير خلالها الحمام، أو بالقرب من الأمكنة حيث يأوي. وفي الليالي يقاد الحمام الآيب إلى أعشاشه إلى الشباك عبر المصابيح اليدوية والحجارة.

وصف أودوبون وبكل وضوح بعضاً من الطرق التي كان يتمُّ فيها

---

(1) Stool Pigeons سبق التنويه إليها.

نصب الشراك للحمام. فقد كتب الرجل عن قتل أعداد هائلة من الحمام المسافر في «غرين ريفر» كينتوكي:

فجأة انطلق صراخ مهول بكلمات: «لقد أتوا!» أما الجلبة التي يصدرون، رغم أنها بعيدة، فقد ذكرتني بعاصفةٍ شديدة في البحر، تمر عبر سواري وصواري سفينة طوت أشرعتها. عندما وصلت الطيور ومرت فوقي، أحسست بتيار من هواء فاجأني. سقطت الآلاف من الطيور قرب الرجال الذين يحملون الأعمدة الخشبية. أما الطيور فاستمرت بالتدفق. أُضرمت النيران وقدم مشهد فخيم، مدوّخ، لا بل يكاد يكون مرعباً. فقد حطت الطيور التي وصلت بالآلاف، في كل مكان، واعتلت بعضها بعضاً إلى أنْ تشكلت، على الأغصان وفي جميع أرجاء المكان، كتل صلبة قاسية ضخمة كما البراميل. واستسلمت مجاثم الطيور هنا وهناك لثقل الصدمات التي أحدثتها سقطات الطيور، وتحطمت وقبعت أرضاً، مُدمّرة مئات من الطيور في الأسفل، دافعة المجموعات التي التصق بعضها ببعض والتي حملتها العصي هناك. كان مشهداً متخماً بالصخب والفوضى، لدرجة أني ألفيت عبث ما يمكن أنْ يقال. كما لم يكن هناك من طائل في الصراخ إلى أولئك الذين كانوا بالقرب مني. وحتى دويّ البنادق لم يعد يسمع، ولم أرَ إطلاق النار إلا عندما كنت أرى الرماة يعيدون تلقيم بنادقهم.

كان جُلّ من ينصبون الشراك يقتلون الطيور بكسر رقابها أو جماجمها:

«من الممكن لهذا أنْ يستمر ساعاتٍ طوال، ما يخلّف أيدي متقرحة حتى تعجز الأصابع عن الحركة».

إنَّ خوف الحمام من منظر الدماء أو رؤية الريش يجعل من ينصب الشراك والشباك ينظفون معدّاتهم على نحوٍ كامل بين فترات التحضير لجولة ثانية من نصب الشراك.

أدى نجاح البشر في إيقاع الطيور في الأسر إلى ترسيخ صناعة



حمام مسافر رسم مائي من كتاب Interesting Selections from Animated Nature ii (لندن 1809).

أخرى:

الرماية على الحمام؛ إذ كان الحمام الحي يباع كأهداف في منافسات الرماية التي نجم عنها ضحايا كثيرة. ففي عام 1881 وفي أحد التدريبات في جزيرة كوني قتل أكثر من 20000 طير. وفي واحدة من المباريات، كان على المتسابق أنْ يقتل 30000 طير ليُعدّ فائزاً». أما الشخصية الأشهر في حلبة الرماية فكان الكابتن آدم إتش بووغاروس الذي قتل 500 حمامة في 528 دقيقة بحشو بندقيته. كانت الرماية رياضة متوحشة، فقد شوهت العديد من الطيور قبل أنْ يحرروا وذلك لجعلهم طائشين. إذ كانت الطيور تنقل في أقفاص ضيقة تُحشر فيها من دون ماء.

وعندما يصلون إلى مقصدهم يقدم الماء إليها ويموت العديد منها أثناء اندفاعها إليه. كان ما يقارب 50000 طير تُستخدم من أجل منافسات الرماية التي كانت تقام أسبوعياً.

لفتت هذه الممارسات الوحشية الأنظار إليها. وبعد سبع سنوات من الاعتراضات والالتماسات، أفلح هنري بيرغ مؤسس الجمعية

وظف الحمام كموضوعات فنية، حتى بقايا جثامينه وهياكله العظمية تحولت إلى أشياء جميلة. عنيت هذه الصورة بأصوله القديمة الأركايوبتريكس.



الأمريكية لحماية الحيوانات في منع الرماية على الحمام في نيويورك. وحظرت الرماية بمزيد من الدعم الجماهيري في نهاية الثمانينيات من القرن المنصرم. كانت بنسلفانيا هي الولاية الوحيدة التي استضافت منافسات الرماية على نحو علني وببندقية بماسورتين، وكانت تقام بمعظمها في نوادي رماية خاصة. وأخفقت مساعٍ لتمرير قانون حظر واسع النطاق يشمل الولاية كلها في عام 1999 في هيئة

القضاء في بنسلفانيا.

وحتى تاريخ صدور هذا الكتاب، كان هناك الكثير من الاعتراضات والالتماسات التي قدمها عدد من الجماعات المدافعة عن الحيوان ومواطنين معنيين لجعل الرماية على الحمام أمراً غير قانوني في بنسلفانيا. وبالمقارنة حُظرت الرماية على الحمام في عام 1921 في بريطانيا العظمى.

كما تناقصت أعداد الحمام المسافر خلال عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، ومن ثَمَّ تناقصت نسبة تكاثرها عندما بات الحمام يخشى بني البشر. وبحلول عام 1886 بقي سربان من الحمام فقط أحدهما في بنسلفانيا والثاني في أوكلاهوما.

كان الحمام المسافر مرغوباً جداً كمصدر للطعام، وهدفًا سهلاً للتدرب على الرماية. وقد انقرض هذا النوع من الحمام في الحياة البرية في عام 1900. وأما القوانين التي سنّت لحماية هذا الطير النفيس فقد تأخرت كثيراً.

سُجِّلت آخر حادثة قتل فيها حمام مسافر بطريق الرماية في الرابع والعشرين من آذار من عام 1900 على يد بريس كلاي سوثورث وهو صبي في الرابعة عشرة من العمر في مزرعة العائلة قرب سارمنت في أوهايو. عندما عرفت العائلة بأنّ ذلك الطير كان من الحمام المسافر أخذته إلى أحد المحنطين الهواة الذي حشاه واستبدل العيون البراقة بأزرار حذاء.

يقبع بوتونز وهو الاسم الذي أطلق على هذا الطير في معرض متحف أوهايو التاريخي المركزي في كولومبوس. كتب في المعرض تاريخ اصطياده في الثاني عشر من آذار، لكن وبحسب بحوث دقيقة جداً قام بها كريستوفر كوكينوس، فهذا التاريخ غير صحيح.

تحدث سوثورث إلى أفراد عائلته الذين اهتموا للأمر عن الطير الذي اصطاده، لكنه لم يدرك فداحة عواقب ما فعل في تلك السنوات

السابقة إلا في نهاية عقد الستينيات من القرن الماضي. في لقاء معها قالت ماري كروس ابنة سوثورث إنّ والدها لم ينتبه إلى الأمر إلا عندما قرأ مقالة ظهرت في عام 1968 في عدد شباط وآذار من مجلة Modern Maturity تناولت الحمام المسافر وأشارت إلى الصبي الذي قتل آخر حمامة مسافرة برية. بعد أنْ قرأ سوثورت المقالة كتب إلى محرر المجلة وصف فيها الحدث، لكن لسوء الحظ لم تنشر المجلة مقالته التي عنونها «الصبي الذي بلغ الثانية والثمانين من العمر يسرد حكايته». كانت رسالته تلك توثيقاً لما حدث في الرابع والعشرين من آذار من عام 1900:

في اليوم الذي نحن بصدده كنت أطعم الماشية في ساحة الحظيرة، عندما رأيت طيراً غريباً يأكل حبات من القمح تناثرت بالقرب من الماشية. وعندما اقتربت منه طار إلى شجرة ضخمة كانت بالقرب منا. لقد نشأت في مزرعة وكنت على معرفة تامة بالأنواع العديدة من الطيور البرية. رغم ذلك كان هذا الطير أكبر من اليمامة الشائعة. وأما طيرانه فكان مختلفاً تماماً عن اليمام أو الحمام الشائع. اندفعت إلى المنزل وأخبرت أمي بشأن هذا الطير الغريب.... وبعد محاولات عديدة لإقناعها أعطتني بندقية صيد من عيار 12 وخرطوشة واحدة. كنت ماهراً جداً باستخدام البندقية بما أنني كنت أخرج إلى الصيد مع أشقائي الأكبر سناً. ألفيت الطير يجثم على الشجرة. أرديته ببندقيتي من دون أنْ أسبّب له أي تشويه في مظهره. وأخذته إلى المنزل. عندما رأته أمي صرخت: «إنه حمام مسافر» لقد رأت الآلاف منه عندما كانت طفلة صغيرة».

في الخامس عشر من تشرين الثاني من عام 1949 كانت محطة الإذاعة في كولومبس تبث مسرحية تتحدث عن الحمام المسافر بعنوان The Passenger Pigeon- A Lesson in Conservation. من بين شخصيات المسرحية كان هناك هنود من سكان البلاد الأصليين،



Buttons آخر

حمام مسافر بري.

ومستكشفون، وصيادون، ومستوطنون. ثم بدأ بوتنز[1] يتحدث. لكنه اختتم حديثه على نحو غريب: هل ترون؟ قلت لكم إنني طير مهم، وإنني أستطيع أنْ أسرد حكاية. أنا موضوع الآن على رفٍّ في المتحف. وأحب مكاني هذا. أشعر بأنّ لي هدفًا في هذه الحياة. وأما الباب فهو مشرع الآن وأعتقد بأنَّ بعض الأطفال سيأتون لرؤيتي. آمل أنْ يأتي الكثير من الأطفال إلى هذا المتحف ليرونني. فأنا أحب الأطفال وأعرف أنهم سيفكرون بحمايتنا وحماية الطبيعة عندما ينظرون إليّ وهذا كل ما تبغيه بلادنا. لذا هلموا يا أطفال وانظروا إليّ، وسأنظر إليكم.

أليس ما يحدث هنا شيء غريب؟ طير هو الآن ميّت. وأما أنواعه وأجناسه انقرضت بسبب أفعال صبي صغير. رغم ذلك يعلن عن حبه للأطفال وقبوله سجنه في المتحف؟

أهذا هو صوت حمامة برية مسافرة تتحدث عن الفوائد التي جاء بها انقراض بني جنسها ومزايا احتجازها.

يا له من حزن عميق يتخلل تلك الكلمات التي خرجت من فم هذا

(1) الحمامة التي قتلها الصبي.

الطير بكل بهجة وسعادة.

في عام 1874تم التبرع بحمامتين مسافرتين إلى حديقة حيوان سينسيناتي التي كانت حديثة العهد قبل أنْ تفتتح رسمياً في عام 1875.

بعد عدة سنوات، جاءت إلى الحياة حمامة مسافرة أخرى. وأسميت «مارثا واشنطن» تيمناً بالسيدة الأولى لأمريكا آنذاك. أما تاريخ مجيء مارثا إلى الحياة فغير مؤكد؛ وذلك بسبب العديد من الحكايات المختلفة التي انتشرت عن مالك حديقة الحيوان سول ستيفان وابنه جوزيف. فقد ذكرت الحكايا أنّ مارثا اشتُريت من خارج الحديقة. وفي مناسبات أخرى قيل إنها رأت النور في الحديقة (وُظِّف هذا لتكريس شهرة الحديقة). في عام 1963 شبَّ حريق في الحديقة، واحترقت الملفات والأضابير التي ربما احتوت على دليل يشي بالحكاية الصحيحة عن أصل مارثا.

عاشت مارثا مع حمام مسافر آخر. وبحلول عام 1909 لم يبق هناك سوى ثلاث حمامات مسافرات. وفي نيسان من ذلك العام توفي أحد الذكرين، وخلّف وراءه مارثا وجورج اللذين كانا آخر زوج من الحمام المسافر. وفي تموز من العام التالي، توفي جورج مما أجبر مارثا على أنْ تعيش حياة ملؤها العزلة والوحدة. لم يتم الاحتفاظ بجسد جورج، ذلك أنَّ ريشاته لم تكن في حالة جيدة. وحالما عرف الناس أنّ مارثا هي الطير المسافر الأخير الباقي على قيد الحياة ازداد الاهتمام بها. ورغبت حديقة حيوانات نيويورك بشرائها، لكن سول ستيفان رفض التخلي عنها. باتت مارثا محطَّ اهتمام وجذب كبيرين للناس. إذ بدأ الناس يندفعون زرافات إلى حديقة الحيوان من أجل أنْ يلقوا عليها النظرة الأخيرة قبل أنْ ينقرض هذا النوع من الطيور.

من سخرية الأقدار أنّ المنطقة التي تقبع فيها مارثا حبيسة هي

المنطقة ذاتها التي أُنشئ فيها أول نادٍ للرماية في الولايات المتحدة الأمريكية، وأما الدريئات فكانت الحمام المسافر.

باتت التلال والسماء المحيطة بالمكان والتي كانت تعجّ بأسراب الحمام المسافر فيما مضى، قانعة بآخر أنثى منه رهينة محبسها. تهدّل جناحا مارثا، وأما حركاتها فتباطأت مما أقلق بعض الزوار. ووصل الأمر بأصحاب الحديقة أنْ يلفوا القفص بالحبال في أيام الآحاد لمنع الناس من رميها بالرمال لدفعها على الحركة.

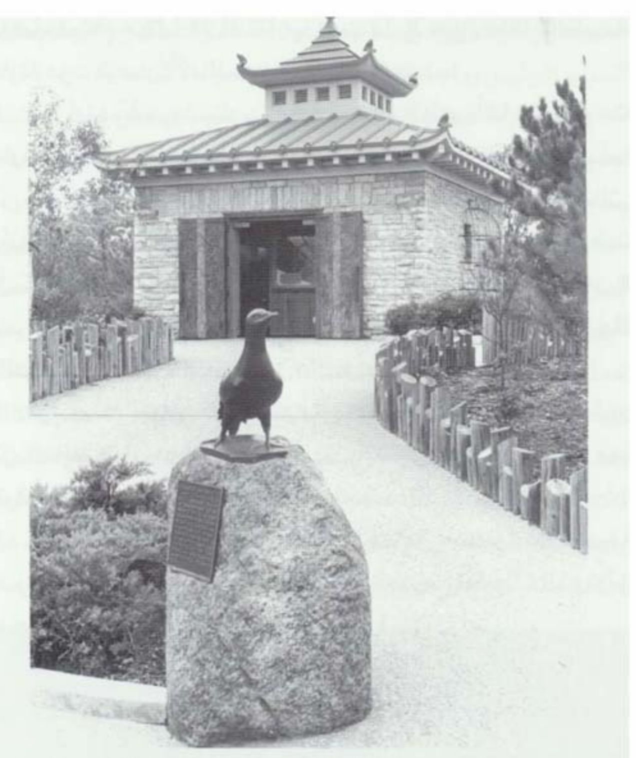
عندما بدأت مارثا تطرح ريشاتها في صيف في عام 1914 بدأ أصحاب الحديقة يجمعونها للاحتفاظ بها. تنبه القيّمون على الحديقة بأنّ عليهم أنْ يحتفظوا بجسد مارثا وريشاتها بعد أنْ تموت، لتراها الأجيال القادمة بعد أنْ عجزوا عن جعل هذا النوع من الطيور يتناسل.

غلفت الأساطير ساعات احتضار مارثا الأخيرة، بالقدر نفسه



مارثا آخر حمامة مسافرة.

تمثال لمارثا تقف مثل ملاك حارس في مدخل حديقة حيوان سينسيناتي وهي المكان الذي توفيت فيه.



الذي غلفت فيه بداياتها. أفادت بعض التقارير بأنّ مارثا ماتت وحيدة في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف ليل الخميس في الأول من أيلول في عام 1914. وتميل هذه الرواية لأنْ تكون الأقرب إلى الصحة. لكن سول وجوزيف ستيفان أكدا موتها في الخامسة مساءً وبأنهما كانا معها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. ربما كان هذا تزويقاً آخر لجعل الحديقة وأصحابها ومن يعملون فيها يبدون بأفضل صورة. عندما تلقى، تي. جلبرت بيرسون رئيس جمعيات أودوبون الوطنية برقية تحمل نبأ موت مارثا، آخر «المسافرات»[1]، علّق على

(1) التعبير للمترجم.

موتها بقوله: «موتها كارثة تقارب أهميتها في عيون علماء الطبيعة، كارثة موت قيصر[1] بالنسبة للألمان في الحرب».

قرر آر. دوبليو. وشفيلدت الطبيب وعالم الطيور أثناء تشريح جثة مارثا ألا يشرّح القلب وفضّل أنْ يبقيه كاملاً، بوصفه قلبًا لآخر حمامة من نوع بلو[2] رآها الناس على قيد الحياة. تضمنت الملاحظات التي دوّنها شوفيلدت أفكاره وتأملاته فيما يتصل بالانقراض، وفيما إنْ كان الناس الذين يرون مارثا، آخر الحمامات المسافرات، في المعرض سيزيدون من وتيرة العمل فيما يتعلق بالحفاظ على البيئة والطبيعة:

«في حينه، سيأتي اليوم عندما ستنقرض كل مجتمعات الطيور من العالم كلياً.... وهذا المصير يغذّ الخطى على نحو أسرع مما يتوقعه البشر».

في عام 1976كُشِف عن تمثال لحمامة مسافرة في حديقة حيوان سينسناتي بعد أنْ اكتملت أعمال تجديد المَطْير[3] الذي زُيّن بمجسمات لطيور انقرضت وأخرى مهددة بالانقراض.

مارثا الآن متاحة أيضاً لمن يريد إجراء بحوث علمية عليها كصورة بثلاثة أبعاد على موقع Smith-sonian الإلكتروني. وهذا يعني أنَّ المرء يستطيع أنْ يدرسها، من دون أنْ يلمسها وذلك بغية حمايتها من يد الأذية.

إنه فصل حزين في تاريخ الإبادة والاستغلال. ورغم وجود عدد من النظريات التي اقترحت الأسباب التي وقفت خلف انقراض الحمام المسافر بمثل هذا الوقت القصير، مثل الارتفاع في نسبة الأمراض التي أصابتها، واستنزافها والعجزعن تكاثرها في الوقت الذي كانت تتناقص فيه أعدادها، وهجر الأعشاش بعد أنْ سرق

(1) Kaiser إمبراطور ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

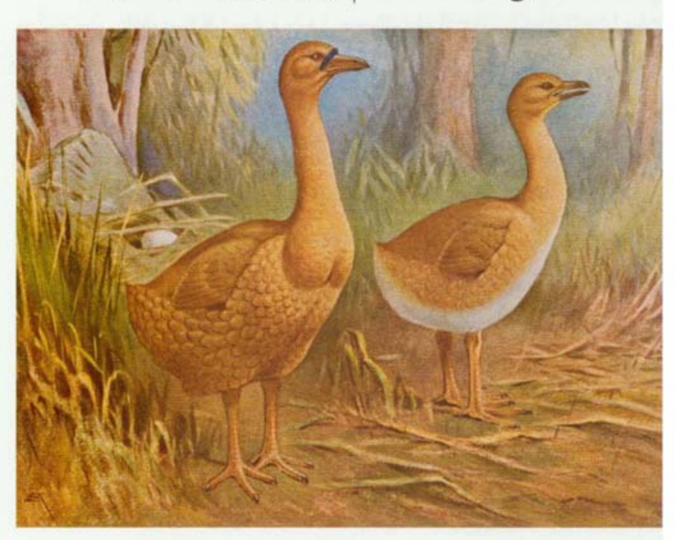
(2) Blue Pigeon سبق التنويه إليها.

(3) القفص الكبير.

الصيادون الزغاليل، وربما تفضيلها لمستعمرات أكبر وأضخم، لكن السبب الرئيس وراء انقراضها هو يد البشر «الآثمة».

في عصرنا هذا وفي الوقت الذي نستطيع فيه أنْ نخترع أشياء جديدة، ونكتشف مجرّات جديدة، ونجد علاجات لأمراض جديدة، سمحنا للحمام المسافر، ويا لعارنا، أنْ يولي إلى غير رجعة.

هناك أنواع أخرى من الحمام انقرضت أيضاً بما فيها، الهولاندايز Hollandaise Alectroenas nitidissima، أو حمام البلو الموروشيوسي Mauritius Blue في عام 1826. وهناك يضاً حمام البونين وود Bonin Wood Pigeons Columbidae Columba versicolor الذي شوهد آخر مرة في عام 1889 وهناك حمام تشويسل كريستيد Choiseul Crested Pigeon Columbidae Microgoura meeki في جزر سليمان. لم نعرف بوجوده إلا من خلال الأسترالي إي. إس. ميكس الذي جمع في عام 1904 ستة أنواع من هذا الحمام من تاجر في إحدى القرى.



رودريغوز سوليتاري، بيزوفاس سوليتاريا.

فشلت الحملات الاستكشافية التي قادها علماء طيور محنكون، وهي جزء من حملة وتني ساوث سي Whitney South Sea Expedition للمتحف الأمريكي في عام 1927 و1929، في العثور على أي من أنواع الحمام هذه. أخبر سكان الجزيرة المستكشفين بأنّ استقدام الهررة أدى إلى زوال تلك الأنواع.

في نيوهيبريدز[1]، وفي جزيرة تانا، يعيش يمام تانا Columbidae Gallicolumba ferruginea. لا يعرف سوى القليل عن هذا النوع من الحمام، ما خلا بعد الملاحظات والرسومات التي دوّنها ورسمها عالم الطبيعيات يوهان رنهولد فورستر وابنه، اللذان ارتبطا بواحدة من رحلات كابتن كوك البحرية. في كتابه Observations Made During a Voyage Around the World (1778)، كتب فورستر عن استكشافهم لجزيرة تانا حيث مكثا أسبوعين. وفي السابع عشر من شهر آب من عام 1774 كتب فورستر: «وصلنا إلى الغابات... حيث أردينا يمامة من نوع جديد. كانت يمامة صغيرة بصدرٍ ورأسٍ بني باهت، لكن ما ميزها عن اليمامات الجديدة الجناحان الخضراوان الغامقان والعينان الصفراوان الغريبتان».

ويستمر وصفه المفصل «للمنقار الأسود، والأقدام الحمراء والبطن رمادية اللون والظهر الأرجواني الغامق الميال إلى الحمرة».

تجلَّت واحدة من الاكتشافات التي أثارت دهشة فورستر وجود جوزة طيب برية في حويصلة يمامة تانا التي أرديت برصاصهم. إذ عجزوا عن العثور على شجرة الجوز تلك، لكنهم على الأقل باتوا يعرفون بأنها موجودة من خلال ذلك الطير. اعتُقد حينذاك أنَّ يمامات تانا تلك كانت قد انقرضت في عام 1800.

وُجِدَ حمام ويمام آخر في أصقاع شتى من العالم وولى من دون أنْ يعيره أحد أي اهتمام. ولكن كم منه انقرض من دون أنْ يُوثّق

(1) New Hebrides مجموعة من الجزر تقع على الشاطئ الغربي من اسكتلندا.

ذلك، ومن دون أية تفاصيل حتى لو كانت متواضعة، فلا أحد يعلم.
ثمة القليل مما يعرف عن حمامة جزيرة نورفولك Norfolk Island Pigeon Columbidae Hemiphaga novaeseelandiae spadicea آخر مدونة ذكرت مشاهدتها كان عام 1801.

هناك حمامة أخرى وهي حمامة لورد هاو آيلاند[1] (Columbidae Columba vitiensis godmanae) معروفة لدينا بفضل لوحة رسمها ميدشيبمان جورج رابير الذي كان على متن «سيروس» سفينة جلالة الملك في عام 1790 عندما توقفت السفينة في جزيرة لورد هاو لتتزود بالمؤن. لم يدرك الناس بأنّ تلك اللوحة هي كل ما يملكون عن هذا الطير إلا في عام 1915، إذ لم تجمع أي أنواع منها.

لقد تسبب لطف تلك الطيور وجرأتها في دمارها. فقد كان من السهولة بمكان القبض عليها، وأخذ العديد منها إلى السفن الأوروبية كمصدر للطعام. دوّن الطبيب الجراح أرثر بوز في عام 1788 في كتابه Lady Penrhyn عن طيور جزيرة لورد هاو، التالي: «كانت أضخم طيور رأيتها في حياتي، كما كانت أليفة وديعة كتلك التي وصفتها سابقاً وكانت تجلس على أغصان الأشجار إلى أنْ تذهب إليها وتأخذها بيديك.... عدة مئات منها ومن جميع الأنواع، أمسكنا بها وحملناها إلى سفينتنا وسفينة تشارلوتي[2]».

وبحلول عام 1853 كانت حمامة جزيرة لورد هاو قد انقرضت.

أعلنت منظمة Bird life International في قائمتها لعام 2008 عن الطيور المهددة على كوكبنا، رسمياً عن انقراض حمامة ليفربول Liverpool pigeon. كما انقرضت الحمامة الخضراء المرقطة (The Spotted Green Pigeon (Caloenas.

كما انقرض الحمام في العديد من مناطق العالم، ففي الفترة

(1) Lord Howe Island pigeon حمامة جزيرة لورد هاو.
(2) Charlotte اسم سفينة.

الواقعة بين عامي 1950 – 1985 اختفت كل من يمامة ماريانا فروت دوف[1] والوايت ثروتد غراوند دوف[2] من غوام[3]. والسبب في انقراض تلك الأنواع أفعى الشجرة البنية Brown Tree Snake (Boiga irregularis))، التي اعتُقد بأنها وصلت من أستراليا أو غينيا الجديدة بالطائرات أو السفن من دون أنْ ينتبه إليها أحد. وساهمت الغابات الكثيفة ووفرة الغذاء وغياب المفترسين، في ازدهار تلك الأفاعي. أما الأفاعي الأخرى والوحيدة التي وجدت في جزيرة غوام فكانت بحجم دودة الأرض، لذا لم تكن تلك الطيور تخشى الغزاة. كما لم تختبرهم، ولم يكن عندها من دفاعات فطرية ضدهم.

رغم ذلك تحققت بعض النجاحات. فقد وجدت الحمامة الوردية Pink Pigeon وهي نوع مهدد بالانقراض فقط في جزيرة موريشيوس، وكانت هدفاً لحملة تناسل قام بها عالم الطبيعيات الراحل جيرالد دوريل. وحتى أثناء وصفه جمالها مسكوناً بتأمل هذا الطير النادر، انزلق دوريل إلى تعليقاتٍ عبر فيها عن استيائه فيما يتصل بذكاء هذا الطير وشخصيته:

«عندما اقتربنا من السلك، حدّق بنا بطريقة خرقاء لطيفة تدل على اهتمام يتميز بها الحمام ومن ثمَّ خلصنا من أفكارنا تلك، فقد أرخى نفسه إلى نعاس خفيف. أحسست أنه وحتى بالرغم من أنّ ندرة هذه الطيور جعلتها على جانب كبير من الأهمية البيولوجية والزراعية، فلا يستطيع المرء أنْ يقول بأنها تمتلك شخصيات مؤثرة على البشر أو ملهمة لهم.

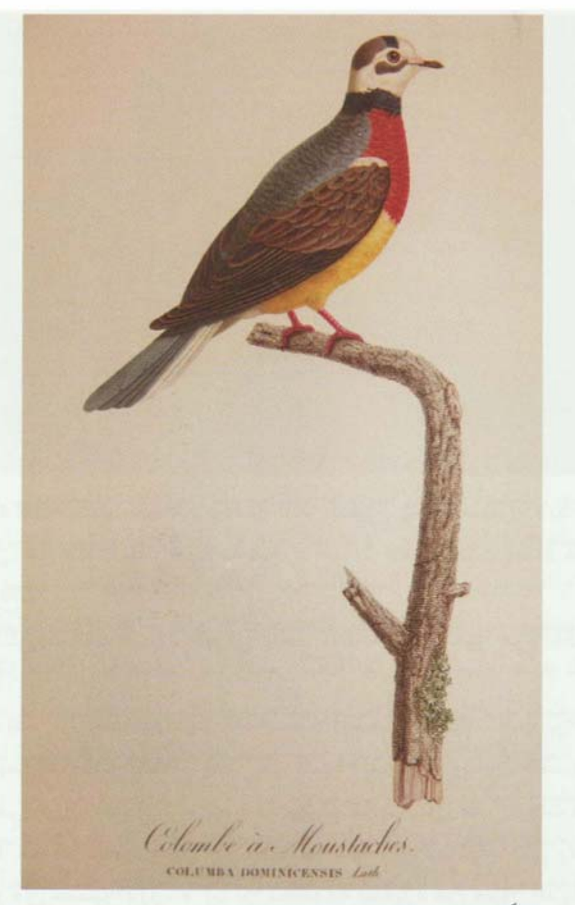
كتب فيما بعد: «أفلحت أنثاه، شأن جميع إناث الحمام، في أنْ

(1) Mariana Fruit Dove (يمامة ثمار ماريانا) وماريانا مجموعة من الجزر في غربي المحيط الهادي.

(2) White throated Ground Dove (يمامة الأرض ذات الحنجرة البيضاء).

(3) Guam جزيرة ومنتجع سياحي في شمالي غرب المحيط الهادي.

Colombe a Moustaches› Columba .dominicensis
حفر لسيزر مارسي على غرار مدام نيب من كتاب Les Pigeons (باريس 1811).



تبدو خلواً من التعابير، مُهانة وفي حالة من الهيستريا في آن، شأن عذراء من عهد ريجنسي[1] على وشك أنْ تبدأ بلوغها». يتابع دوريل

(1) Regency هي الفترة التي تمتدُّ في بريطانيا العظمى من 1811-1820 خلال عهد جورج أمير ويلز الذي حكم بوصفه وصياً على عرش والده الملك جورج الثالث. كما تعني أيضا الفترة الممتدة من عام 1715 إلى عام 1723 في فرنسا خلال عهد فيليب دوق أورليانز والذي حكم كوصي على عرش الملك لويس الخامس عشر.



دودو حفر بالألوان على غرار تفصيل من رويلاندت سافيري، Fall of Adam. 1626 «سقوط آدم» 1626 كانت فيما مضى في Konigliche National-Galerie zu Berlin.

نبرته تلك: «عندما نأخذ وداعة تلك الطيور في الحسبان، لابد أنْ نسأل، هل كانت تلك الوداعة مجرد غباء؟ لقد فوجئت ببقاء هذه الأنواع».

لكن عندما أمسك دوريل بأحد تلك الطيور غيّر من أفكاره قليلاً:

«بعد أنْ حدّقت فيها، متحسساً ريشها الناعم كالحرير في أصابعي سامعاً رعشاتها وضربات قلبها المستمرة، وصوت تنفسها، سكنني حزن عميق. كانت واحدة من ثلاثة وثلاثين طيراً نجت من بقايا حطام سفين حمل بني جنسها متدبرين بقائهم على رمث صنع من خشب الأرز. لا بدَّ أنّ مجموعة صغيرة من طيور الدودو، وهي آخر الأنواع غير الضارة، شقت طريقها في الماضي وواجهت المجزرة الأخيرة التي كان أبطالها خنازير وكلاباً وهررة وقروداً ومن ثم الإنسان، واختفت إلى الأبد بغياب من يرعاها ويقدم لها ملاذاً تتناسل فيه ويقيها أعداءها.

استمرت محمية الحياة البرية Wildlife Preservation

Trust في جيرسي والتي كان يملكها دوريل، محمية (بات اسمها الآن حديقة حيوان دوريل للحياة البرية The Durrell Wildlife Conservation Trust) في برنامج التناسل للحمام الوردي[1] في موريشيوس والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

بات الآن عدد الحمام الوردي الذي وضع في حدائق الحيوان حوالي 180 طيراً (في عام 1993 كان هناك اثنا عشر طيراً منها فقط اكتشفت في براري موريشيوس). وبما أنَّ وجود الحمام الوردي يقتصر على جزيرة موريشيوس فقط، فإنّ برامج مثل محمية الحياة البرية هي طريقة للحفاظ على الأنواع المهددة بالانقراض، كي لا تعاني من المصير ذاته الذي لقيه قريبها الدودو.

أعلنت منظمة Birdlife International لعام 2008 رسمياً عن الطيور المهددة بالانقراض في العالم، انقراض حمام ليفربول. أما الحمام الأخضر المبقع[2] (Caloenas maculata) والمعروف باسم حمام ليفربول، ولأنه النوع الوحيد الباقي حتى الآن فقد وضع في متحف ليفربول العالمي لعرضه بعد هذا الإعلان. لقد أقرت المنظمة فقط بهذه الأنواع في عام 2008، ومن ثم أعلنته على الفور نوعاً منقرضاً. ما زال المكان الذي وجد فيه في الأصل وأسباب انقراضه غير معروفة. ساد اعتقاد أنّ هذا الحمام سكن الغابات بسبب لونه الأخضر.

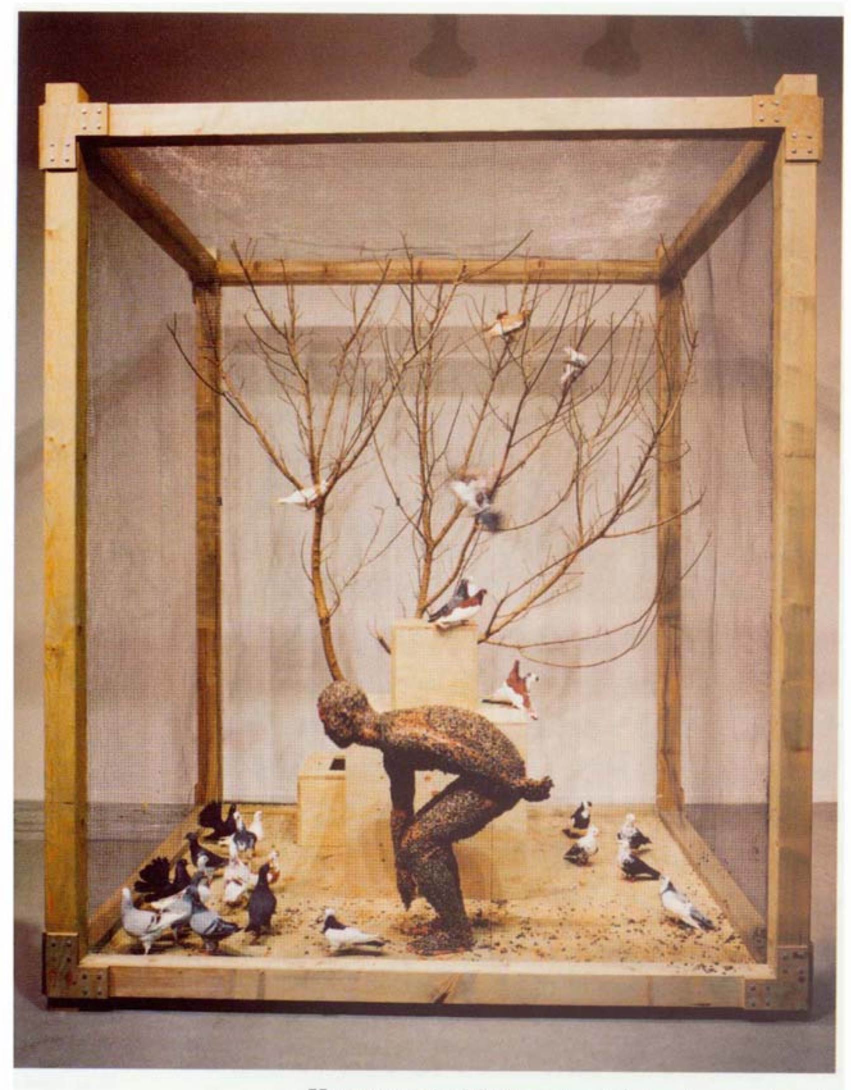
يحتوي القليل من عائلات الطيور الكبيرة في العالم على نسبة مرتفعة من الأنواع المهددة بالانقراض. يعيش معظم هذا الحمام/اليمام في الجزر التي يجب عليها أنْ تسنّ قوانين وتشريعات للتحكم بالصيد أو منعه، وتأسيس أماكن محمية؛ للحدّ من خسارة الطيور فيها وتأسيس ما يشبه المحميات بغية إعادة تلك الطيور إلى الحياة

(1) سبق التنويه إليها.

(2) سبق التنويه إليها.

البرية، ومن ثمَّ نقل مزيد منها إلى مناطق جديدة مناسبة لزيادة أعدادها.

وإذا ما قمنا بتنحية معظم الحكايا الموجودة في الكتب التي تتحدث عن الدودو، وأعداد الحمام المسافر التي انقرضت، والتي من الصعب أنْ يتخيلها المرء، فإن الحقائق التي تناولت الثلاثمئة وثمانية عشر نوعاً من حمام الكولومبيد Columbid والثلاثة عشر نوعاً التي انقرضت في السابق، وحوالي تسعة وخمسين نوعاً من الحمام واليمام المهددة بالانقراض (تشكل نسبة 20 % من جميع أنواع الحمام تقريباً، من شأنها العمل على تنحية تحاملنا لكي نحافظ على الحمام ونحميه ونتعاطف معه.



زانغ هوان. بذور هامبورغ، أداء، هامبورغ Kunstuerein 2002.

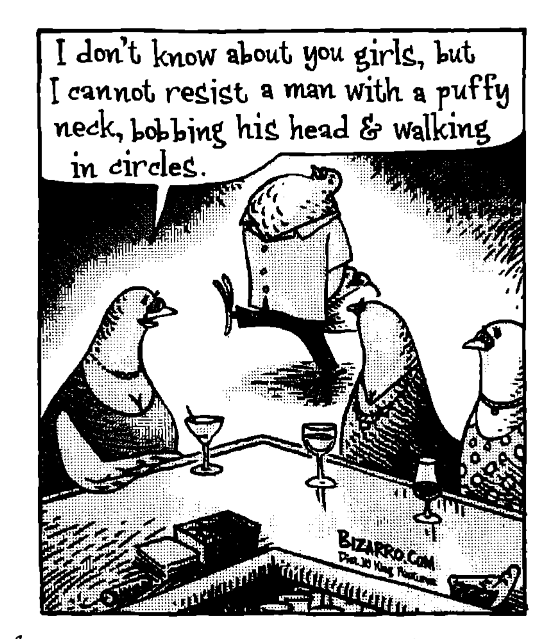
خاتمة

الحمام؛ إنْ كنا لا نستطيع أنْ نقدر جماله ربما نستطيع أنْ نعجب به ونمتدح قدراته الملاحية، وقدرته على التكيف ودوره في تغيير مسار التاريخ البشري؛ من دوره في تطوير نظرية الارتقاء إلى التأثير في حصيلة الحروب.

في كتاب بوب غراهامHow To Heal A Broken Wing (2008) ينتبه طفل صغير إلى حمامة جريحة، لم يتمكن البالغون من ملاحظتها.

ربما علينا أنْ نتعلم فهم البراءة واستثارة عين الطفولة، فهم قلب الفنان ومشاعره. في مشروع كتاب أوميغا غودوين Pigeons of Melbourne 2007 يتجمع حمام صنع من الفيبركلاس الوردي بالحجم الطبيعي في الأماكن العامة مع البشر. إنها جزء من مشهدنا الطبيعي وتذكرنا بأننا نحن أيضاً مُجتمعيون. في الثالث عشر من حزيران من عام 2008 احتفلت نيويورك بالعيد الوطني للحمام هذا اليوم الذي خُصص دفاعاً عن حمائم المدينة، بالإضافة إلى حدث يحتفي بتاريخ تلك الطيور الذي نُسج مع تاريخنا. لقد اختير ذلك التاريخ ليتصادف مع موت تشير آمي الحمامة التي أسلفنا ذكرها في فصل سابق والتي نسب إليها إنقاذ حياة مئة وأربعة وتسعين جندياً من مشاة الجيش الأمريكي في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى (انظر الفصل الثالث)، في الثالث عشر من حزيران من عام 1919.
ربما نأينا بأنفسنا عن أصحابنا من ذوي الريش؛ فقد أصبحنا بالغي التعقيد الأمر الذي منعنا من الاستمتاع بتلك المخلوقات الصغيرة التي تعايشنا في مدننا وتشاركنا فضاءاتنا. أوَ نحتاج إلى أنْ نعيد أصولها إلينا نحن بني البشر لنسمح بتشكيل وثاق معها؟ وإنْ لم نرض بوثاق معها فليكن إقراراً منا بدورها في دراما تاريخ الأديان والثقافة! في الماضي اشتركت الحمائم في الحروب وواجهت نيران

رسم كرتوني[1] لدان بيرارو بعنوان (Bizarro). لقد سحر الحمام البشر ولقرون عديدة، وليس هناك من سبب يجعل من هذا السحر يتوقف. وفي الوقت الذي يكون فيه الحمام مادة للسخرية، فهو ما يزال مواضيع تثير الإعجاب.



البنادق، ومخاطر أخرى في سعيها لتسليم الرسائل التي اؤتُمنت عليها. وفي زمان السلم لزام أنْ نحميها من نيران الأعداء والدمار، ولزام أيضاً أنْ نتعلم كيف نتعايش معها في مدن الجروف الإسمنتية والحواف الفولاذية. أهو حمام أم يمام؟ ضياء أم ظلال؟ حمامات سلام أم جرذان بأجنحة؟ إنّ المفردات التي نستخدمها تعرّفنا وتلقي بأحكامها علينا أكثر مما تفعل مع حمام الروك العظيم، المتواضع رغم ذلك.

(1) Dan Piraro رسام سريالي وكاتب قصص أطفال ورسوم متحركة اشتهر بلوحة بيزارو Bizarro.

الجدول الزمني للحمام

140 مليون سنة

أركايبتيريكس (الجناح القديم).



الحقبة الجيولوجية

من 10-20 مليون عام. تطور نوع كولومبفورمز.

3000 عام قبل الميلاد.

تدجين الحمام في مصر. إفراد العهد القديم الحمام للأضحيات.

1681

انقراض الدودو (رافوس كوكولاتوس).

1815

إقامة أول سباق للحمام في أوروبا في بلجيكا.

1870-1871

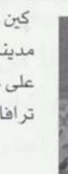
حصار باريس، الحمام يسلم الرسائل.

1896

ظهور أول خدمة بريدية منظمة بطلها الحمام.

1969

مسلسل «شارع سمسم» للأطفال يبدأ ببيرت التي تحب الحمام وتخترع رقصة تسمى «Doing the Pigeon».



2000

كين ليفنغستون محافظ مدينة لندن يعلن الحرب على حمام ساحة ترافالغار.

2007

اعتبار إطعام الحمام في ساحة ترافالغار عملاً مخالفاً للقانون.

القرن السادس قبل الميلاد

تشييد سيروس الأعظم لمركز بريدي للحمام مغطياً مناطق من الشرق الأدنى القديم.

العام 30

تعميد يسوع المسيح: تصوير الروح القدس كيمامة.



1574

حرب الاستقلال في هولندا: خلال حصار مدينة ليدن الذي دام ستة شهور، أنقذ الحمام السكان من خلال نقله رسائلهم.

1592

الفلكي ورسام الخرائط الهولندي بتروس بلانسيوس يطلق على كوكبة من النجوم اسم كولومبا.

1900

آخر صيد موثّق تقتل فيه حمامة مسافرة برية في ولاية أوهايو الأمريكية في الرابع والعشرين من آذار من عام 1900.



الأول من أيلول - 1914

موت "مارثا" آخر حمامة مسافرة في حديقة سينسيناتي للحيوان.

الحرب العالمية الأولى

استخدام 100000 حمامة في المجهود الحربي.



1943

تقديم وسام ديكين للحيوانات الأبطال الذين اشتركوا في الحرب. الحمامة ونكي أول حيوان يتلقى الوسام.

2007

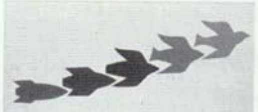
البرلمان البريطاني يحظر سباقات الحمام من برّ القارة الأوروبية إلى بريطانيا بسبب المخاطر المحتملة لانتقال مرض أنفلونزا الطيور.

2008

الإعلان عن انقراض الحمام الأخضر المرقط (كالويناس ماكولاتا) والذي يعرف باسم حمام ليفربول.

13 حزيران 2008

عيد الحمام الوطني، نيويورك.



بيبلوغرافيا

Adcock, Fleur, and Jacqueline Simms, eds, The Oxford Book of Creatures (Oxford, 1997)

Abs, Michael, ed., Physiology and Behaviour of the Pigeon (London, 1983)

Adams, Michelle Medlock, Memories of the Manger (Nashville, tn, 2005)

Allan, Nicholas, The Dove (London, 2004)

Andersen, Hans Christian, The Complete Illustrated Stories (London, 1983)

Armstrong, Edward A., The Life and Lore of the Bird: In Nature, Art, Myth and Literature (New York, 1975)

Attenborough, David, The Life of Birds (London, 1998)

Ayres, Pam, Bertha and the Racing Pigeon (London, 1979)

Baker, Jeannie, Millicent (London, 1980)

—, Home in the Sky (London, 2003)

Balcombe, Jonathan, Pleasurable Kingdom: Animals and the Nature of Feeling Good (Basingstoke, 2006)

Baxter, Ron, Bestiaries and their Users in the Middle Ages (Phoenix Mill, mi, 1998)

Bell, David N., Wholly Animals: A Book of Beastly Tales (Kalamazoo, mi, 1992)

Bell, Krista, and Ann James, Pidge (St Leonards, 1997)

Bell, Krista, and David Miller, Lofty's Mission (Sydney, 2008)

Bennett, Arnold, The Old Wives' Tale (London, 1935)

Blechman, Andrew D., Pigeons (New York, 2006)

Blough, D. S., 'Pigeon Perception of Letters of the Alphabet', Science, 218 (1982), pp. 397–8

Bodenheimer, F. S., Animal and Man in Bible Lands (Leiden, 1960)

—, Animal and Man in Bible Lands: Figures and Plates (Leiden, 1972)

Borowski, Oded, Every Living Thing: Daily Use of Animals in Ancient Israel (London, 1998)

Brown, Danny, A Guide to Pigeon, Doves and Quail (South Tweed Heads, nsw, 1995)

Campbell, Joseph, The Masks of God: Primitive Mythology, 4 vols (New York, 1959–68)

Cansdale, George, Animals of Bible Lands (Exeter, 1970)

Carroll, Lewis, The Works of Lewis Carroll (Middlesex, 1968)

Chiasson, Robert B., Laboratory Anatomy of the Pigeon, 3rd edn (Dubuque, ia, 1984)

Cleasby, Kevin, ed. and revd, Pigeon Classics, vol.

i, Eaton's Treatise on Pigeons (Perth, 1997)

—, Pigeon Classics, vol. ii, Pigeons: Selby, Tegetmeier and Darwin (Perth, 1997)

—, Pigeon Classics, vol. iii, Fulton and Lumley's Illustrated Book of Pigeons (Perth, 2001)

—, Pigeon Classics, vol. iv, Fulton and Lumley's Illustrated Book of Pigeons (Perth, 2007)

—, Pigeon Genetics for Beginners (Victoria Park, 1999)

Collodi, Carlo, Pinocchio (New York, 2005)

Cokinos, Christopher, Hope is the Thing with Feathers (New York, 2000)

Cooper, J. C., ed., Brewer's Book of Myth and Legend (London, 1992)

Couzens, Dominic, Birds by Behaviour (London, 2003)

Crome, Francis, and James Shields, Parrots and Pigeons of Australia (Sydney, 1992)

Curley, Michael J., trans., Physiologus (Austin, tx, and London, 1979)

Darwin, Charles, The Illustrated Origin of Species, abridged and introduced by Richard E. Leakey (London, 1979)

Day, David, The Doomsday Book of Animals (London, 1981)

D'Lacey, Chris, Fly, Cherokee, Fly (London, 1998)

Durrell, Gerald, Golden Bats and Pink Pigeons (London, 1977)

Eaton, John, The Circle of Creation: Animals in the Light of the Bible (London, 1995)

Ellis, Richard, No Turning Back: The Life and Death of Animal Species (New York, 2004)

Farmer, David Hugh, The Oxford Dictionary of Saints, 2nd edn (Oxford, 1987)

Ferguson, Walter W., Living Animals of the Bible (New York, n.d.)

Firth, H. J., Pigeons and Doves of Australia (Rigby, 1982)

Foster, Benjamin R., ed. and trans., The Epic of Gilgamesh (New Haven, ct, 2001)

Freeman, Don, Fly High, Fly Low (New York, 1957)

Gardiner, Juliet, The Animals' War (London, 2006)

George, Isabel, and Rob Lloyd Jones, Animals at War (London, 2006)

Gibbs, Laura, trans., Aesop's Fables (Oxford, 2002)

Gotfryd, Bernard, Anton the Dove Fancier (London, 1980)

Graham, Bob, How to Heal a Broken Wing (London, 2008)

Green-Armytage, Stephen, Extraordinary Pigeons

(New York, 2004)

Grindley, Sally, Feather Wars (London, 2003)

Habegger, Larry, and Amy G. Carlson, The Gift of Birds (San Francisco, ca, 1999)

Hansell, Peter and Jean Hansell, Doves and Dovecotes (Bath, 1988)

Hansen, Ian, and John Winch, Leonardo: Pigeon of Siena (Sydney, 1998)

Hart-Davis, Duff, Audubon's Elephant (London, 2004)

Harter, Walter, Birds in Fact and Legend (New York, 1979)

—, Feathered Heroes: Pigeons from Ancient Times to Now (New York, 1968)

Hill, Anthony, Animal Heroes (Camberwell, 2005)

Holmgren, Virginia C., Bird Walk through the Bible (New York, 1972)

Jenson, Philip P., 'The Levitical Sacrificial System', in Sacrifice in the Bible, ed. Roger T. Beckwith and Martin J. Selman (Grand Rapids, mi, 1995), pp. 25–31

Kilgower, Ian, and Robert Kilgower, Australian Racing Pigeons (Adelaide, 1982)

Kinmonth, Patrick, and Reg Cartwright, Mr Potter's Pigeon (London, 1996)

Kligerman, Jack, A Fancy for Pigeons (New York,

1978)

Knig, Karl, Swans and Storks, Sparrows and Doves (Edinburgh, 1987)

Kovner, Abba, My Little Sister (London, 1971)

Levi, Wendell Mitchell, The Pigeon (Columbia, sc, 1941)

—, Making Pigeons Pay (New York, 1946)

Lochhead, Marion, The Battle of the Birds and other Celtic Tales (Edinburgh, 1981)

Marshall, Rob, Health Programmes for Racing and Show Pigeons (Carlingford, 1997)

Martin, David, Mister P. and his Remarkable Flight (Lane Cove, nsw, 1975)

Mercatante, Anthony S., Encyclopedia of World Mythology and Legend (Frenchs Forest, nsw, 1988)

Milgrom, Jacob, Leviticus 1–16: A New Translation with Introduction and Commentary (New York, 1991)

Morris, Jan, A Venetian Bestiary (London, 1982)

Mukerji, Dhan Gopal, Gay-Neck: The Story of a Pigeon (London, 1938)

Naether, Carl A., The Book of the Pigeon and of the Wild Foreign Doves, 5th edn (New York, 1964)

—, Pigeons (Neptune City, nj, 1984)

Nozedar, Adele, The Secret Language of Birds: A Treasury of Myths,Folklore and Inspirational True

Stories (London, 2006)
Osman, Colin, Racing Pigeons [1957] (London, 1980)
Pinney, Roy, The Animals in the Bible (Philadelphia, pa, 1964)
Porter, D., and A. Neuringer, 'Musical Discrimination by Pigeons', Journal of Experimental Psychology: Animal Behavior Processes, (1984), pp. 138–48
Potter, Beatrix, The Tale of the Faithful Dove (London and New York, 1971)
Rammell, S. Kelly, and Jeanette Conyon, City Beats: A Hip-Hoppy Pigeon Poem (Nevada City, ca, 2006)
Ransome, Arthur, Pigeon Post [1936] (Harmondsworth, 1969)
Roberts, M. F., Pigeons (New York, 1956)
Roberts, M.D.L, and V. E. Gale, Pigeons, Doves and Dovecotes (Kennerleigh, Devon, 2000)
Room, Adrian, ed. and revd, Brewer's Dictionary of Phrase and Fable (London, 2001)
Rothschild, Miriam, Butterfly Cooing like a Dove (London, 1991)
Sanders, Scott Russell, ed., Audubon Reader: The Best Writings of John James Audubon (Bloomington, in, 1986)
Saunders, Nicholas J., Animal Spirits (London,

1995)

Sax, Boria, The Parliament of Animals: Anecdotes and Legends from Books of Natural History, 1775–1900 (New York, 1992)

Simmons, Steven J., and Kim Howard, Percy to the Rescue (Watertown, ma, 1998)

Singer, Isaac Bashevis, 'Pigeons', in A Friend of Kafka and Other Stories (London, 1972)

Thompson, Colin, and Ben Redlich, The Great Montefiasco (Melbourne, 2004)

Vincent, Mike, Queensland Homing Society 1894–1994: A Century of Flying (Brisbane, 1994)

Vriends, Matthew M., and Tommy E. Erskine, Pigeons (New York, 2005)

Watanabe, S., J. Sakamoto and M. Wakita, 'Pigeons' Discrimination of Paintings by Monet and Picasso', Journal of the Experimental Analysis of Behavior, lxii/2 (1995), pp. 165–74Westwood, Jennifer,and Jacqueline Simpson, The Lore of the Land: A Guide to ngland's Legends, from Spring-Heeled Jack to the Witches of Warboys (London, 2005)

Wharton, William, Birdy (Harmondsworth, 1979)

White, E. B., The Points of My Compass (London, 1963)

White, Gilbert, The Illustrated Natural History of

Selborne [1789] (London, 1981)

White, T. H., The Sword in the Stone [1938] (London, 1976)

Willems, Mo, The Pigeon Wants a Puppy! (London, 2008)

Wright Campbell, Robert, Where Pigeons Go To Die (Sarasota, fl, 1978)

Wynne, Clive D. L., Do Animals Think? (Princeton and Oxford, 2004)

جمعيات ومواقع إلكترونية

ثمة العديد من المواقع الإلكترونية التي خصصت لسباقات الحمام، والعناية بالحمام المنزلي وعرضه والكتابة عن دوره خلال الحربين العالميتين وبيع الكتب وأشياء قيمة تتصل به. ثمة مواقع أخرى أيضاً تركز على جانب واحد شأن الحمام المسافر أو الحظائر.

www.peopleforpigeons.blogspot.com

(اتبع رابط envirolink الذي يهدف إلى تثقيف الناس وبالتالي إلى تحسين مواقفهم حيال الحمام).

www.pigeonnetwork.com

www.pigeonpeddler.com

www.pigeons.com.au

wwwurbanbirds.org/pigeons

شكر

أعبر عن شكري لأكاديمية العلوم الإنسانية الأسترالية، لتكرمها بمنحة إعانتني على إصدار الكتاب.

وأجد لزاماً أنْ أشكر زوجي ديفيد وابني ريز على احتفائهما بالزغاليل والحمائم التي جاءا بها من المستشفى إلى البيت (وهذا ما كانت تحتاجه فعلاً) عندما علما بأن ذلك سوف يساعد على بحوثي اللازمة للكتاب. كما أقدّر أناتهما وصبرهما وتفهمهما في أثناء انهمامي بالكتاب. أشكر البروفسورة كاثرين ماثام والدكتورة ليندا مارستون للقراءات الأولى لمخطوط الكتاب، والتعليقات التي أغنتنا بها المسودة الأولى. وإلى الدكتورة ساشا هربرت، وزملاء آخرين في مشفى لورت سميث للحيوانات أتقدم بخالص شكري للنصح الذي أُسديت فيما يتصل ببيطرة الحمائم، والدعم الذي لقيته أثناء وضعي للكتاب. كما أقدم امتناني لديف سدبيري لإتاحته الفرصة لي لأنْ استخدم كلمات أغنيات من كتاب The King of Rome. كما أشكر مركز الحمام «تو ذِ وورلد أوف وينغز» في أوكلاهوما سيتي لتمكيني من استخدام مكتبتهم. ولن أنسى بورنين ورون على حماستهما وتشجيعهما لي خلال مشروعي هذا. الشكر الكبير لجيمس قصار (كسار) الذي أتاح لي رؤية حمائم السباق التي يملكها. إلى جميع أصدقائي، أشكركم على صبركم واهتمامكم. لم يكن لهذا الكتاب أنْ يرى النور من دون إمكانية العودة إلى بحوث سابقة اضطلع بها كتاب ودارسون وشعراء وفنانون وصناع أفلام في الماضي والحاضر. ستون عاماً مضت على كتاب وندل ليفي The Pigeon رغم ذلك يبقى عملاً لافتاً شامخاً في هذا الميدان. ولكل فرد منكم، يخفق قلبي بالشكر.

إلى مايكل ليمان وفريق «ركشن برس» الذي كرس وقته وجهده، أقول وبكل صدق، كنتم رائعين، وأردد معكم وإليكم كلماتٍ قالها إي. بي. وايت : «يحيا الناشرون حيوات متنوعة غير هيّابة كما الحمام، لكنهم أقل جمالاً قبالة السماء».

إي. بي. وايت

شكر على الصور

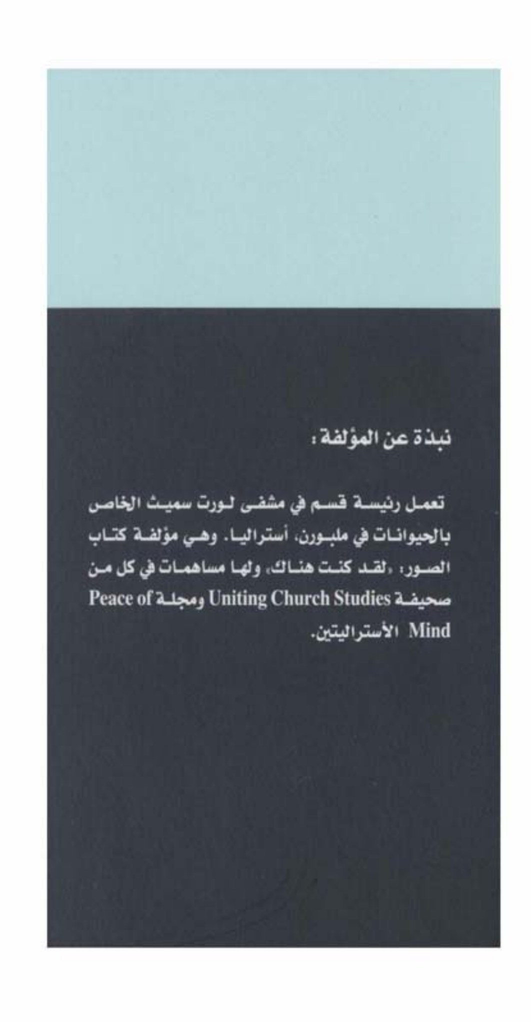
تعبّر المؤلفة والناشرون عن عميق شكرهم للمصادر أدناه للمادة المصورة و/ أو للسماح لهم بإعادة إنتاجها من جديد.

(بعض المعلومات التي أغفلت في الكتاب لأسباب تتعلق بالإيجاز يجدها القارئ العزيز بين المصادر).

From Eleazar Albin, A Supplement to the Natural History of Birds, vol. ii (London, 1740): p. 42; courtesy of the author: pp. 35, 36, 45, 73, 118, 125, 135, 173, 178, 182, 184; photo Lt Bainbridge/Imperial War Museum, London: p. 114; from Pierre Boitard et Corbie, Les Pigeons de voliere et de colombier, ou histoire naturelle et monographie des pigeons domestiques, renfermant la nomenclature et la description de toutes les races et variétés constantes connues jusquà ce jour; la manière d'etablir des colmbiers et volièrs; d'élever, soigner les pigeons... (Paris, 1824): pp. 43, 54; photo Mike Brennan/Scope Features: p. 154; British Museum, London (photos © The Trustees of the British Museum): pp. 21, 62, 81, 84, 92, 141; Musée Carnavalet, Paris (photo © Musee Carnavalet/Roger-Viollet): p. 109; from Mark Catesby, The Natural History of Carolina, Florida and the Bahama Islands..., vol. i (London 1731): p. 22; photo Mike Charity/Rex Features: p. 51; from William Daniell, Interesting Selections from Animated Nature, vol. ii (London, 1809): p. 177; from Charles Darwin, The Variation of Animals and Plants under Domestica-

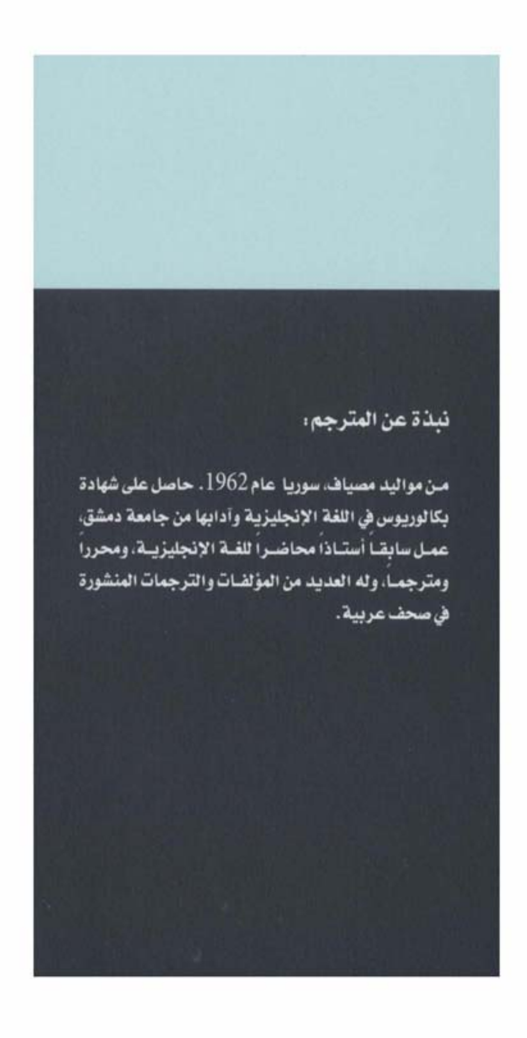
tion, vol. i (London, 1868): p. 34; from E. S. Dixon, The Dovecote and the Aviary (London, 1851): pp. 74, 97; photo © 198_240_Pigeon_End:097_126_Cow_ch4 31/7/09 12:38 Page 227 dny59/2009 iStock International Inc.: p. 71; from George Edwards, Gleanings of Natural History, vol. iii (London, 1794): pp. 18, 132; The Rosalinde and Arthur Gilbert Collection (on loan to the Victoria and Albert Museum, London; photos © Victoria and Albert Museum, London): pp. 148, 149; from John Gould, The Birds of Great Britain, vol. iv (London, 1873): pp. 24, 40; photo Fritz W. Guerin/Library of Congress, Washington, dc (Prints and Photographs Division): p. 131; Imperial War Museum, London: p. 116; photo Imperial War Museum, London: p. 120; photo impure_with_memory/morgueFile.com: p. 12; Madame Knip (née Pauline de Courcelles), Les Pigeons (Paris, 1811): pp. 26, 188; Library of Congress, Washington, dc: pp. 75 (Prints and Photographs Division), 78 (Prints and Photographs Division, G. Eric and Edith Matson Photograph Collection), 99 (Prints and Photographs Division, Historic American Buildings Survey), 110 (Prints and Photographs Division – George Grantham Bain Collection), 113 (Prints and Photographs Division – George Grantham Bain Collection), 127 (Prints and Photographs Division, George Grantham Bain Collection); photo luisrock62/ morgueFile: p. 6; photo

Geoff Moore/Rex Features: p. 31; photo © Françoise de Mulder/Roger-Viollet: p. 130; Musée des Beaux-Arts, Rouen: p. 137; Museo Archaeologico Nazionale, Naples: p. 93; The National Gallery, London: p. 70; National Gallery, London (on loan from a private collection): p. 156; photo courtesy Ohio Historical Society: p. 180; photo courtesy of Oxford University Museum of Natural History: p. 19; photo pindiyath100/morgueFile.com: 147; courtesy of the artist (Dan Piraro): p. 195; from Florent Prevost, Les Pigeons, vol. ii (Paris, 1811): pp. 14, 47; private collections: pp. 79, 157; photo ratatosk/morgueFile.com: p. 12; photo rsharts/morgueFile.com: p. 28; photo Sipa Press/Rex Features: p. 121; from H. E. Strickland and A. G. Melville's The Dodo and its Kindred (London, 1848): pp. 164, 189; © Succession Picasso/dacs 2009: pp. 143, 156; photo © Dominique Valter/Roger-Viollet: p. 83; photos © Roger-Viollet: pp. 89, 93, 108 (top); photo Roger-Viollet/Rex Features: p. 159; 228 198_240_Pigeon_End:097_126_Cow_ch4 31/7/09 12:38 Page 228 229 Victoria and Albert Museum, London (photos © Victoria and Albert Museum, London): pp. 59, 72, 133, 136, 145; Werner Forman Archives: pp. 63, 86; courtesy of the artist (Zhang Huan): p. 192; photos © Zoological Society of London: pp. 14, 18, 22, 24, 26, 40, 42, 43, 47, 54, 74, 97, 132, 177, 188, 189.



نبذة عن المؤلفة :

تعمل رئيسة قسم في مشفى لورت سميث الخاص بالحيوانات في ملبورن، أستراليا. وهي مؤلفة كتاب الصور: ،لقد كنت هناك، ولها مساهمات في كل من صحيفة Uniting Church Studies ومجلة Peace of Mind الأستراليتين.



نبذة عن المترجم:

من مواليد مصياف، سوريا عام 1962. حاصل على شهادة بكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة دمشق، عمل سابقاً أستاذاً محاضراً للغة الإنجليزية، ومحرراً ومترجماً، وله العديد من المؤلفات والترجمات المنشورة في صحف عربية.



الحمامة.. التاريخ الطبيعي والثقافي

يستكشف هذا الكتاب طائر الحمام، الذي يلازمنا في المدينة، فهو يهدل في مغاور محطات القطار، أو يفتش تحت الأقدام عما يسد الرمق. وفي الوقت الذي نجد فيه الكثير ممن يزدرونه، تسبر المؤلفة، بدافع من الافتتان، دلالة هذا الطائر وأهميته الثقافية، من دون أن تغفل مقارنته باليمام. وفي الوقت الذي يرتد فيه الاثنان إلى عائلة واحدة، يُرى اليمام رمزاً للسلام والحب والعذوبة، أما الحمام فيتلقاه البشر بوصفه جرذاً بأجنحة قذرة مشاكسة. لقد ألصق الصيت السيئ بالحمام، لتلويثه التماثيل والمباني، لكنه مثّل أيضاً رسل الإلهام لعلماء مثل تشارلز داروين، ومصدراً للطعام اللذيذ. ويصف هذا الكتاب، مدعماً بالصور، احتفاء وحباً أدبيين للحمام واليمام في أعمال كتاب مثل شكسبير وتشارلز ديكنز ومارسيل بروست، ويظهر كيف أدى استغلال البشر للحمام وبيئته، إلى انقراض عدد من أنواعه، كالدودو والحمام المسافر.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال و ناشئة








9 789948 016809